

الزُّهْدُ وَالْمُتَصَوِّفُونَ

في بلاد المغرب والأندلس
حتى القرن الخامس الهجري

دكتور
محمد بن كابت البيلي

كلية الآداب — جامعة القاهرة

الناشر
دار النهضة العربية
٢٢ شارع عبدالحق ثروت، القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعي
١٩٩٣

جامعة القاهرة

القاهرة

اهداءات ١٩٩٦

الزُّهَّادُ وَالمُتَصَوِّفُ

في بلاد المغرب والأندلس
حتى القرن الخامس الهجرى

دكتور
محمد بركات البيلالى

كلية الآداب جامعة القاهرة

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع ميدان القذافي خروت القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
١٩٩٣

مقدمة

الاسلام دين الاعتدال ، يدعو أهله الى البعد عن الافراط والتفريط وأن يتنهجوا نهجا وسطا في سلوكهم الحياتي فلا يجعلوا أيديهم مغلولة الى أعناقهم ولا يبسطوها كل البسط وأن يوازنوا بين دنياهم وآخرتهم فيعملون لأولاهم كأنهم يعيشون أبدا ويعملون لآخرهم كأنهم يموتون غدا .

لكن تغير ظروف المجتمع الاسلامي وأحواله أدت الى ابتعاد بعض المسلمين عن الاعتدال المشروع والى تكالبهم على عرض الدنيا فاستدعى التوازن ظهور نزعة مقابلة روحية تحت على الزهد في عرض الدنيا طلبا لتعيم الآخرة ، ونتيجة لعوامل عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية تصاعدت النزعة الزهدية مؤدية الى التصوف .

حدث ذلك في الجناح الشرقي للعالم الاسلامي ، لكن الجناح الغربي منه لم يكن بمعزل عما يجري على ساحة المشرق الاسلامي من أحداث وما يهب عليها من تيارات بل كان لتلك الأحداث والتيارات صداها في المغرب الاسلامي وهكذا عرف الزهد والتصوف طريقهما الى بلاد المغرب والأندلس .

لم يفت الدارسون أن يهتموا بدراسة النزعة الروحية - خاصة التصوف - في بلاد المغرب والأندلس لكن الملاحظ أن اهتمام هؤلاء الدارسين انصب بالدروجة الأولى على الفترة المتأخرة بدء من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وهي الفترة التي علا فيها شأن التصوف في بلاد المغرب والأندلس فأصبحت معينا لا ينضب يمد عالم الاسلام شرقه وغربه - بمشاهير الصوفية واعلامهم ممن شهروا وذاع صيتهم كمحي الدين بن عربي وغيره .

لكن الفترة السابقة على ذلك في بلاد المغرب والأندلس منذ ظهور الزهد حتى القرن الخامس الهجري لم تحظ بكبير اهتمام من قبل الدارسين فيما عدا اهتمام البعض منهم ببعض الجوانب اللافتة للنظر

بين ثنايا الموضوع كالترعة المسرية التي أوجدها في لأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة •

ونظرا لما تقدم فقد وجدت من الضروري أن أتناول بالدراسة موضوع الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجرى • ولما كان ظهور الزهد والتصوف في الجناح الغربى للعالم الاسلامى امتدادا أو صدى لظهورهما في الجناح الشرقى منه ، فقد أفردت فصلا من فصول هذه الدراسة لتتبع تاريخ النزعة الروحية من الزهد الى التصوف في المشرق الاسلامى ثم أتبع ذلك بفصل عن الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب الاسلامى وفصل آخر عن الزهاد والمتصوفة في بلاد الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى •

وبعد ، فانتى آمل أن يسد هذا الاسهام المتواضع فراغا في المكتبة العربية أو أن يملأ حيزا فيها ، كما آمل أن يجوز هذا الجهد رضى القارىء وأن يتجاوز عما يعن له في البحث من هفوات •

والله تعالى من وراء القصد ، وبالله التوفيق •

محمد بركات البيللى

من الزهد الى التصوف

وبما لم تتفاوت آراء المسلمين في مذهب من مذاهبهم ولا في نزعة من نزعاتهم قدر تفاوتها في الزهد والتصوف ، فلا يقتصر تباین الآراء فيها على ما بين الفرق الاسلامية بعضها وبعض من تفاوت بصددتهما ، وانما قد تباین آراء أهل الفرقة الواحدة وتتعدد وجهات نظر أتباعها في شأن الزهد والتصوف ويتفاوتون فيما بينهم بين مادح وقادح أو بين مقرر ومنكر . بل ان الزهاد والمتصوفة أنفسهم قد تختلف آراؤهم حول الموضوع الواحد منهما مثل اختلافهم في الزهد وكثرة أقوالهم في التصوف وتباينها حتى أنها تزيد — على حد تقدير الغزالي — على ألف قول (١) ولقد أصاب ابن تيمية اذ قال : « لأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه ، تنازع الناس في طريقهم فطائفة ذمت التصوف والصوفية وأخرى مدحتهم » (٢) .

وليس من الصواب أن نخلط بين الزهد والتصوف أو نقرن بينهما على أحدهما شيء واحد ، فالزهد غير التصوف (٣) واذا كان ثمة ارتباط بينهما فهو كون أولهما — الزهد — مقدمة للآخر — التصوف — وبابا للدخول فيه (٤) وكلاهما زيادة على العبادة المشروعة وان كان الزهد من قبيل الزيادة الكمية بينما التصوف زيادة كيفية أو اضافات نوعية الى العبادة المشروعة . ولا يعدو الزهد في رأى المتصوفة كونه مقاما من مقامات الطريق — أو السبيل — الذي لا بد للمتصوف من سلوكه قبل أن يعد في زمرة الصوفية . غير ان التصوف ليس خاتمة المطاف بالنسبة للزاهد التي لا بد من بلوغه أياها ووصوله إليها ، اذ يمكن للزاهد أن يقف عند

(١) احياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٨٨ .

(٢) مجموع فتاوى ، مجلد ١١ ص ١٩ .

(٣) السهروردي ، مجموع من كلام السهروردي . مصورة بجامعة الملك عبد العزيز برقم ١٢٢٥ ص ٨ .

(٤) كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، ص ٢٢٩ ومحمد جواد مغنية : معالم الفلسفة الاسلامية ، ص ٧٢ .

حد الزهد دون المضي قدما الى آخر السبيل الصوفي ودون الانخراط في عداد المتصوفة ، فالتصوف اسم جامع لمعاني الزهد مع مزيد أوصاف واضافات كثيرة لا يكون الرجل بدونها صوفيا وان كان زاهدا (١) .

والزهد غير الفقر (٢) على الرغم من خلط البعض بينهما أحيانا وتشابه الاشارات اليهما أحيانا أخرى ، فلأنهما من جنس واحد - على حد تعبير ابن تيمية - صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد (٣) حتى أن كاتباً مثل ابن فضل الله العمري أطلق مسمى الفقراء على كافة الزهاد والمتصوفة الذين ترجم لهم في جزء بأكمله من كتابه الضخم المسمى « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » الذي أفرد منه السفر الثامن للحديث عن طوائف الفقراء في الشرق والغرب (٤) . لكن ابن قدامة المقدسي يوضح الفرق بين الزهد والفقر فيرى أن الفقر هو انزواء الدنيا عن العبد أما الزهد فهو انزواء العبد عن الدنيا (٥) . ويرى الصوفية أن كلا من الفقر والزهد مقام قائم بذاته على الطريق الصوفي ينبغي المرور بأولهما - الفقر - لولوج الآخر (٦) .

والزهد في اللغة بمعناه العام خلاف الرغبة ، يقال زهد في الشيء وزهد عن الشيء ، والتزهد في الشيء خلاف الترغيب فيه (٧) أما الزهد بمعناه اللغوي الخاص فله مدلول ديني بمعنى عدم الرغبة في الدنيا وعدم الحرص عليها (٨) وهو بذلك سلوك تعبدى اذ يقال فلان يتزهد بمعنى يتعبد (٩) . لكن الزهد في مفهومه الاصطلاحي لا يقتصر على ذلك المعنى البسيط الذي تشير اليه معاجم اللغة ، وإنما هو مفهوم معقد جدا الى الدرجة

(١) الفزالي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٨٨ .

(٢) السهروردي : المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) مجموع فتاوى ، مجلد ١١ ، ص ١٩ .

(٤) صور مخطوط هذا الكتاب بعناية فؤاد سزكين في فرانكفورت سنة ١٩٨٨ عن خطية أحمد الثالث ٢٧٩٧ / استانبول .

(٥) مختصر منهاج القاصدين ، ص ٢٩٣ .

(٦) السراج الطوسي : اللمع في التصوف ، ص ص ٤٦ - ٤٧ .

(٧) الجوهري : مختار الصحاح ، مادة زهد .

(٨) ابن منظور : لسان العرب ، مادة زهد .

(٩) الجوهري : المصدر السابق ، مادة زهد .

التي لا تمكن كثيرا من الباحثين من القول فيه بقول فصل في مسماه ولا في معناه ولا في نشأته وتطوره ولا في ماهيته وأبعاده فكثرت في ذلك الأقوال وتعددت ، متقاربة أحيانا ومتباعدة أحيانا أخرى .

قلت في معنى الزهد وماهيته أقوال كثيرة ينسب بعضها الى الزهاد والمتصوفة وينسب بعضها الآخر الى آخرين لم ينخرطوا في عدادهم ولم يكن الزهد عنوانا لهم ، فكان ممن نسبت اليهم أقوال في الزهد على بن أبي طالب - رضى الله عنه - اذ نسب اليه قول : الزهد هو أن لا تبالي بمن أكل الدنيا من مؤمن أو كافر (١) . وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء ، وقال أحمد بن حنبل : الزهد عدم الفرح باقبال الدنيا ولا الحزن على اديارها ، وقال ابن تيمية : الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة (٢) .

أما الزهاد والمتصوفة فقد عجت صفحات الكتب بأقوالهم في الزهد نذكر منهما - على سبيل المثال - قول الفضيل بن عياض : أصل الزهد الرضا عن الله وقول عبد الواحد بن زيد : الزهد في الدنيا والدرهم وقول الجنيد : الزهد هو خلو القلب عما خلت منه اليد وقول عبد الله بن الجلاء : الزهد هو النظر الى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينك فيسهل عليك الأعراض عنها ، وقول الشبلي : لازهد في الحقيقة فليس الا ظلف النفس وأعراضها (٣) وغير ذلك من أقوال كثيرة تبين عن تفاوت كبير في نظرات المتصوفة الى معنى الزهد وماهيته ، وقد فطن القشيري الى ذلك التفاوت فحاول تبريره بقوله : ان كلا منهم نطق عن وقته وأشار الى حده (٤) ومن ثم يرى كامل الشيبى أن أقوال المتصوفة في الزهد تعكس المراحل التي مر بها (٥) . لقد كانت هذه الاقوال المتفاوتة في معنى الزهد وماهيته

(١) الكلاباذي : التعرف للذهب اهل التصوف ، ص ٩٣ .

(٢) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ص ١٠ - ١٢ .

(٣) ابن قتيبة الدينوري : عيون الاخبار ، ج ٢ ، ص ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

والقشيري : الرسالة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

والطوسي : المصدر السابق ، ص ٤٧ .

والكلاباذي : المصدر السابق ، ص ص ٩٤ - ٩٥ .

(٤) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٩٢٣ .

(٥) الصلة بين التصوف والتشيع ، ص ٢٣٩ .

أساسا لتصنيفات عديدة ثم تصنيف الزهد فيها ، حينما تحت اسم المر
وحينما آخر تحت اسم الدرجات أو غير ذلك من تصنيفات يروق للدار
عادة أن يصنفوا الزهد فيها ويدرجوه تحت عناوينها كل حسب اجز
أو ما يحلو له من تصنيفات .

فالزهد في رأى البعض درجات ، يرى أحمد بن حنبل — على —
المثال — أن الزهد على ثلاثة أوجه : الأول ترك الحرام وهو زهد العو
والثاني ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص ، والثالث
ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين (١) . ويرى ابن قدامة المقدسى
درجات الزهد ثلاثة : أولها من يزهد في الدنيا وهو لها مشته لكنه يح
نفسه ويقال لهذا المتزهد وهو مبتدأ الزهد ، والثانية من يزهد في ال
طوعا لا يكلف نفسه ذلك لكنه يرى زهده ويعجب به ، ثم الدرجة
الثالثة — وهى العليا — وهى أن يزهد في الدنيا طوعا ويزهد في زه
فلا يرى أنه ترك شيئا لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء (٢) ويضـ
ابن قدامة المقدسى نفسه تصنيفا آخر على ثلاث درجات أيضا : أ
الزهد للنجاة من العذاب وهو زهد الخائفين ، وثانيها الزهد لل
في الثواب وهو زهد الراغبين ، وثالثها — وهى العليا — الزهد طلبا ل
الله تعالى وهو زهد المحسنين العارفين (٣) . وهناك تصنيفات أخر
عديدة قال بها الزهاد والمتصوفة وغيرهم تجعل الزهد درجات والز
طبقات يعلو بعضها فوق بعض مما يتبين منه أن الزهد لم يكن ع
وتيرة واحدة وأن الزهاد كانوا يتفاوتون في المكانة والتقدير .

ويختلف الدارسون — القدامى منهم والمحدثون — حول أصل الزه
ونشأته في الاسلام فمن القدامى من يرى أن الزهد أصيل في جوا
الاسلام غير محدث فيه كالسراج الطوسى (٤) ومنهم من يرى أن الزه
مستحدث في الاسلام غير أصيل في جوهره مثل القشيري المتصوف وإ
الجوزى السنى غير المتصوف ، فالقشيري يرى أن المصدر الأول ه
الاسلام لم يعرف الا مسميات الصحابة ثم التابعين فتابعى التابعين .

(١) ابن قيم الحوزية : المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين ، ص ٣٠٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٠٤ .

(٤) اللمع في التصوف ، ص ٢٢ .

اختلف الناس وتباينت المراتب فقليل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد (١) بينما يرى ابن الجوزي أن « النسبة في زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان والاسلام فيقال مسلم ومؤمن ، ثم حدث اسم زاهد وعابد » (٢) .

أما الدارسون المحدثون فلا يختلف موقفهم من ذلك كثيرا عن موقف القدامى وينقسمون مثلهم إلى فريقين : أحدهما يرى أن الزهد محدث خبر أصيل في الاسلام ، والآخر يرى أنه منبثق عن جوهر الاسلام أصيل فيه . ويعد جولد تسيهر - على سبيل المثال - من أبرز من يرون أن الزهد منبثق عن جوهر الاسلام ، يقول من ذلك « كان الاسلام في أول أمره تسوده فكرة اطراح العالم والزهد فيه وذلك في نفس الوقت الذي غلبت عليه فيه فكرة التوكل والشعور بالخضوع المطلق » (٣) ويضيف جولد تسيهر قائلا : « تصور هلاك العالم والحساب الأخير يوم القيامة ... يبعث في نفوس أولئك الذين اتبعوه - أي النبي صلى الله عليه وسلم - ميولا واستعدادا للزهد والتقشف فأصبح من شعار المسلمين ازدراء حطام الدنيا والتهوين من شأنها » (٤) .

ويبدو أن القائلين بأن الزهد أصيل في جوهر الاسلام غير مستحدث فيه قد فطنوا إلى أن اسم الزهد لم يعرف في صدر الاسلام وأن النسبة في الصدر الأول منه كانت إلى الاسلام والإيمان ، فرأى هؤلاء أن يقسموا نشأة الزهد إلى مرحلتين ، مرحلة ما قبل ظهور اسم الزهد وهي المرحلة الأولى من تاريخه وكان الزهد فيها سلوكا لا اسما ، دعا إليه القرآن - في رأيهم - وانتهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه واتخذ منه عموم السلف الأول مسلكا لهم في الحياة . أما المرحلة الثانية فقد كانت بعد ظهور اسم الزهد وفيها أصبح الزهد منظما ومقعدا ظهرت بوادره في البصرة والكوفة (٥) ثم من البصرة والكوفة امتد الزهد إلى سائر اجزاء العالم الاسلامي (٦) .

(١) الرسالة القشيرية ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) تلبس إبليس ، ص ١٦١ .

(٣) العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ١١٩ .

(٤) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٥) كامل الشيبى : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

وعرفان عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص

٣٥ .

A.J. Arbery; Sufism, London, 1950, p. 45.

(٦)

يبدو أن أصحاب هذا الرأي يخلطون بين ما يدعونه المرحلة الأولى من الزهد - أو الزهد الأول - الذي يرجعونه الى جوهر الاسلام وبين ما جاء به الاسلام حقيقة وهو الاعتدال الذي هو واحد من أهم المبادئ التي نادى بها الاسلام وحث عليها ، فهذا الاعتدال - وان شئت التوسط - نطقت به آيات بينات من كتاب الله وحثت عليه السنة النبوية المطهرة . ففى كتاب الله نقرأ قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (١) وقوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (٢) وقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٣) وقوله تعالى : « والذين اذا أففقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٤) . وفى السنة المطهرة أدلة على هذا الاعتدال - أو التوسط - جلية لا لبس فيها ، منها ما جاء عن أنس بن مالك (رضه) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - يسألون عن عبادته فلما أخبروا قالوا - وكأنهم تقالوها - وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أنظر ، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتمم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس منى (٥) . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص - رضيهما - بعد أن زوجه أبوه امرأة من أشرف العرب فلم يظأ لها فراشا لخمس عشرة ليلة : بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقال عبد الله بن عمرو : نعم يا رسول الله ، فقال له الرسول (ص) : صم صيام أخى داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر اذا لاقى (٦) . وفى هذا دليل واضح على أن منهج

(١) سورة الحديد / آية ٢٣ .

(٢) سورة الاسراء / آية ٢٩ .

(٣) سورة القصص / آية ٧٧ .

(٤) سورة الاسراء / آية ١٠ .

(٥) سورة الفرقان / آية ٦٧ .

(٦) رواه كل من البخارى ومسلم والنسائى والدارمى فى باب النكاح .

(٧) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن حنبل .

الاسلام هو الاعتدال بين حاجات الانسان (١) .

يعترف جولد تسيهر - وهو ممن يقولون بانبثاق الزهد عن جوهر الاسلام وانه أصيل فيه غير مستحدث - بأن التوسط موجود في وثائق الفكر الدينى الاسلامى مشيراً في هذا الصدد الى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . لكن جولد تسيهر بدلاً من أن يلاحظ التوافق بين هذا الحديث النبوى الشريف وقول الله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » فإنه يشير الى توافق هذا الحديث الشريف مع ما يسميه نظرية أرسطو عن التوسط في الأمور .

لا يخفى على حصيف ما يلزم اليه جولد تسيهر لا سيما وأنه حاول اخفاء مراميه وراء قضية الوضع في الحديث واحتمال أن يكون الحديث المشار اليه موضوعاً ، الا أنه بذلك تجاوز حد الخطأ في الحكم على صحة حديث أو وضعه الى الانزلاق الى خطيئة التشكيك واللمز . ولعل هذا يدعونا - بل يلزمنا - بتمحيص رأى جولد تسيهر عن نشأة الزهد في الاسلام (٢) .

يرى جولد تسيهر أن الزهد منبثق عن جوهر الاسلام ، اذ كان الاسلام في أول أمره - وبالتحديد في السنوات العشر الأولى من البعثة - تسوده - على حد رأيه - فكرة اطراح العالم والزهد فيه ، وهذا رأى يمكن تقبله أو رفضه دون خطورة أو ضرر ، لكن الخطورة حقا فيما يضيفه جولد تسيهر بعد ذلك فهو يضيف أن النزعة الزهدية التى جاء بها الاسلام في السنوات العشر الأولى من البعثة لم تلبث - على حد زعمه - أن تلاشت وحلت محلها وجهة نظر دينوية تحرص على متاع الدنيا ، وممكن الخطورة هنا - أو بالأحرى السوء - أنه يرجع هذا التلاشى الذى أصاب نزعة الزهد هذه الى عدة أمور منها :

١ - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - اذا كان قد أعلن حتى النهاية أن السعادة الآخروية هى الغاية من حياة المؤمن فإن من المحتم مع

(١) زينب محمد الحري : الزهد والتصوف بين المؤيدين والمعارضين ،

ص ١٧٣ .

(٢) العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ١١٩ وما بعدها .

ذلك أن تمتزج بمحيط مشاغله وجهة النظر الدنيوية وآذ تتصل به اتصالاً قوياً مباشراً وذلك على الرغم من ارادته ورغبته .

٢ - كانت غالبية العرب الذين انضموا تحت لواء النبي يعتقدون الآمال - في الغالب - على كسب القوائد الميسورة التي عرضت لهم وعلى السعى للاحتفاظ بها ، فترقب الغنائم - في زعمه - كان باعثاً ذا أهمية في نشر الاسلام وهذا ما فطن اليه النبي حينما جد في إثارة حماس جنوده بواسطة المغنم الكثيرة التي وعد الله بها المجاهدين (١) .

٣ - وقبل أن يغمض النبي - صلى الله عليه وسلم - عينيه ، وعلى الأخص بعد وفاته مباشرة ، تحول المبدأ السائد اذن الى مبدأ آخر ، ففكرة الزهد في العالم حلت محلها فكرة فتح العالم التي يقود الدين المؤمنين اليها .

هكذا يكشف جولد يشهر عن عداء دفين للاسلام ويتعمد الاساءة الى نبيه اذ يلزم الى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خضع لضغوط أصحاب المطامع الدنيوية فتخطى عملياً عن فكرة الزهد التي نزع اليها في السنوات العشر الأولى من البعثة وان ظل يردد نعمة الزهد كمفكرة مذهبية اعتقادية نظرية بينما كانت الحقائق الواقعية المادية قد شغلت أذهان الجماعة الاسلامية ودفعتها الى مسالك أخرى غير تلك التي كان الرسول يسير فيها في بدء دعوته .

لا أعتقد أن أي مسلم يمكنه تقبل ما يلزم اليه جولدتسيهر ، فلم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يأتي بشيء من عنده حتى يرضخ فيه لضغوط الدنيويين أو يسايرهم ، وإنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وحياً يوحى ، يبلغ عن ربه ما أوحى اليه به وحاشاه أن ينصاع في ذلك لوجهة نظر دنيوية كما يزعم جولدتسيهر .

ولم يكن ترقب الغنائم سبباً في انتشار الاسلام كما يزعم جولدتسيهر ، فلا يترقب الغنائم الا من أيقن بالنصر ولا يستيقن من النصر الا من آمن وصدق ايمانه ومعنى ذلك أن الايمان سابق على الاستيقان من

(١) يشير جولدتسيهر الى قول الله تعالى « ومغنم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً » صدق الله العظيم

النصر ومن باب أولى سابق على ترقب الغنائم التي لا يحرزها الا المنتصرين ومعنى هذا أن ترقب الغنائم لم يكن سببا في انتشار الاسلام كما زعم جولدتسيهر *

أما وعد الله المؤمنين بمغانم كثيرة - وهو الذي يلزم اليه جولدتسيهر ، فانه اما يكون من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا أن الله كان بما تعملون خبيرا » (١) * والآية الكريمة واضح فيها أنها خطاب موجه من الله تعالى الى المؤمنين الذين آمنوا وصدقوا قبل أدنى وعد بالغنائم تحثهم على مسلك حميد يجب عليهم سلوكه * وهي اذ تعدهم بالمغانم ثوابا على هذا المسلك الحميد الذي تأمرهم بسلوكه فانها توضح بجلاء أن هذه المغانم الموعودة ليست من عرض الدنيا ، فهي اذن مغانم أخروية ومن ثم تسقط حجة جولدتسيهر في الاستشهاد بها على ما يزعمه من حلول النزعة الدنيوية محل الزهد *

وقد يكون الوعد بالمغانم - الذي يشير اليه جولدتسيهر - في قول الله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما » (٢) * لكن هذه الآيات الكريمة توضح بجلاء أن الوعد بالمغانم الذي تتضمنه كان مثوية على البيعة المعروفة تاريخيا ببيعة الرضوان ، وهي بيعة جدد فيها المسلمون عهدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأكدوا ثباتهم على الاسلام واستعدادهم للاستشهاد في سبيل نصرته أى أن الاسلام فيها سابق على الوعد بالمغانم ، ومن ثم تسقط أيضا حجة جولدتسيهر في الاستدلال بها على النزعة الدنيوية التي يزعمها *

ولا يفوت جولدتسيهر أن يلزم بعض اللزم في الفتوحات الاسلامية التي لا يزال ذكرها يورق الأوربين فيزعم أن الفتوح الاسلامية كان يحركها الطمع في خيرات العالم والرغبة في السيطرة عليه متجاهلا أن

(١) سورة النساء / آية ٩٤ *

(٢) سورة الفتح / آية ١٨ - ١٩ *

الاسلام جاء عالميا منذ أول نزوله وأن الدافع الأول للفتوح الاسلامية كان هو تمهيد الطريق أمام الدعوة الاسلامية وابلاغها للعالمين .

وفضلا عن هذا ، يرى جولدتسيهر أن ضعف حركة الزهد وتراجعها — بعد السنوات العشر الأولى من البعثة — ظل يتزايد دون توقف حتى الدولة الأموية التي دأبت بعد ظهورها في التضييق على الروح الدينية لأسباب سياسية من جهة ، ولأن الطبقات التي أثرت من خلال الفتوح اندفعت الى الاستمتاع بملاذ الدنيا من جهة أخرى . لكن الاغراق في الملاذ الدنيوية استتبعته فئة من الذين تشدوا المثل العليا فأظهرت الميل الى الزهد — من جديد — استهجانا للنزعة الدنيوية واحتجاجا على السلطة وتأثرا بالرهينة المسيحية . وهكذا يتبلور تصور جولدتسيهر لمنشأ الزهد في الاسلام في ثلاث خطوات :

- ١ — بداية أولى مع بداية الاسلام نفسه ابثقافا عن جوهره .
- ٢ — ثم تلاشت نزعة الزهد منذ أواخر العصر النبوي وحتى الدولة الأموية نتيجة ظهور نزعة دنيوية .
- ٣ — وأخيرا ميلاد جديد لنزعة الزهد في العصر الأموي ظهرت بوادره في العراق والشام ومصر (١) .

وليس جولدتسيهر وحده الذي يخلط بين بداية الزهد وبين الاعتدال الذي جاء به الاسلام ، وإنما يخلط آخرون غيره ممن يرون أن الزهد منبثق عن جوهر الاسلام ، أصيل فيه غير مستحدث ، يظهر ذلك — على سبيل المثال — في قول الشيبى « ان الاسلام جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الأجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحانية ، وقد كان صنع الاسلام دعوته بالزهد والتقشف العلامة المميزة له عن النظام القرشى في مكة والشعار الذي يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون العبيد حول النبي ويدخلون في دين الله أفواجا » (١) .

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ص ١١٩ - ١٢١ .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ، ص ٢٤٠ .

لا شك أن عبارة الشيبى - مع تقديرنا له - تفتقر الى كثير من الدقة التاريخية ، فالاسلام لم يأت لمحاربة الأرستقراطية القرشية وانما لهداياها واخراجها من الظلمات الى النور ، ولكنها هى التى حاربت واعترضت سبيله . وفضلا عن أن الارتفاع بمستوى الأجراء والفقراء لم يكن يتقدم الدعوة الدينية الروحية - مثلما رتب الشيبى - فان الزهد والتقشف لم يكونا هما الشعار الذى رفعه الاسلام في وجه الأرستقراطية القرشية اجتذبا للضعفاء والمحرومين العبيد ليلتفوا حول الاسلام . فأغلب الظن أن شعار الزهد والتقشف هذا لم يكن هو الشعار المناسب لاغراء الضعفاء والمحرومين العبيد أو لا خافة الأرستقراطية القرشية التى كانت ركيزتها الأساسية عرقية قبل أن تكون اقتصادية اذ لم يكن الغنى والترفع يعم كل أفراد هذه الأرستقراطية وانما كان فيها الغنى والفقير ، فكان محمد نفسه - صلى الله عليه وسلم - ينتمى عرقيا الى هذه الأرستقراطية ، من أكثر بيوتاتها نبلا وشرفا ، خيار من خيار كما حدث عن نفسه صلى الله عليه وسلم ، ولكنه مع ذلك لم يرث عن أبيه الا أقل القليل الذى لم يتعد بضع عنزات وناقة واحدة وبجارية كانت هى حاصنته أم أيمن . وكان عمه أبو طالب بن عبد المطلب ، شيخ مكة في وقته وابن شيخها ، فقيرا ترهقه كثرة العيال ، ولا بد أن آخرين غيرهما من أفراد هذه الأرستقراطية كانت حالهم كحالهما ، ومن ثم لم يكن الزهد هو الشعار الذى يزلزل هذه الأرستقراطية المكية أو يخيفها وانما كان الشعار الذى يزلزلها حقا هو شعار المساواة الذى يسوى بالاسلام بين السادة والعبيد ، وقد أعلن الاسلام في مكة عن هذا الشعار فنزل قول الله تعالى « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » (١) .

ولم يكن الزهد أو التقشف شعارا يجتذب المحرومين الذين كانوا متقشفين بطبيعتهم ليس لهم أصلا ما يزهّدون فيه ولا يحقق لهم الزهد أملا يصبون اليه ولا يفيدهم تقشف سادتهم في شيء بل لعله يضربهم ، وانما كانت آمال هؤلاء العبيد الضعفاء معلقة بالمساواة التى تمحو عنهم ذل العبودية وترفع من شأنهم .

والمساواة في بعض جوانبها - اذا أمعنا فيها النظر - نوع من التوسط أو الاعتدال الذى جاء به الاسلام اذ تضيق الشقة بين الناس وتزيل التباعد

(١) سورة الزمر ، آية ٦ .

بينهم ومن ثم فهي نوع من الاعتدال الذي يسد الفجوات ويقصر المسافات ، والاعتدال - كما أشرنا من قبل - هو الذي جاء به الاسلام ونصت عليه أصوله في الكتاب والسنة واتتهجه الرسول صلى الله عليه وسلم وتأسى به فيه أصحابه رضوان الله عليهم ثم قفا على آثارهم التابعون الذين كانوا يتسبون الى الاسلام والايمان ولم ينسبوا الى الزهد أو التقشف .

ولكن الاعتدال الذي جاء به الاسلام ما لبث أن تصاعد مؤديا الى الزهد ، وحدث ذلك كرد فعل لكثير من العوامل والظروف التي جعلت بعض المسلمين يجيدون عن الاعتدال الذي كان قائما في الصدر الأول من الاسلام ويغالون في النزوع الى الدنيا والانكباب عليها فقابلهم بعض آخر ممن أفرغتهم تلك النزعة الدينية بالأعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة ، فمما لا شك فيه أن الزهد كنزعة روحية نشأ كرد فعل للنزعة المادية التي انغمس فيها بعض المسلمين منذ العصر الأموي ، لكن هذه النزعة الروحية لم تكن احياء لزهد جاء به الاسلام الأول وتلاشى منذ أواخر العصر النبوي - كما زعم بجولد تسيهر - وانما نشأت هذه النزعة الروحية تعميقا للاعتدال وتصعيدا له بلوغا الى الزهد في مواجهة النزعة المادية التي نزع اليها بعض المسلمين نكوصا عن الاعتدال وانحرافا عنه ، ولعل هذا يفسر لنا كون التعريفات المبكرة للزهد تنم عن الاعتدال أكثر مما تعبر عن الزهد بمفهومه الاصطلاحي ، فقد سئل الزهري عن الزاهد فقال : « هو أن لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره » (١) . ولا تتواري هذه النظرة للزهد حتى بعد ظهور الزهد المنظم الذي أصبح حركة روحية مقعدة ينخرط فيها الزهاد الذين أصبح الزهد نسبة لهم ، فلقد أراد السري السقطي المتصوف المعروف أن يصل الزهد بالقرآن الكريم فذكر أن الزهد مستمد من قول الله تعالى : « لكيلا تأسوا علي ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » كما أنه وصف الزاهد بأنه لا يفرح بوجود ولا يأسف على مفقود (٢) ، ولعله مما يزيد الأمر وضوحا قول أحدهم في الزهد : « أنظروا أقواما اذا ذكروا بالقراءة فلا تكونوا منهم وقوما اذا ذكروا بالفجور فلا تكونوا منهم ، كونوا بين هؤلاء وهؤلاء » (٣) .

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة زهد .

(٢) القشيري : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٣ .

(٣) ابن قتيبة : المصدر السابق ، مجلد ٢ ص ٣٥٨ .

وقول آخر : « ليس الزهد بترك الدنيا ولكن الزهد التهاون بها وأخذ البلاغ منها ، قال الله تعالى « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » فأخبر أنهم زهدوا فيه وقد أخذوا له ثمنا (١) ويعرف بعضهم الزهد بأنه « ترك الأسف على معدوم ونهى الفرح بمعلوم » (٢) .

ومن الدارسين من يرى أن الاسلام الذي يشرع للانسانية جمعاء انما يضبط سير الحياة على ما يحتمله أوساط الناس من جهد فيها كما يتضح من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - « سيروا بسير ضعفاءكم » وقوله أيضا « الضعيف أمير الركب » أى الذى تسير الجماعة على قدر جهده ومن ثم جاء الاسلام برخص وعزائم ، رخص لمن هم أضعف من احتمال التوسط الاسلامى وعزائم لمن هم أقوى وأقدر على تخطى التوسط وكل من الفريقين مقبول منه ما يقدر على عمله اذ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ان الله يحب أن تؤتى رخصة كما تؤتى عزائمه » . وقد راعى التشريع الاسلامى الحالات الفردية بالتخفيف حيناً أو رفع التكليف مؤقتاً أو دائماً حيناً آخر كما ندب الى التطوع من يقدر عليه . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كل ذلك الأسوة الحسنة اذ كان يراعى طاقات أصحابه وقدراتهم على التهجّد والتعبّد فكان يسمح لمن يرى فيه القوة والقدرة أن يصوم نهاره ويتهجّد ليلة بينما يدعو - صلى الله عليه وسلم - آخرين الى أن يترفقوا بأنفسهم ويذكرهم بأن لأبدانهم عليهم حقاً . وفى القرآن الكريم دليل واضح على مراعاة الحالات الفردية فى التكاليف الشرعية من ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون آياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له . . . » .

(١) ابن قتيبة : المصدر السابق ، مجلد ، ص ٣٥٧ .

(٢) القشيري : اربع رسائل فى التصوف . تحقيق قاسم السامرائي مجلة المجمع العلمى العراقى - المجلد ١/ ١٩٦٩ ص ص ٢٥٩ - ٢٨٤ .

عبد الكريم الخطيب ، نشأة المتصوف ، سلسلة الثقافة الاسلامية (٢٢) القاهرة / اكتوبر ١٩٦٠ ص ص ٢٤ - ٢٨ .

(٢م) - الزهاد والمتصوفة)

وبناء على ما سبق ، يتضح لنا أن الاسلام جاء بالاعتدال لكن هذا الاعتدال لم يلبث أن طرأت عليه عوامل جعلت أعدادا من أهل التقى والايان يرون أنه لم يعد كاف لمواجهة النزعة الدنيوية التي استحكمت في المجتمع الاسلامي ففروا بأنفسهم الى الآخرة مستريدين كليا في العبادات المشروعة ومتصاعدين بذلك الى نزعة الزهد عزوفا عن عرض الدنيا القانية واقبالا على الآخرة الباقية .

تتجمع آراء الدارسين - رغم ما بينها من تفاوت في العبارة - حول عدد من الأسباب والدوافع يرجعون اليها ظهور نزعة الزهد في الاسلام ، فيرى سچولد تسهر أن الميل الى الزهد كان مرتبطا بالثورة على السلطة القائمة ، وهكذا لجأ كثير من المسلمين الى حياة الاعتكاف احتجاجا على ما ينكرونه من حكومة» (١) .

ويرى نيكلسون أنه قد انفرد القرن الأول في الاسلام بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد وانتشاره ، فالحرب الأهلية الطويلة الدامية التي وقعت في عهد الصحابة وبنى أمية والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية وازدياد التراخي والاستهانة في المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون اراداتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن أخلصوا في اسلامهم ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية Theocracy التي حاول المسلمون ارجاعها . كل اولئك عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة وانتشرت على مر الأيام فكانت زهدا دينيا خالصا في بادىء الأمر ثم دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت في النهاية الى أقدم صورة نعرفها للتصوف الاسلامي » (٢) .
ويضيف نيكلسون : « وترجع العوامل الرئيسية في ظهور نزعة الزهد

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ١٣٠ .

(٢) نيكلسون : الزهد في الاسلام ، من كتاب « في التصوف الاسلامي وتاريخه » ، ص ٤٢ - ٦٥ .

— كما يقول جولد تسير — الى عاملين هامين : الأول المبالغة في الشعور بالخطيئة والثاني الرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة» (١) .

ويرى ألفرد بل أنه « قام دائما نفر من دعاة الفرار من الدنيا ضد ما كان ينعم فيه بعض المسلمين من ترف وثراء فاحش بلون من رد الفعل ضد هذه الحال ، ولم يكف عدد الزهاد عن التزايد وكانوا خصوصا من الأتقياء الذين صدمهم الترف والحياة الباذخة في بلاط الخلفاء وكبار العصر » (٢) . بينما يرى أو ليرى أن ظهور الزهد في الاسلام يرجع الى التمسك الدقيق بحياة السلف التقليدية البسيطة ورفض الترف على على أنه بدعة وأن الاسلام في شكله الأول خلق استجابة قوية لباعث الخوف الذي لم يكن مرده الى جبروت الله بقدر ما كان مرده الى العدالة الالهية والى وعى الانسان بخطيئته وتماهته ومروره العابر في هذه الحياة الدنيوية والتأكيد الشديد على يوم الحساب وما يلقاه المذنبون فيه من ويلات » (٣) .

ويذهب كامل الشيبى الى أن الزهد في الاسلام أدى اليه عاملان : عامل اجتماعى ينعكس من محاربة الأرستقراطية باشاعة المظهر الزهدى في الاسلام ، وعامل نفسى استشفه المسلمون من رسالة الاسلام ومما ورد ذكره في القرآن الكريم عن عذاب الآخرة وزاد ذلك وضوحا عاطفة المسلمين الأوائل الذين كانوا في عامتهم فقراء مستضعفين أو عبيدا ، ولو لم يكن الزهد جوهريا في الاسلام — على حد قوله — لرأينا مظهر المسلمين يتبدل بعد الفتوح التى تحققت أيام عمر بن الخطاب (٤) .

لقد ناقشنا من قبل ما يدعوه الشيبى بالعامل الاجتماعى وأوضحنا أن الزهد لم يكن السبيل الأنسب لمحاربة الأرستقراطية وانما كانت المساواة التى جاء بها الاسلام هى الأكثر فعالية في هذا الصدد. أما عن قول الشيبى

(١) نيكلون : نظرة تاريخية في أصل التصوف وتطوره « من كتاب » في التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة أبى الملا عفيفى ، القاهرة / ١٩٤٧ ص ص ١ - ٤٢ .

(٢) الفرق الاسلامية في الشمال الافريقى ، ص ٣٦٩ .

(٣) الفكر العربى ، ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع ، ص ٢٤٣ .

بأن مظهر المسلمين لم يتبدل بعد الفتوح التي تحققت أيام عمر بن الخطاب فهو قول تتكفل الوقائع التاريخية بنقضه . فمن المؤكد أن أحوال المسلمين قد طرأ عليها بعد تلك الفتوح كثير من التغيير السياسى والاجتماعى ، ورفل الحجاز نفسه في رفه لم يتسن له من قبل وصل الى درجة اللهو الذى يطل من أشعار عمرو بن أبى ربيعة من ناحية وذيوخ صيت المغنيات المدينيات واشتهارهن بالابجادة التامة للغناء حتى ضرب بهن المثل في ذلك من ناحية أخرى .

ومهما يكن من أمر ، فلا ضير في ارجاع نشأة الزهد في الاسلام الى كثير من تلك العوامل التي اجتمع حولها الدارسون ، ولا ضير أيضا في تصنيف تلك العوامل الى سياسية واجتماعية ونفسية ، غير أننا لا نميل الى القول بأن الزهد جوهرى في الاسلام غير مستحدث فيه ، بل يغلب على الظن أن الزهد مستحدث في الاسلام طرأ عليه كتصعيد للاعتدال الذى اتسم به الاسلام الأول والتزم به السلف الصالح من الصحابة والتابعين لكن التكالب على عرض الدنيا من قبل بعض ذوى النفوس الضعيفة أفزع المتقين الذين يرون أن الآخرة خير وأبقى فاستهجنوا تلك النزعة الدنيوية الطارئة ونزعوا الى الزهد ، فكانت هذه هى البداية الحقيقية للزهد في الاسلام (١) .

كان الزهد في أوله معتدلا » وظلت هذه الحركة تحمل طابع مذهب أهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى أمية أى نحو قرن من الزمان ، وكان القائمون عليها من أشهر أتقياء المسلمين ، بل كان كثير منهم من القراء وأهل الحديث وعلماء الدين » (٢) . لكن نزعة الزهد أخذت في التزايد والتنامي والانتشار كرد فعل لتزايد وتضاعف العوامل المسببة لها حتى أصبح الزهد حركة منظمة لها سمات واضحة وملامح بارزة وأصبح لهذا الزهد أهله الذين ينسبون اليه وتطلق عليهم مسميات الزهاد أو العباد أو ما الى ذلك من مسميات .

(١) ابراهيم بسيونى : نشأة التصوف الاسلامى ، ص ٩٧ .
(٢) نيكلون : الزهد في الاسلام ، من كتاب « في التصوف الاسلامى وتاريخه » ، ترجمة أبى العلا عفيفى ، القاهرة / ١٩٤٧ ، صص ٤٢ - ٦٥ .

واتسعت ماهية الزهد تدريجيا منذ أوائله في عهد الحسن البصري الى عهد الداراني (١) فلم تعد تقتصر على « خلو اليد من ملك الدنيا وخلق القلب من الطمع » وهو النوع من الزهد الذي كان يمارسه الزهاد الأوائل ، وانما تطور الزهد الى أن شمل الأحاسيس والمشاعر النفسية وامتد الى « ترك حظوظ النفس من كل ما في الدنيا » وهو الزهد الذي أصبح يمارسه المتحققون في الزهد وعلت طبقتهم فيه على طبقة المبتدئين (٢) .

ولقد وصف المتحققون في الزهد بأوصاف عديدة ، فقد قيل ان المرء لا يستحق اسم الزهد الا اذا تحققت فيه عدة أشياء هي : الزهد في المال والصور والرياسة والناس وكل ما دون الله تعالى (٣) . وقيل ان من علامات الزاهد ثلاثة : أولها أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود ، وثانيها أن يستوى عنده ذامه ومادحه وثالثها أن يكون أنسه بالله والغالب على قلبه حلاوة الطاعة (٤) .

ويمدنا ابن الجوزي ببعض الصفات التي كان يعيها على بعض الزهاد منها . الأعراض عن العلم شغلا بالزهد ، وترك المباحات حتى كان منهم من لا يزيد على خبز الشعير ومن لا يذوق الفاكهة ومن يقتل المطعم حتى يبس بدنه ويعذب نفسه بلبس الصوف ويمتنعها الماء البارد ومنهم من ينقطع في مسجد أو رباط أو جبل ومنهم من يلزم الصمت الدائم وينعزل عن مخالطة أهله (٥) ومنهم من تركوا الدنيا جملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع ثم جاء أقوام منهم فتكلموا في الجوع والخطرات (٦) . لكن عبارة ابن الجوزي تنطبق على متصوفة عصره حتى وإن أسماهم زهاد .

ويرى الفرد بل أن الزاهد كان « يقوم بمجاهدات وألوان من الحرمان المادى من الصوم الكثير والآلام الجسمانية التي تتحمل دون سعى لتخفيفها والتواضع في الملبس والزهد في كل ترف حتى في الأمور

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة زهد .

(٢) قاسم غنى : تاريخ التصوف الاسلامي ، ص ٢٨١ .

(٣) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢ .

(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٥) تلبس إبليس ، ص ص ١٥٠ - ١٥٦ .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٦٤ .

الضرورة ... فالزاهد كان اذن منذ ذلك العصر فقيرا زرى الملبس يتألم من الجوع ويحسب أنه يمثل هذه المجاهدات يستحق الجنة في الآخرة . وكان الزاهد يمارس مذهب التوكل على الله أى يرى مصيره في الدنيا كله بيد الله ولا يبذل مجهودا شخصيا ، وتلاوة القرآن باستمرار كان يعد دائما من الورع والتقوى الشديدة ... وتكرار اسم الله فيما يسمى الذكر « (١) » .

بينما يرى التفتازانى أن خصائص الزهد في القرنين الأول والثاني تنلخص في أنه يقوم على أساس فكرة مجانية الدنيا من أجل الظفر بثواب الآخرة متأثرا في ذلك بتعاليم الكتاب والسنة وبالظروف السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع الاسلامي آنذاك ، كما يرى أن هذا الزهد كان ذو طابع عملي وأنه كان يتخذ الخوف من الله دافعا له وأنه عند بعض المتأخرين من الزهاد يعد مرحلة تمهيدية للتصوف (٢) .

على هذا النحو تعددت سمات الزهاد وتنوعت ، واتسعت ماهية الزهد وتشعبت ، وتنامت وتضاعفت مؤدية - في النهاية - الى التصوف ، ولقد كان هذا التصاعد من الزهد الى التصوف تدريجيا ، لم يلفت الأنظار في أول الأمر ، وأدى وجود كثير من أوجه الشبه بين الزهد المنظم والتصوف الأول الى الخلط بينهما ، فكثير من صفات الزهاد كانت هي نفسها صفات المتصوفة الأوائل مع مزيد أوصاف واضافات تميز التصوف عن الزهد على حد قول الغزالي (٣) . ولقد سبق أن أشرنا الى أن كلا من الزهد والتصوف زيادة على العبادة المشروعة وان كان الزهد من قبيل الزيادة الكمية بينما التصوف من قبيل الزيادة الكيفية أو الاضافات النوعية .

ويرى جولد تسيهر أن الزهد الاسلامي عرف المبالغة في ناحيتين الأولى تعبدية والأخرى أخلاقية . أما الناحية التعبدية فتتمثل في الذكر الذي كانت له مكانة كبيرة من الزهد الى التصوف وتنامت مكانة الأذكار حتى أصبحت لها مرتبة الفرائض الحتمية التي تتضاءل دونها الفرائض الأساسية حتى أصبحت بالنسبة لها واجبا ثانويا سيان أدائه أو اغفاله

(١) الفرق الاسلامية في الشمال الاقريقي ، ص ٣٧٠ .

(٢) مدخل الى التصوف ، ص ١٠٩ .

(٣) احياء علوم الدين ، ج ٥ ص ٨٨ .

وهذه هي الأذكار الصوفية التي دخلت في بناء الهيكل الأساسي للطرق الصوفية . أما الناحية الأخلاقية فهي المبالغة في التوكل أو الثقة في الله الى درجة إهمال الدنيا وعدم المبالاة بها تاركين أنفسهم لعناية الله وقضائه ويجعلونها بين يديه لا إرادة لها ولا حركة كالليت بين يدي الغاسل فازدروا العمل والسعي لكسب القوت وسد حاجات العيش لأنهم يرون في الكد والسعي فقداً للتوكل ونقصاً في الثقة بالله (١) .

وقريباً من ذلك رأى نيكلسون ، اذ يرى أن الحركة الزهدية سارت « وفقاً لقواعد الدين أول الأمر غير أنه لم يكن مفر من المبالغة في التزام بعض الأمور الواردة في تعاليم النبي محمد عليه السلام وفي سيرته استتبعت من الناحية الأخرى إهمالاً لبعض مسائل الدين التي قد لا تقل في نظر أخيار المسلمين عن غيرها من المسائل من حيث قيمتها الدينية ، وسرعان ما تحول الزهد الى التصوف » (٢) .

هكذا كان الزهد يتصاعد حتى وصل الى التصوف . لكن التداخل الشديد بين نهايات الزهد وبدايات التصوف يجعل من الصعوبة بمكان تحديد بداية قاطعة للتصوف ، وقد اختلف في ذلك القدامى والمحدثون على حد سواء ، فبينما يرى القشيري أن اسم التصوف اشتهر قبل المئتين من الهجرة (٣) فإن ابن الجوزي يرى أن اسم التصوف ظهر - دون اشتهار - في نحو ذلك الوقت (٤) لكن ابن تيمية يرى أن اسم التصوف لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة وإنما اشتهر بعد ذلك (٥) .

أما الدارسون المحدثون فانهم يحومون حول فترة متقاربة ، فمنهم من يرى أن كلمة التصوف لم تكن معروفة في اللغة الى نهاية القرن الأول ومطلع القرن الثاني (٦) ومنهم من يرى أن اسم الصوفي الذي اشتق من كلمة الصوف العربية ظهر لأول مرة حينما أطلق على أبي هاشم الكوفي المتوفى حوالي سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م ثم أصبح هذا الاسم معتاداً

(١) العقيدة والشرعة في الاسلام ، ص ١٣٣ .

(٢) نظرة تاريخية في أصل التصوف وتطوره ، من كتاب « في التصوف الاسلامي وتاريخه » ، ص ١ - ٤١ .

(٣) الرسالة القشيرية ، ج ١ ص ٦١ .

(٤) تلبيس ابليس ، ص ١٦٢ .

(٥) مجموع فتاوى ، مجلد ١١ ص ١٥ .

(٦) عبد الكريم الخطيب ، المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٧ .

منذ أواسط القرن الثالث هـ / التاسع م (١) ويرى نيكلسون أنه « من المحتمل جدا أن هذه الصفة التي تشير الى استعمال لباس الصوف الذى كان يلبسه زهاد المسلمين — كما يقول ابن خلدون — ليميزوا أنفسهم عن غيرهم ممن كانوا يلبسون فاخر الثياب قد وضعت حدا فاصلا بين الزهاد من رجال التصوف وبين غيرهم ممن ساروا سيرة السلف وأنها أطلقت أول ما أطلقت على أبى هاشم الكوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ ١٩ * والذى يقول فيه جامى انه تقدمه رجال كان لهم قدم فى الزهد والورع وحسن التوكل وفى طريق المحبة ولكنه كان أول من تسمى بالصوفى » (٢) .

وأغلب الظن أن ما ذهب اليه القشيري عن اشتهار — وليس مجرد ابتداء — اسم التصوف قبل سنة ٢٠٠ هـ لا يجانبه الصواب فأقدم نعت لأحد الأشخاص بصوفى ورد عند الجاحظ نعت به أبو هاشم الكوفى الصوفى (٣) ولذلك يذهب عن الرحمن بدوى الى أن كلمة صوفى كانت معروفة منذ أوائل القرن الثانى للهجرة (٤) وهو رأى يمكن قبوله إذ أنها الفترة التى عاش فيها أبو هاشم الكوفى . وعلى ذلك فانه اذا كانت كلمة صوفى قد عرفت منذ ذلك الوقت فلا يبعد أن تشتهر فى غضون السنوات التالية وقبل المائتين مصداقا لرأى القشيري .

أما عن موضع حدوث التحول من الزهد الى التصوف فقد كان هو نفسه موضع ظهور الزهد المنظم فى البصرة والكوفة ، فقد كان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر الأمصار وكان أول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد الذى كان من أصحاب الحسن البصرى (٥) .

A.J. Arberry; Sufism, p. 35.

(١)

(٢) نظرة تاريخية فى أصل التصوف وتطور (من كتاب فى التصوف الاسلامى وتاريخه) ص ١ — ٤١ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٣٦٥ .

وأحمد الشرباصى : الغزالي والتصوف الاسلامى ص ١٤٦ .

(٤) تاريخ التصوف الاسلامى ، ص ٧ .

(٥) ابن تيمية : المصدر السابق ، مجلد ١١ ص ١٥ .

وجاسم صليان على : النصرانية ونشأة التصوف الاسلامى ، مجلة

كلية الآداب جامعة البصرة (١٩٧٧) ، ص ١٦٣ — ١٧٧ .

* تاريخ وفاة أبى هاشم غير محدد تحديدا يقينيا .

أما الكوفة فقد كان منها أبو هاشم أول من حمل اسم صوفى (١) بل كان أوائل من تلوه في حمل هذا الاسم أيضا من الكوفيين مثل جابر بن حيان الكيمياءى المشهور المتوفى سنة ٢٠٨ هـ وعبدك الصوفى المتوفى سنة ٢١٠ هـ (٢) .

غير أن أول ذكر لجماعة صوفية في التاريخ الإسلامى كان عن جماعة من أهل الاسكندرية ذكر المؤرخ الكندى المصرى أنهم عرفوا بالصوفية وأنهم كانوا يدعون الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان لهم دور في الأحداث التى عرفت بثورة الجروى والسرى بن الحكم والتى استمرت منذ سنة ١٩٩ هـ حتى سنة ٢١١ هـ ، ففى هذه الثورة تمكن زعيم هذه الجماعة الصوفية والذى كان يسمى أبو عبد الرحمن الصوفى من بسط ولايته على الاسكندرية سنة ٢١٠ هـ بمساعدة طائفة من الأندلسيين وفدوا على الاسكندرية ، كما ساعدتهم قبائل لخم التى كانت تحيط بالاسكندرية وقتذاك . لكن سرعان ما عزل الأندلسيون أبا عبد الرحمن الصوفى وولوا أحدهم على الاسكندرية (٣) . وجماعة أخرى سموها أيضا بالصوفية ظهروا فى ولاية عيسى بن المتكدر على قضاء مصر (رجب ٢١٢ - رمضان ٢١٤ هـ) وكانوا يحيطون بعيسى بن المتكدر ، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ، وكان عيسى يصحبهم وكتب بايحاء منهم كتابا الى المأمون العباسى يخبره فيه بعدم رضاه عن تولية أبى اسحاق بن الرشيد على مصر (٤) فوجدت فى مصر بذلك أقدم الجماعات التى عرفت بالصوفية فى التاريخ الإسلامى (٥) .

(١) عبد الرحمن الجامى ، نفحات الانفس ، ص ٣٤ ، اوليرى : المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٢) ماسينيون : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تصوف ، هنرى كوربان تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص ٧٢ .

(٣) مدخل الى التصوف الإسلامى ص ٣٠ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ والمقربرى ، خطط ج ١ ص ١٧٣ ومحمد كامل حسين « بين التشيع وأدب الصوفية بمصر فى عصر الأيوبيين والمماليك » مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٦ / ١٩٥٤ ج ٢ ص ص ٤٥ - ٧٢ .

وتوفيق بن عامر « الصوفية والعقيدة الجبرية » حوليات الجامعة التونسية عدد ٨ / ١٩٨٠ ص ص ٧٥ - ٨٨ .

(٥) الكندى : المصدر السابق ص ٤٤ ، وإبراهيم بسيونى : المرجع

السابق ص ١١٣ .

كان لهذا التحول من الزهد الى التصوف أسبابه ودوافعه ، وعلى الرغم من اعتقاد التفتازانى أن الصوفية شيء معتقد ليس في الطوق تقديم جواب بسيط لمن يسأل عن أصلها (١) فإن ابن الجوزى يرى أن التصوف - ببساطة - قد نشأ عن أن أقواما « تعلقوا بالزهد والتعب فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفرّدوا بها وأخلاقا تخلقوا بها ... » تسموا بالصوفية « (٢) » وقريبا من ذلك رأى ابن تيمية اذ يقول : « كان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار » (٣) . ويرى القشيري (٤) وابن خلدون (٥) أن التصوف جاء كرد فعل لتطرف آفة البدع في المعتقدات وحصول التداعى بين الفرق فافترد أهل السنة بينهم باسم التصوف .

ليس بخاف أن القشيري المتصوف كان يريد تجميل صورة التصوف وتحسينه بإبراز الصلة بين التصوف والسنة والقول بأن التصوف نشأ في أحضان السنة دون غيرها من الفرق الاسلامية ، وإذا كان ذلك متوقعا من القشيري المتصوف فإنه من المستغرب أن يذهب ابن خلدون الى مثل هذا الرأي وهو الذى أشار في مقدمته المشهورة الى صلة التصوف بالتشيع وعاب على المتصوفة تأثرهم بآراء الرافضة الاسماعيلية - على حد قوله - في الحلول والوهمية الأئمة (٦) . ولعلنا لانجد تبريرا لهذا التناقض بين رأى ابن خلدون في شفاء السائل « ورأيه في المقدمة » الا أنه ربما كان يقصد برأيه في أولهما آوائل الصوفية الذين كانوا أقرب الى الزهاد أما انتقاداته التى وجهها في ثانيهما الى الصوفية فكان يقصد بها المتأخرين منهم مثل الهروى وابن عربى وابن سبعين وغيرهم (٧) .

يتضح مما سبق أن الدارسين القدامى كادوا أن يجمعوا على أن المبالغة في الزهد كانت سببا في تحوله الى التصوف لكنهم لم يعيروا انتباههم

(١) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٤٥ - ٧٢ .

(٢) تلبس إبليس ص ١٦١ .

(٣) مجموع فتاوى مجلد ١١ ص ١٥ .

(٤) الرسالة القشيرية ، ج ١ ص ٦١ - ٦٢ .

(٥) شفاء السائل لتهذيب المسائل ص ٢٦ - ٢٧ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ، فصل في علم التصوف .

(٧) نفس المصدر ، نفس الفصل .

لأسباب هذه المبالغة التي نعتقد أنها كانت رد فعل لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية .

ومن المحدثين ، يرى جولد تسيهر أن ظهور التصوف يرجع الى تغلغل المؤثرات الأجنبية - لا سيما الافلاطونية الحديثة والمؤثرات الهندية - الى الحركة الزهدية وتأثر الزهاد بها (١) بينما يرى نيكلسون أن التصوف كان وليد لحركة الاسلام ذاته وأنه كان نتيجة لازمة لفكرة الاسلام عن الله (٢) ونكاد ندهش لرأى نيكلسون هذا وهو الذي يذهب الى أن الزهد مستحدث في الاسلام غير جوهرى فيه فاذا به يجعل التصوف وليد لحركة الاسلام ونتيجة لازمة لفكرة الاسلام عن الله ، لكن نيكلسون يستدرك على نفسه فينص على أنه « في القرن الثالث فقد ظهر التصوف في صورة جديدة تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها وهي صورة لا يمكن تفسيرها بأنها نتيجة تطور لعوامل روحية من صميم الاسلام نفسه » (٣) . ويذهب أو ليرى الى أن التصوف ساهمت في ايجاده مثل دينية مغايرة لتلك التي كانت سائدة في عهد الاسلام الأول (٤) ، أما بروكلمان فيرى أن الصراع الحربى بين الحكام والصراع المذهبى بين الفرق الدينية وما ساد علاقاتها من توتر دفع أصحاب النفوس الأكثر صفاء وعمقا الى الفرار بأنفسهم من صخب المنازعات حول المسائل الدينية والقضايا المذهبية الى طمأنينة المشاهدة فنزعوا الى التصوف متأثرين في ذلك بالرهبة النصرانية (٥) ، الا أن ما سينيون يرى أن منشأ النزوع الى التصوف هو ثورة الضمير على ما يصيب الناس من مظالم لا تقتصر على ما يصدر عن الآخرين وانما تنصب أولا وقبل كل شيء على ظلم الانسان نفسه ، وتقرن هذه الثورة برغبة في الكشف عن الله بأى وسيلة يقويها تصفية القلب من كل شاغل (٦) . وبذلك يرجع ما سينيون ظهور التصوف

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) نظرة تاريخية في أصل التصوف ، من كتاب « في التصوف الاسلامى وتاريخية » ص ١ - ٤١ .

(٣) نظرة تاريخية في أصل التصوف وتطوره ، ص ١ - ٤١ .

(٤) الفكر العربى ، ص ١٦٠ .

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٢٣٦ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة التصوف .

الى عوامل نفسية أو وجدانية غير أن هذه العوامل النفسية لا بد لها — في رأينا — من مثيرات ترتبط بحركة المجتمع وما يكتنفه من ظروف متنوعة .

ومن الباحثين من يرجع ظهور التصوف في الكوفة الى عامل سياسى — اقتصادى يتمثل في أن الفقر والضعف الذى حل بالكوفة نتيجة معارضة أهلها لبنى أمية وتضييق الأمويين عليهم بسبب موقفهم القذائى منهم جعل من الكوفة مركزا لاتخاذ الصوف لباسا لضيق ذات اليد من ناحية ولمعارضة السياسة الأموية من ناحية أخرى ، فقد كان الأمويون يشجعون لبس الحرير خاصة منذ خلافة سليمان بن عبد الملك الذى كان يلبس الثياب الرقاق والوشى وفي أيامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعا جبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا في الوشى وكذلك عماله وأصحابه ، وكذلك كانت سياسة هشام بن عبد الملك فسلك الناس جميعا في أيامه مذهبه لكن أهل الكوفة الذين اندفعوا مع موجه الزهد لبسوا الصوف معارضة للأمويين (١) . ومع طرافة هذا رأى الا أنه لا يمكن التعويل عليه في تعليل ظهور التصوف اذ أن الدولة الأموية كلها كانت قد انقضت قبل ظهور اسم التصوف الذى كان أول من نعت به أبو هاشم الكوفى المتوفى بين سنة ١٥٠ — ١٦٠ هـ . ابان الدولة العباسية وشتان بين لبس الصوف الذى كان يلبسه الزهاد وغيرهم وبين ظهور التصوف كمذهب أو نزعة روحية .

وعلى أى حال ، ففى اعتقادنا أن التصوف ظهر كنتيجة طبيعية لتصاعد حركة الزهد في المجتمع الاسلامى وكرد فعل للتصاعد الذى ألم بالظروف والملابسات التى أفرزت نزعة الزهد من قبل في عالم الاسلام ، فمما لا شك فيه أن الترف كان يتزايد حتى بلغ أوجه في العصر العباسى ورفل فيه الخلفاء وكبار رجالات الدولة والمياسير ممن أصابوا ثروات طائلة ، كما تزايد نفور المسلمين من جور الحكام واستبدادهم فاتهموهم بالخروج على الاسلام واندلعت الثورات هنا وهناك رافعة شعارات اصلاحية ومطالبة بالعمل بالكتاب والسنة ، ولم تشذ الثورة العباسية نفسها في ذلك عن غيرها من الثورات التى اندلعت في وجه الأمويين . لكن وصول العباسيين

(١) جاسم صلبان على : النصرانية ونشأة التصوف الاسلامى — مجلة كلية الآداب جامعة البصرة / ١٩٧٧ صص ١٦٣ — ١٧٧ .

الى الحكم واستيلائهم على السلطة فى الدولة الاسلامية لم يمنع اندلاع مزيد من الثورات وظهور نزعات متطرفة كالفلاة والشعوبية والرافدية والباطنية والزنادقة وغيرها مما زاد الزهاد عزوفا عن الدنيا وتوغلا فى الزهد متصاعدين به متزيدين فيه زيادات نوعية بعد أن كانوا يقتصرون على الزيادة الكمية ، فأدى بهم هذا التصاعد الى ولوج باب التصوف والدخول فيه .

قلت فى اسم التصوف أقوال كثيرة ، وبينما يذهب القشيري الى أنه اسم على غير قياس ولا اشتقاق فى اللغة العربية (١) فإن الأمر يبدو غير ذلك ، ففى معاجم اللغة توجد مادة صوف (٢) وعلى الرغم من أن المعنى الذى تشير اليه المعاجم قد لا يدل على المعنى المقصود فى التصوف الا أنه ينهى القول بعدم وجود أصل لغوى لاسم التصوف كما زعم القشيري . وفضلا عن هذا فإننا نجد فى معاجم اللغة اشتقاقا ذا مغزى من مادة صوف هو صاف يصوف صوفا بمعنى عدل أو حاد عن بجاة السبيل ، وصاف السهم عن الهدف بمعنى عدل عنه ، ومنه قولهم صاف عنى شر فلان وأصاف الله عنى شره (٣) ومع ما لهذا الاشتقاق من مغزى الا أنه من الملاحظ أن أعداء التصوف ممن وسموا أهله بالمروق عن الدين لم يلتفتوا الى هذا الاشتقاق ولم يستخدموه للتعريض بالتصوف بمعنى العدول عن الدين .

وقد فسر الدارسون اسم التصوف على أكثر من وجه ، ف قيل ان التصوف قد يكون نسبة الى صوفة وهو الغوث بن مر الذى كان قد انقطع فى الجاهلية لخدمة بيت الله وخدمة حجيجة وأعقبه أولاده فى ذلك وكانت لهم اجازة الجحيج من عرفة الى منى ومن منى الى مكة ، وظل الأمر فيهم حتى أخذته منهم فى الجاهلية عدوان ثم أخذته قريش من عدوان (٤) . ويرى كامل الشيبى أن هذا هو الوجه الصحيح فى تفسير اسم التصوف مع أن المتصوفة من أمثال السراج الطوسى والكلاباذى

(١) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٢) مختار الصحاح (مادة صوف) ولسان العرب مادة صوف .

(٣) نفس المصدران ، نفس المادة .

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق ص ١٦١ وزكى مبارك : التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق ص ٤١ .

والقشيري تجاهلوا هذا التفسير ولم يسيروا اليه ، ولعلمهم أرادوا الا يرتبط التصوف في أذهان الناس بأصل جاهلي (١) ، لكن ابن تيمية يرى أن أغلب الصوفية لا يعرفون بنى صوفة ولا يرضون بالانتساب الى قبيلة جاهلية (٢) . وهكذا كان هذا التفسير لاسم التصوف مثار خلاف بين الدارسين فمنهم من لا يستبعده (٣) ومنهم من يشكك في صحته لقلة اكتراث الجاهليين بالدين (٤) .

وقيل أن التصوف من الصفاء (٥) . وعلى الرغم من أن القشيري المتصوف يرى أن اشتقاق اسم الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة (٦) الا أن هذا التفسير يروق لكثير من المتصوفة (٧) فيقدمه الكلاباذي على غيره من التفاسير ، ويذكر أن طائفة قالت : انما سميت الصوفية لصفاء أسرارها ، ويعتد الكلاباذي في هذا الصدد بقول بشر الحافي : الصوفي من صفا قلبه لله (٨) . أما السراج الطوسي فيذكر قول أبي الحسن القناد : الصوفي مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل في كل وقت بشرط الوفاء (٩) . وقال شاعرهم في هذا المعنى :

(١) كامل الشيبى : رى في اشتقاق كلمة صوفي - مجلة كلية الآداب بغداد / ١٩٦٢ .

(٢) رسالة الصوفية والفقراء ، ص ١٢ .

(٣) زكى مبارك : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) عرفان عبد الحميد فتاح : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٥) مجهول : رسالة في آداب الصوفية ، مخطوط بمكتبة جامعة

الملك عبد العزيز برقم ٧٦٥ (بدون ترقيم للصفحات) .

والسيوطي : الجزء الاخير من كتاب النقابة ، مخطوط بمكتبة جامعة

الملك عبد العزيز تحت رقم ٧٣٩ / ٦ (بدون ترقيم للصفحات) .

(٦) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ص ٥٥٠ .

(٧) Nickolson, Encyclopaedia Religio and Ethics art. sufis.

(٨) التعرف لمذهب اهل التصوف ، ص ٢١ ، ٢٩ اللمع في التصوف

ص ٢٦ .

وليس يشهر بالصوفي غير فتى/ صافي فصوفي حتى سمي الصوفي (١) .
وأشار أبو العلاء المعري الى هذا المعنى على سبيل التعريض به فقال :

صوفية مارضوا للصوف نسبتهم/ حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا (٢) .
— وقيل أن التصوف نسبة الى الصفة — وهى موضع من مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم — وذلك لقرب أوصاف الصوفية من أوصاف
أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .
وعلى الرغم من اعتراف القشيري بأن اشتقاق الصوفي من الصفة بعيد
في مقتضى اللغة (٤) فإن هذا التفسير يروق أيضا لكثير من الصوفية (٥)
بينما لا يقر ابن الجوزي بهذا التفسير ليس فقط لأن النسبة الى الصفة
تكون صنى وليست صوفى وانما أيضا لما بين الصوفية وأهل الصفة
من مفارقات ، فقد كان أهل الصفة أصلا فقراء يقعدون في مسجد رسول
الله صلى الله عليه وسلم اضطرارا حتى اذا فتح الله عز وجل على المسلمين
وأصابوا الغنائم استغنوا عن تلك الحال وخرجوا من الصفة (٦) .

ويفيض عبد الرحمن بدوى في الحديث عن أهل الصفة (٧) غير أنه
يتصور الصفة على أنها مقعد مغطى خارج المسجد النبوى وهو تصور
غير صحيح يشبهه تصور نيكلسون أن الصفة كانت مجلسا مستقوا بناء
النبي صلى الله عليه وسلم خارج مسجده (٨) كما يشبهه تصور ماسينيون
للصفة حين وصف أهلها بأنهم فرقة من النساء كانوا يجلسون فوق دكة
المسجد بالمدينة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم (٩) .

(١) السيوطى : المصدر السابق ، مخطوط بنون ترقيم .

(٢) زكى مبارك : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٣) الكلاباذى : المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٤) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٥٥٠ .

(٥) الكلاباذى : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٦) تلبيس ابليس ، ص ١٦٢ .

(٧) تاريخ التصوف الاسلامى ، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٨) Nickolson; op. cit. art. sufis

(٩) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تصوف .

وحقيقة الصفة أنها لم تكن مقعدا مغطى خارج المسجد ولم تكن مجلسا مستقوفا بناء النبي صلى الله عليه وسلم خارج مسجده كما أنها لم تكن دكة وإنما كانت الصفة في أصلها السقيفة الأولى التي سقفت من المسجد النبوي في الجهة الشمالية منه وقت أن كان المسلمون يتجهون في قبلتهم الأولى شطر المسجد الأقصى فسقف لهم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه السقيفة لتقيهم وهج الشمس حين صلاة وقت الظهيرة ، فلما أذن الله عز وجل بتحويل القبلة شطر المسجد الحرام ونزل قوله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيك ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (١) فسقف المسلمون سقيفة أخرى في الجهة المقابلة شطر المسجد الحرام وقل استخدمهم للسقيفة الأولى التي كانت تواجه بيت المقدس ، فأوى إليها فقراء المسلمين ممن لا مأوى لهم فعرفوا بأهل الصفة . وهكذا كانت نشأة الصفة في المسجد النبوي لا يقصد منها إيواء من نسبوا إليها وإنما كان لجوئهم إليها اضطراريا بعد أن قل استخدامهما في الصلاة وذلك على خلاف المتصوفة الذين قد يتخذون الفقر سلوكا اختياريا دون اضطرار .

وقيل أيضا ان التصوف من الصف لأن الصوفية في الصف الأول بين يدي الله عز وجل (٢) . ويثبت القشيري صحة المعنى وان كانت اللغة لا تقتضى نسبة التصوف هذه الى الصف (٣) لكن ابن تيمية يؤكد أن هذا القول غلط لأنه لو كان كذلك لقليل صفى (بفتح الصاد) (٤) . وقد قيلت في تفسير اسم التصوف أقوال كثيرة أخرى .

لكن التفسير الذي يعتد به كثيرا هو أن التصوف نسبة الى الصوف وعلى الرغم من اعتراض القشيري على صحة تلك النسبة بدعوى أن

(١) سورة البقرة / آية ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) الكلاباذي : المصدر السابق ، ص ٢١ ، ومحمد فلاط : التنسك الاسلامي ، ص ٤٣ . ودائرة المعارف الاسلامية . مادة تصوف .

(٣) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ص ٥٥١ .

(٤) رسالة الصوفية والفقراء ، ص ١٢ .

القوم لم يختصوا وحدهم بلبس الصوف دون غيرهم (١) فإن كلا من الطوسي (٢) والكلاباذي (٣) يذكران هذه النسبة ولا يعترضان عليها ، ويذكر الغزالي أنه لتعذر تقييدهم بحال تقييدهم لتنوع وجدانهم نسبوا الى ظاهر اللبسة وكان ذلك آيين في الاشارة اليهم وأدعى الى حصر وصفهم لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم (٤) . كما يرى ابن خلدون أن نسبتهم الى لبس الصوف هي القول الأظهر (٥) ويقاربه ابن تيمية اذ يرى أن هذه النسبة هي القول المعروف (٦) .

ومن المحدثين ، يرى زكي مبارك أن النسبة الى الصوف هي أصح الفروض (٧) ويرى كوربان أن كلمة صوفي العربية مشتقة بحسب الاشتقاق المتعارف عليه من الصوف (٨) في حين يرى أوليري أنه مما يؤكد اشتقاق كلمة صوفي من الصوف أن اللغة الفارسية تستعمل مقابل هذه الكلمة اصطلاح « باشمينابوش » الذي يعنى أيضا لابس الصوف (٩) ، وأكثر من هذا فإن ماسينيون يرفض كل ماعدا ذلك من تفسيرات مؤكدا على أن التصوف دلالة على لبس الصوف (١٠) . وهو أيضا التفسير الوحيد الذي يأخذ به ترمينجهام (١١) .

وأخيرا قيل ان التصوف مأخوذ عن الكلمة اليونانية سوفوس Sophos التي تعنى « حكمة » في اليونانية ، وكان أول من قال بهذا التفسير المستشرق فوق هامر وتحمس له بعض المستشرقين لاسيما الذين يؤكدون على الأثر المسيحي في التصوف الاسلامى حتى أن كوربان يرى أن هذا التفسير أكثر قبولا للوهلة الأولى على الرغم من أنه لا يلقى رواجاً ، ويدعم

- (١) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ص ٥٥٠ .
 - (٢) اللمع في التصوف ، ص ٢٧ .
 - (٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٢١ .
 - (٤) احياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٩١ .
 - (٥) مقدمة ابن خلدون ، فصل في علم التصوف .
 - (٦) رسالة الصوفية والفقراء ، ص ١٢ .
 - (٧) التصوف الاسلامى في الادب والاخلاق ص ٤٢ .
 - (٨) تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٨٢ .
 - (٩) الفكر العربى ومركزه في التاريخ ، ص ١٥٠ .
 - (١٠) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تصوف .
 - (١١) Trimingham; The Sufi Orders in Islam, Oxford, 1971, p. I.
- (م ٣ — الزهاد والمتصوفة)

كوربان رأيه بالإشارة إلى أن البيروني قد ألمح إلى هذا التفسير (١) .
 لكن المستشرق نولدكه نفى تماما وجود أى صلة بين كلمة صوفي العربية وكلمة
 سوفوس Sophos اليونانية مبرهنا على ذلك بأن حرف السين في
 اليونانية يكتب دائما سينا في العربية لاصادا ، وأنه لا يوجد في اللغة
 الآرامية كلمة التقالية بين سوفوس اليونانية وصوفي العربية (٢) .
 وقد أخذ برأى نولدكه عدد من المستشرقين خاصة نيكلسون وماسينيون
 اللذان يعدان من أبرز المستشرقين اهتماما بدراسة التصوف الاسلامي
 وخرجا من دراسته بنتائج يعتد بها . فضلا عن هذا ، يرى زكي مبارك
 أن العرب كانوا مولعين بحفظ ما يدخل في لغتهم من الالفاظ الاجنبية ،
 فلو كان التصوف من سوفوس اليونانية لتصووا عليه في كثير من المؤلفات ،
 لكن انعدام الإشارة إلى ذلك في كافة النصوص يقطع بأن ورودها عند
 البيروني باب من الاغراب (٣) . فضلا عن هذا فإن القول بوجود صلة
 بين صوفي العربية وسوفوس اليونانية يحمل في داخله سبب رده ورفضه
 لأنه من المستبعد أن تنسب طائفة الصوفية التي تعتبر الانسان عدما إلى
 طائفة السوفسطائية التي تعتبر الانسان كل شيء وتجعله مقياسا
 للحقائق (٤) .

وعلى أى حال ، فقد قام المتصوفة — من قبيل الدعاية لنزعتهم
 وتحسينها — بالجمع بين أفضل ما في المعاني كلها حتى كان لبعض مشايخهم
 في التصوف نحو ثلاثة أجوبة (٥) ، كما أن الكللاباذي — الذي يدل اسم
 كتابه على أنه هدف إلى التعريف بالتصوف — قام باستعراض الأقوال
 التي تروق له في تفسير اسم التصوف وجمع بينها مضميا اياها جميعا على
 التصوف ، يقول « اجتمعت هذه الأوصاف كلها ومعاني هذه الأسماء كلها
 في أسامي القوم وألقابهم وصحت هذه العبارات ، وإن كانت هذه الألفاظ

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٨٢ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تصوف .

(٣) التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق ، ص ٥١ — ٥٢ .

(٤) محمد غلاب : التنسك الاسلامي ، ص ٤٣ .

(٥) الطوسي : الجمع في التصوف ، ص ٢٧ — ٢٨ ، يقول :

« جواب بشرط العلم وهو تصفية القلوب من الإكدار واستعمال
 الخلق مع الخليفة واتباع الرسول في الشريعة ، وجواب بلسان الحقيقة
 وهو عدم الأملاك والخروج من رق الصفات والاستغناء بخالق السموات
 وجواب بلسان الحق أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم فسموا بالصوفية » .

متغيرة في الظاهر فإن المعاني متفقة لأنها ان أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية وان أضيفت الى الصفة أو الصفة كانت صفية أو صفية . ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصوفية وزيادتها في لفظ الصفية أو الصفية انما كان من تداول الألسن ، وان جعل مأخذه من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة ، وجميع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها » (١) .

أما عن ماهية التصوف ، فالغزالي يذكر أن أقوال المشايخ فيها — الصوفية — تزيد على ألف قول (٢) ولقد وصلت إلينا بعض هذه الأقوال مما قاله بعض مشاهير الصوفية (٣) لكن بعضها الآخر لم يصل

-
- (١) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٢٤ — ٢٥ .
(٢) أحياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٩٠ .
(٣) منها قول معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلاق » (أحياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٨٧) ، وقول ذي النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) « الصوفي الذي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب » (اللمع ، ص ٢٥ — ٢٦) ، وقول سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ) « الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واتقطع الى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر » (السلمي : طبقات ، ط ص ٣٣٧) وقول أبي الحسين النوري (ت ٢٩٥) : « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنها اخلاق » (اللمع ، ص ٢٦ وطبقات السلمي ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٧) وقول الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧ هـ) ، « التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الاخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومناظرة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أدل على الأبدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة » (الكلاباذي : التعرف ، ص ٢٥) وقول أبي محمد الجريري (ت ٣١١ هـ) : « التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج عن كل خلق سيء » (طبقات السلمي ، ط ص ٣٣٧) ، وقول أبي بكر الشبلي (ت ٣٣٤ هـ) « التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك » (طبقات السلمي ، ط ص ٣٣٧) .

الينا ، ولم يستفح علامة مثل نيكلسون - رغم مكاتته الكبيرة في الدراسات الصوفية وسعه اطلاعه ومثابرته ووفرة مصادره - أن يستقصى - على حد قوله - جميع هذه الأقوال (١) . وقد يكون اختلاف أقوال المشايخ في التصوف « لاختلاف الأحوال فكل أجاب على قدر حاله وقدر ما يحتمل السائل فيه فإن كان مريداً أجيب على ظاهر المذهب في المعاملات وإن كان متوسطاً أجيب من حيث الأحوال وإن كان عارفاً أجيب من حيث الأحوال » (٢) وقد يكون السبب أيضاً أن كل من أراد تعريف التصوف نظر إلى جانب من جوانبه أو خلق من أخلاقه أو مهداً من مبادئه (٣) .

ولكثرة تلك الأقوال حاول أبو حامد الغزالي أن يقول في ماهية التصوف قولاً جامعاً فوصف الصوفي بأنه « الذي يكون دائماً التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلوب عن شوب النفوس ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه فبدوام الافتقار ينقى من الكدر وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه تفرقت وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه » (٤) .

لكن ابن خلدون يرى صعوبة وضع تعريف شامل للتصوف وذلك بسبب :

١ - أن هذه التعريفات لم يقصد بها الصوفية تعريف التصوف تعريفاً شاملاً يستوعب كل صورة وجزئياته بل قصدوا بها التعبير عن أحوالهم الخاصة في لحظة معينة فهي تعبير عن مواجدهم وأحوالهم ومقاماتهم التي يتدرجون فيها فعبّر كل منهم عما وجد ونطق بحسب مقامه .

(١) نظرة تاريخية في أصل التصوف وتطوره وثبت بتعريفات كلمتي صوفي وتصوف مرتبة ترتيباً زمنياً من كتاب (في التصوف الإسلامي وتاريخه) ص ١ - ٤١ .

(٢) آداب المريدين ، مصورة بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز برقم ١٢٧١ عن خطية مكتبة الأوقاف العامة ببغداد رقم ١٨٦٦ .
ومجموع من كلام السهروردي ، مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز رقم ١٢٢٥ .

(٣) أحمد الشرباصي : التصوف عند المستشرقين ، سلسلة الثقافة الإسلامية عدد ٢٧ القاهرة ١٩٦٥ ص ١٢ .

(٤) أحياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

٢ - التطور السريع الذى شمل كل مرافق الحياة الاسلامية نتيجة لاتساع الدولة الاسلامية واشتمالها على بلاد ذات ثقافات دينية سابقة على الاسلام ، ونتيجة لما كان يدخل من هذه الثقافات على المجتمع الاسلامى من معان وأفكار كانت تطور كل شىء فى الحياة الاسلامية يوما بعد يوم فتبتعد به قليلا أو كثيرا عن معناه الاصلى البسيط الذى عرف به فى صدور الاسلام ، وقد تعرضت كلمة التصوف لمثل هذا التطور فكانت تتسع بمرور الزمن وتكتسب معانى جديدة تبعتها شيئا فشيئا عن مدلول للتصوف فى أوله (١) .

ومن الملاحظ أن التطور الذى يحدث نتيجة التأثير بعوامل خارجية متزايدة تدريجيا أنه يكون عادة تدريجيا ومرحليا ، فهو تدريجى لأنه يضمو بنمو هذه المؤثرات الخارجية وهو مرحلى لأن هذه المؤثرات تنمو تدريجيا من خلال مراحل متتالية ، ومن ثم فقد لاحظ ابن خلدون أن المعانى الجديدة التى طرأت على كلمة التصوف بمرور الوقت أدت الى كثرة تعريفات التصوف ووسعت فى معانيه فلم ينطبق عليها حد واحد ويرى نيكلسون أن تطور التصوف كان يحدث عن طريقين : أولهما ، تنظيم التعاليم الدينية التى كان لها وجود بالفعل قبل التصوف والتوسع فى معانيها . وثانيهما ، اكتساب تعاليم ورسوم جديدة (٢) أى أنه يرى أن التصوف قد تطور تطورا ذاتيا داخليا من ناحية ، كما تطور نتيجة اتصاله بالمؤثرات الخارجية من ناحية أخرى . ويلخص نيكلسون مراحل تطور التصوف - كما يتصورها - كالآتى :

١ - أن التصوف بمعنى الانقطاع الى الله والعزلة عن كل ما سواه كان نتيجة طبيعية لنزعة الزهد التى ظهرت قوية فى الاسلام أثناء حكم للدولة الأموية .

٢ - ان حركة الزهد هذه لم تكن بمعزل عن المؤثرات المسيحية وان كانت فى جملتها نتيجة للتعاليم الاسلامية ومن ثم كان التصوف الذى ترتب عليها اسلاميا فى جوهره .

(١) المقدمة ، فصل فى علم التصوف .

(٢) نظرة تاريخية فى اصل التصوف وتطوره ، من كتاب فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ١ - ٤١ .

٣ — لكن ظهر في نهاية القرن الثاني الهجرى تيار فكرى غير اسلامى كان له أثره في التصوف الاسلامى ، وهذا التيار الجديد غير الاسلامى واضح كل الوضوح في أقوال معروف الكرفى •

٤ — تطورات هذه الأفكار الجديدة تطور عظيما وأصبحت العنصر الفعال في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى • وكان ذو النون المصرى (ت ٢٤٥) هـ أكبر شخصية شكات المذهب الصوفى وطبعته بطابعه الدائم •

٥ — الظروف التاريخية التى ظهر فيها هذا النوع الجديد من التصوف تحمل على الاعتقاد بأن مصدره خارجى يتمثل في روافد عدة ، بعضها يونانى يتمثل في الأفلاطونية الحديثة والمذهب الغنوصى ، وبعضها فارسى أو هندى يتمثل في الأفكار التى أدخلها الى التصوف أبو يزيد البسطامى • أما كلام الصوفية في الفناء فالمرجح أنه مستمد من مذهب النرفانا البوذية •

٦ — أصبح التصوف مذهباً منظماً أثناء الجزء الأخير من القرن الثالث الهجرى وصار للصوفية أساندة وتلاميذ وقواعد للسلوك ، لكنهم بذلوا ما وسعهم من جهد للتوفيق بين تصوفهم وبين القرآن والسنة اللذين اتخذوهما أساساً لجميع أقوالهم وأفعالهم (١) •

ومع أن نيكلسون يبدو مقنناً في تصويره لتطور التصوف حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، فإنه ينبغي ملاحظة ما يأتى : —

١ — ان النزعة الصوفية في الاسلام كانت تتزايد كمياً ونوعياً كلما ابتعدت عن بداياتها الأولى حتى انتهت الى حركة واسعة ينتظم في عدادها طوائف شتى قد يتشابهون في لبسة الصوف لكنهم يتفاوتون تفاوتاً شديداً فيما بينهم ومن ثم حرص بعض المعنيين على توضيح الفوارق بين مختلف جماعات المتصوفة وتمييز المعانى بعضها عن بعض ، فالغزالي — على سبيل المثال — يرى أنه « حيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل فقد تشبهت الاشارات في الفقر بمعانى الزهد تارة وبمعانى التصوف تارة ولا يتبين للمسترشد

(١) نيكلسون : المرجع السابق ص ١ — ٤١ •

بعضها من بعض» (١) . ومن أمثلة العناية بالتمييز بين المعانى قول أبى عبد الله بن الجلاء : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد » (٢) ، وميز الغزالى بين الصوفى والفقيه لأنه رأى أهل الشام يخلطون بينهما (٣) . ومع أن الكللاباذى كان يريد اضماء كل الصفات المختارة على الصوفية إلا أنه ميز — ربما من حيث لا يدري — بين المعانى المختلفة اذ يقول « لخروجهم عن الأوطان سموا غرباء ولكثرة أسفارهم سموا سياحين ومن سياحاتهم فى البرارى وايوائهم فى الكهوف عند الضرورات سموهم بعض أهل الديار شكفتية ، والشكفت بلفتهم الغار ، وأهل الشام سموهم بجوعية ، ومن تخليهم عن الأملاك سموا فقراء ومن لبسهم وزهم سموا صوفية » (٤) .

٢ — ظهر بين الصوفية اتجاه لتصنيف أنفسهم الى درجات أو طبقات يعلو بعضها فوق بعض ، فأعلاها الصوفى وأوسطها المتصوف وأدناها المستوصف . فالصوفى اسم يطلق على أهل الكمال منهم ، والمتصوف هو من يطلب هذه الدرجة العليا بالمجاهدة ، والمستوصف هو من تشبه بهم من أجل الجاه . وبعبارة أخرى ، الصوفى صاحب الوصول والمتصوف هو صاحب الاصول والمستوصف هو صاحب الفضول (٥) . بينما يصنفهم البعض الى ثلاث طبقات : مريد طالب ومتوسط ساير ومنته واصل (٦) .

٣ — مارس عدد من المتصوفة نوعا من النقد الذاتى لتنقية الحركة الصوفية مما علق بها من الشوائب ، من ذلك قول يوسف بن الحسين الرازى « رأيت آفة الصوفية فى صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد وارفاق النسوان » (٧) وذكر أبو سعيد الخراز أنه رأى إبليس فى المنام فحاوره فقال له إبليس ان له فى الصوفية لطيفة هى صحبة الأحداث ، ولم ينكر الخراز ذلك وإنما قال مستهجنا « قل من يتخلص من هذا

-
- (١) احياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٨٨ .
 - (٢) السلمى : طبقات الصوفية ، ج ١ ص ١٧٨ .
 - (٣) احياء علوم الدين ، ج ٥ ، ص ٨٨ .
 - (٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٢١ — ٢٢ .
 - (٥) الهجویری ، كشف المحجوب ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .
 - (٦) مجموع من كلام السهروردی ، مخطوط ، بدون ترقيم للصفحات .
 - (٧) السلمى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٨ .

من الصوفية» (١) . وكان أبو حامد القصار اذا رأى أصحاب الممر يقول : نشرتم أعلامكم وخبرتم صولكم فياليت شعري في اللقاء أى تكونون» (٢) أما أبو الحسن القناد فقد انتقد أهل التصوف ثم فقال :

أهل التصوف قد مضوا	صار التصوف مخرقة
صار التصوف صيحة	وتواجدوا ومطبقة
مضت العلوم فلا عد	وم ولا قلوب مشرقة
كذبتك نفسك ليس ذ	ى سنن الطريقة المخلفة
حتى تكون بعين من	عنه العيون المحدقة

ويذكر السراج الطوسى أن الذين خلطوا من الصوفية ثلاث طبقات منهم من غلطوا في الأصول من قلة احكامهم لأصول الشريعة فصح الوصول لتضييع الأصول ومنهم من غلطوا في الفروع وهى الآ والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال لأنهم لم يدنوا يوقفهم على المنهج الذى يؤدى بهم الى مطلوبهم فيقع فيهم الغلط ومنهم الهفوة والشطط ، ومنهم — وهم الطبقة الثالثة — من كان فيهم غلطوا فيه زلة وهفوة لا علة وجفوة فاذا تبينوا ذلك عادوا مكارم الأخلاق فعادوا الى الأحوال الرضية والأفعال السنية والدور الرفيعة فلم تنقص مراتبهم هفوتهم (٣) .

ويمكن أن نعد الرسالة التى وجهها أر القاسم عبد الكريم القش المتوفى سنة ٤٦٥ هـ الى جموع الصوفية فى وقته ، والمعروفة بالر القشيرية ، نوعا من النقد الذاتى كان يهدف منه الى تحسين صورة التص وتزيينه فى قلوب معارمة وتقريب الشقة بينه وبين مذهب أهل الس

(١) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) السهروردي ، آداب المريدين ، مخطوط ، بدون ترقيم .

(٣) الطوسى : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤١٠ — ٤١١ .

٤ — سعى بعض المتصوفة الى تحسين صورة التصوف مثل أبى القاسم القشيري (ت ٤٦٥ هـ) وأبى حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) الذى كانت محاولته فى ذلك أنجح المحاولات لولا أن انتقص من أثرها ما رددته متصوفة القرن السادس الهجرى من أقوال مثل محبى الدين بن عربى ومن نحاحوه من المتصوفة ، مما دعا المتشددى من أهل السنة المعادين للتصوف أن يشنوا أقسى الهجمات على المتصوفة مثل هجوم أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى (ت ٥٩٧) على الصوفية خاصة فى كتابه تلبيس إبليس (٣) فقد كان هجوم ابن الجوزى أعنف وأقسى هجوم عليهم — خاصة على المتأخرين منهم — فشنع عليهم وفضح كثير من زلاتهم مرجعا اياها الى غواية الشيطان لهم أو تلبيس إبليس عليهم .

لقد مر التصوف عبر تطوره منذ بدايته فى القرن الثانى الهجرى وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى بمدة مراحل رئيسية تتصورها كالتالى :

١ — المرحلة الأولى : بدايات التصوف .

وهى مرحلة ظهور التصوف على الساحة الاسلامية منبثقا عن تصاعد الزهد المنظم (٢) ويمكن اعتبار النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى بداية هذه المرحلة التى كان المتصوفة فيها لا يختلفون كثيرا عن الزهاد وكان التزامهم بالشريعة واضحا فخلط الناس يومئذ بينهم وبين الزهاد مما دعا الصوفية الأوائل الى الاهتمام بالتمييز بين التصوف وغيره من المذاهب والنزعات فكثرت أقوالهم فى ذلك مثل بشر الحافى (ت ٢٢٧ هـ) الذى ميز بين الصوفى والمقير (٣) . وقد بلغت هذه المرحلة نهايتها بظهور ذى النون الاخميمى المصرى (ت ٢٤٥ هـ) الذى كان علامة بارزة فى تاريخ التصوف ، ويعدده نيكلسون أجق رجال التصوف على الاطلاق بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف (٤) واعترف له بهذا الفضل

Margoliouth; «The Devil's Delusion by Ibn Al-Jayzi» IC, IX (١)
(Jan, 1935) pp. 1-21.

(٢) محمد جواد مغنية : المرجع السابق .

(٣) السلمى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧ .

(٤) نظرة تاريخية فى أصل التصوف وتطوره (من كتاب فى التصوف

الاسلامى وتاريخه) ص ١ — ٤١ .

كثيرون فيرى عبد الرحمن الجامى أنه رأس فرقة الصوفية ، أخذ عنه الجميع واتسبوا اليه « وقد كان المشايخ قبله ولكنه كان أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم في الطريق » (١) ويرى فيه أو ليرى أنه أول من جعل التصوف علما حقيقيا (٢) .

٢ — المرحلة الثانية : تدعيم التصوف وانتشاره .

وتبدأ هذه المرحلة من حيث تنتهى سابقتها عند ذى النون المصرى ، ونعدها مرحلة تدعيم التصوف اذ كان الاهتمام فيها ينصب على توضيح أصول التصوف وشرائطه ومعانيه ، فيذكر السرى السقطى (ت ٢٥٧ هـ) — على سبيل المثال — أن للتصوف ثلاث معان ذكرناها آنفا ، وسهل ابن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ) يذكر أن الصوفى تلزمه ثلاثة أشياء : حفظ سره وأداء فرضه وصيانة فقره . وذكر أيضا أن أصول التصوف سبعة : التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق (٣) — وشتان ما بين هذه الأصول السبعة التى يحددها التستري وبين أركان التصوف التى يصل بها الكلاباذى فيما بعد (ت ٣٨٠ هـ) الى عشرة أركان هى : تجريد التوحيد ثم فهم السماع وحسن العشرة وإيثار الايثار وترك الاختيار وسرعة الوجد والكشف عن الخواطر وكثرة الأسفار وترك الاكتساب وتحريم الادخار (٤) ، فهذا الفارق بين الأصول عند التستري والأركان عند الكلاباذى كان نتيجة لتطور التصوف تطورا كبيرا فى نحو قرن واحد من الزمان . كما يظهر هذا التطور فى المقارنة بين ما سجله السلمى من شروط كان يأخذ بها المشايخ المتقدمون وبين الأركان التى ذكرها الكلاباذى ، يذكر السلمى « شرائط التصوف ما كان عليه المشايخ المتقدمون من الزهد فى الدنيا والاشتغال بالعبادة والذكر والغنى عن الناس والقناعة والرضا بالقليل من المطعوم والمشروب والملبوس ورعاية الفقراء وترك الشهوات والمجاهدة والورع وقلة النوم والكلام والمراقبة والوحشة من الخلق والغربة ولقاء المشايخ والأكل عند الحاجة والكلام

(١) نفحات الانفس ، ص ٣٤ .

(٢) تاريخ الفكر العربى ص ١٦٤ .

(٣) السلمى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٨٩ .

عند الضرورة والنوم على الغلبة والجلوس في المساجد ولبس المرقعة والرت « (١) » .

لقد طرأت على التصوف في المراحل التالية اضافات كمية ونوعية كانت تزيده اتساعا وبعدا عن شكله الأول وقد أشار ابن الجوزي الى تلك المتغيرات فذكر أن الصوفية الأوائل كان عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الحميدة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق وغير ذلك من الحضال الحسنة التي تكسب المديح في الدنيا والثواب في الآخرة ، ثم جاء أقوام تفكلموا لهم في الرجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك (٢) .

تمتد المرحلة الثانية من التصوف — مرحلة التدعيم — لتشمل الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ والذي يصفه ابن تيمية بأنه سيد طائفة الصوفية (٣) . وقد قام الجنيد بتسجيل تعاليم ذي النون المصري وترتيبها حتى أصبحت الأساس الذي بنى عليه الصوفية جميعا (٤) وخطى التصوف على يد الجنيد خطوات واسعة اذ صاغ المعالي الصوفية وشرحها كتابة ، وكان يعلم التصوف سرا في السرايب وفي بيوت خاصة (٥) ، وتتلذذ عليه عدد من أعلام التصوف اللاحقين مثل عمرو بن عثمان المكي وأبي بكر الشسبلي وأبي بكر بن سعدان وغيرهم وقد ظهر منذ أواخر القرن الثالث الهجري تصوف جديد — على حد تعبير أوليري — ساهمت في ايجاده مثل دينية مغايرة لتلك التي كانت سائدة في صدر الاسلام ، وتنتج عن التأثير بهذه المثل الجديدة كلام في الالهيات من نوع خاص ظل ينظر اليه زمنا طويلا على أنه مروق عن الاسلام الصحيح (٦) وكان لتأثرة الواضح بأفكار دينية غير اسلامية أثره في ابتعاد التصوف في آخره عنه في أوله (٧) وكان هذا التصوف الجديد يتمثل في أبي يزيد البسطامي الذي

(١) المقدمة في التصوف ، ص ٦٤ .

(٢) تلبيس ابليس ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٣) مجموع فتاوى ، مجلد ١١ ، ص ١٨ .

(٤) أوليري : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٥) عبد الرحمن الجامي : المصدر السابق ص ٣٦ .

(٦) أوليري : المرجع السابق ، ص ص ١٠٦ — ١٦١ .

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، فصل في علم التصوف .

قال بالاتحاد بمعنى اتحاد المخلوق مع الخالق ليصبغا حقيقة واحدة (١) .
٣ — المرحلة الثالثة : مرحلة الشطط :

وهى المرحلة التى يمكن القول بابتدائها على يد الحسين بن منصور الحلاج (قبل سنة ٣٠٩ هـ) الذى توغل بالتصوف فى أقوال مبهمة وتهويمات غامضة وقال بالحلول بمعنى حلول الله فى الانسان وسائر المخلوقات (٢) ، فلم يرض عنه أحد من المسلمين حتى مشايخ الصوفية أسسهم فكان منهم من أنكر قوله وردوه ولم يقبله منهم إلا أقلهم ممن جملوه أحد المحققين فى التصوف (٣) . فلا غرو اذن أن ينهمه أهل السنة بالزندقة ويحاكمونه ويعدموه فى بغداد سنة ٣٠٩ هـ باعتباره مبتدعا يتنافى مذهبهم فى الحلول مع الدين الصحيح (٤) .

ويبدو أن أقوال الحلاج وأمثاله من أهل الشطط فى التصوف قد أدت الى اشتداد معارضة أهل السنة للتصوف وانكارهم للبدع الصوفية مما أساء الى الحركة الصوفية وقبح وجهها فى العالم الاسلامى فنهض عدد من معتدلى التصوف لتحسين وجه التصوف وبذلوا فى ذلك جهودهم . وبعد كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبى الحسن الملقب المتوفى سنة ٣٧٧ هـ نموذجا لتزايد هجوم أهل السنة على التصوف فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (٥) لكن الصوفية المعتدلين انبروا للدفاع عن نزعتهن مظهرين تمسكهم بالشريعة ومستهجنين أغلاط المخطئين من المتصوفة ، وكتبوا فى ذلك عدة كتب كان هدفها جميعا تحسين صورة التصوف أمام معاصريهم . وكان من أقدم من قاموا بذلك من المتصوفة السراج الطوسى الذى كان معاصرا لأبى الحسين الملقب وتوفى بعده بعام واحد فقط فى سنة ٣٧٨ هـ فكتب كتابه اللمع فى التصوف ، وعاصره الكلاباذى الذى توفى بعده بعامين فى سنة ٣٨٠ هـ وكتب كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف . وتطورت جهود المتصوفة لتحسين صورة مذهبهم الى محاولات للتوفيق بينه وبين مذهب أهل السنة ، يذكر فى

(١) محمد جواد مقية : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

(٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣) السلمى ، المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٦ .

(٤) الفرديل : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

(٥) عبد الرحمن يدوى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

ذلك الرسالة القشيرية التي وجهها أبو القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ الى معاصرة • لكن أبرز وأنجح محاولة للتوفيق بين مذهب أهل السنة وبين التصوف كانت تلك التي قام بها حجة الاسلام أبو حامد الغزالي والتي يرى البعض أنها غيرت من مجرى التصوف الاسلامي ، « فقد أرسى الغزالي قواعد التصوف السني الذي يعنى بالجانب الخلقى التربوي في العالم الاسلامي ورفض أنواع التصوف الأخرى المسرفة كتصوف الحلاج القائم على فكرة الحلول وتصوف البسطامي الذي يعلن فيه الاتحاد » (١) • ويرى ألفرد دبل أن هذا التوفيق الذي بدأ منذ القرن الخامس الهجري بين التصوف والاسلام السني والذي قام فيه القشيري والغزالي بأهم دور قد خفف حدة العداء للتصوف وأوجد له أنصارا في العالم الاسلامي على اتساعه خاصة في بلاد المغرب (٢) •

٤ - المرحلة الرابعة :

وهي التي تبدأ في القرن السادس الهجري وتمتد بعد ذلك محددة ملامح الحركة الصوفية في القرون التالية متمثلة في اتجاهين رئيسيين : أولهما ، اتجاه نظري فلسفي يعد محيي الدين بن عربي علمه الأشهر وثانيهما اتجاه عملي منظم يتمثل في الطرق الاخوانية الجماعية المنظمة والمعروفة اصطلاحا باسم الطرق الصوفية والتي تمثلت بواكبرها في الطريقة القادرية الجيلانية التي أسسها عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦٧ هـ والطريقة الرفاعية التي أسسها أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ • وعلى الرغم من وقوع هذه المرحلة خارج نطاق هذه الدراسة التي تناولها فمن الممكن أن نشير الى أن آراء وسلوكيات الصوفية في هذه المرحلة من أمثال ابن عربي ومن هم على شاكلته من ناحية والطرق الاخوانية من ناحية أخرى قد أودت بالتقارب الذي توصل اليه الغزالي بين أهل السنة والتصوف المعتدل ، ومن ثم فقد عاود أهل السنة مهاجمة التصوف بل تعرض التصوف لأقصى هجوم في تاريخه من قبل عبد الرحمن بن الجوزي (٣) ،

(١) أبو الوفا التفتازاني : الطرق الصوفية في مصر ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٥ / ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ص ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .
(٣) Margoliuth; op. cit. pp. 1-21.

ثم جاء هجوم ابن تيمية بعد ذلك أقل حدة لكنه صبه على أمثال الحلاج وابن عربي ومن على شاكلتهما ممن أسماهم بالحلولية والاتحادية .

لقد كان التصوف دوما عرضة لانتقاد أهل الفرق الإسلامية على اختلافها . لكن نبرة هذا النقد كانت تخفت حيناً وتعلو حيناً آخر تبعاً لظروف كل فرقة من ناحية وتبعاً لأحوال الصوفية أنفسهم من ناحية أخرى . ولم يكن النقد الموجه للصوفية أو الهجوم عليهم في أغلب الأحيان إلا رد فعل لأقوالهم وأفعالهم ومن ثم يمكن أن نقسم خفوت النقد لمتصوف معتدل كالغزالي وحدة النقد — بل الهجوم — الموجه ضد متصوفين آخرين كالحلاج وابن عربي .

كان الخوارج أول الفرق الإسلامية انتقاداً للتصوف ، إذ أخذوا على المتصوفة طاعتهم لسلطان الجور وقولهم بأن النية أفضل من العمل (١) . وسخط الشيعة على المتصوفة (٢) لقولهم بالولاية وبالقطب الغوث مما يعطل علم الإمامة عند الشيعة (٣) فضلاً عن أن تجمع المريدين حول مشايخ الصوفية حرم الشيعة من رصيد بشرى هائل كان من الممكن استبالتة إلى التثبيح وتجميعه حول الإمام الشيعي الذي ادعى لنفسه العصبة متطلعا إلى زيادة سلطانه وزيادة أتباعه لاسيما بعد انحصار النفوذ السياسي للخلفاء العباسيين منذ تزايد نفوذ الأتراك وتسلبهم على الخلافة العباسية . أما أهل السنة فقد كانوا أخف حدة في معارضتهم للتصوف خاصة المعتدل منه ، إذ كان هجوم أهل السنة لا ينصب غالباً إلا على غلاة الصوفية ولم يقولوا بمروق المعتدلين منهم عن الدين (٤) .

والتصوف — على حد قول الهويري — تنقل وتكلف (٥) أو بعبارة أخرى هو رحلة يسلكها المتصوف مرورا بمنازل أو مقامات وصولاً إلى مرتبة الصوفية التي تطلق على كاملها الولاية ومحققى الأولياء . أو هو رحلة للوصول إلى الحقيقة ومعرفة الله (٦) .

(١) كوربان : المرجع السابق ، ص ٤٨٤ .

(٢) محمد جواد مقبة : المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٣) كوربان : المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(٤) ماسينيون ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تصوف .

(٥) كشف المحجوب ، ص ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٦) S. Trimingham; op. cit. p. I.

ويقسم الصوفية هذه الرحلة — التي يدعونها الطريق أو السبيل — الى مقامات والمقامات الى أحوال يترقى فيها المريد في ظل رعاية شيخه من حال الى حال ومن مقام الى مقام حتى يصل الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المرجوة للسعادة في رأيهم (١) وهذه الرحلة لها في التصوف كثير من الأهمية حتى أن الهروي (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٩ م) أفرد لبيانها وشرح مقاماتها وأحوالها كتابا أسماه منازل السائرين (٢) يبدو أنه هو الذي أشار اليه ابن خلدون باسم كتاب المقامات للهروي (٣) .

وقد وضع الصوفية للطريق — أو السبيل — شروط « هي قلة الكلام والطعام والنام واعتزال الأنام والذكر المرام واطعام الطعام وافشاء السلام وقيام الليل والناس نيام .، وله أصول : التمسك بالكتاب والسنة وأكل الحلال وكف الأذى وتحمله وتجنب المعاصي والتوبة قبل الشروع وأداء الحقوق واجتناب الجبابة والقراء المذاهنين والمتصوفة الجاهلين . . . ولا بد للسالك من الورع لأنه زمام الدين وترك الطمع لأنه فساد الدين » (٤) والسبل كثيرة عندهم « لا تعد ولا تحصى ، بل المتعارف منها أربعة : سلوك طريق المعاملة . . . وهي ما عليه السواد الأعظم . . . الثاني : سلوك طريق السياحة لكسر النفس وتهذيب الأخلاق وصحة التوكل والنظر في آلاء الله والاجتماع بالأخيار والأخذ عنهم ، الثالث : السلوك في طريق المجاهدة وترك المألوفات والشهوات والعادات ومخالفة النفس بالرياضات والالتقياد للمرشد الكامل وترك الدنيا وأهلها . . . الرابع : سلوك أهل الجذب وهو الفناء في الله . . . فلا يرى إلا الله ولا يتكلم إلا بالله ولا يسمع إلا من الله » (٥) .

والطريق عند المتصوفة غير الطريقة ، فالطريق Road هو السبيل الذي يسلكه المريد وصولا الى المراد وهو ما كان معروفا لدى المتصوفة

-
- (١) ابن خلدون : المقدمة ، فصل في علم التصوف .
(٢) نشر هذا الكتاب بتحقيق الاب لوجية دي بوركى البومسكى ، القاهرة / ١٩٦٢ .
(٣) المقدمة ، فصل في علم التصوف .
(٤) مجهول : رسالة في آداب الصوفية ، مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز برقم ٧٦٥ .
(٥) مجهول : رسالة في آداب الصوفية ، مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز برقم ٧٦٥ .

الأوائل إبان التصوف الفردي . أما الطريقة Order فاصطلاح ظهر لاحقا إبان التصوف الجماعي المنظم يطلق على جماعات المعاشرة الإخوانية التي تعرف باسم الطرق الصوفية وتدعى الواحدة منها باسم الطريقة . والأساس في هذه الطريقة هو تنظيم العلاقة بين المرشد والمريد (١) .

غير أن البعض يخلط بين مصطلح الطريق Road واصطلاح الطريقة Orden ، فماسينيون — على سبيل المثال — خلط بينهما وجعل لكلمة طريقة معنيين متتاليين زمنيا ، أولهما كان يعرف في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين وفيهما كانت الطريقة تعنى ضروب من السلوك الفردي ، وثانيهما يأتي بعد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وفيه أصبحت الطريقة عبارة عن مجموع مراسم التدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة الإخوانية (٢) . ويبدو أن ما سينيون كان يقصد بالمعنى الأول لما يسميه الطريقة ما كان يعنيه مصطلح الطريق Road عند الصوفية الأوائل وهو السبيل الذي يسلكه المريد وصولا إلى المراد خلال منازل نفسية مختلفة ومتعاقبة تعرف بالمقامات والأحوال .

لقد كان الطريق Road هو سبيل المتصوفة إبان التصوف الفردي أما الطريقة Order فقد أطلقت على الجماعة الصوفية التي تنتظم حول شيخ من المشايخ يكون لها مرشدا . ولعل أولهما كان سببا في الآخر حينما أكد المشايخ الأوائل على ضرورة أن يسترشد المتصوف السالك للسبيل بهدى شيخ من مشايخ التصوف حتى أن أبا يزيد البسطامي قال : من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه (٣) وقال الجنيد : من سلك بغير شيخ ضل وأضل (٤) .

ويرى كارادى فو أن الطرق الصوفية هي التعبير المنظم عن التصوف الاسلامي بعد أن ظل قرونا طويلة يقوم على الأفراد وأن هذه الطرق

S. Trimmingham; op. cit. p. 3.

(١)

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تصوف .

(٣) القشيري : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٣٥ واحسان الهى ظهير :

التصوف ، ص ٢١٧ .

(٤) احسان الهى ظهير : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

التي لها طبيعة الهيئات الدائمة التي تحتفظ بنظام خاص وعبارات خاصة ويجمعها اسم معلوم لم تنشأ الا في القرن السادس الهجري في الحقبة المضطربة من تاريخ الاسلام التي تمزقت فيها أوصال الدولة السلجوقية . وكانت أول طريقة بهذا المفهوم لها أصل معلوم ولا تزال باقية حتى الآن هي الطريقة القادرية التي أنشأها عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ (١) .

واذا كان كارادى قو يرجع نشأة الطرق الصوفية الى الفترة المضطربة من تاريخ الاسلام ، فان بعض الدارسين يحملون هذه الطرق بعض مسئولية التدنى الذى حل بالعالم الاسلامى ، فقد أدى الى ذلك اعتناق الصوفية لعقيدة الجبرية وتزويجهم الى التواكل والسلبية وظهور الفرق الصوفية التي جعلت من الضعف والعجز مبدأ أساسيا بدعوى تفويض الأمور الى الخالق فحاد المتصوفة بذلك عن طريقهم الأول وصاروا يعرفون التصوف بأنه الصبر تحت الأمر والنهى بعد أن كانوا يرونه في عصره الأول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٢) .

وواقع الأمر ، أن الطرق الصوفية لم تكن أساس التدنى — وان كانت قد أسهمت فيه — اذا كانت نفسها وليدة التدنى والتدهور الذى عصفت بالعالم الاسلامى منذ القرن السادس الهجرى ومن ثم لم تكن هي سببا له وانما كانت احدى نتائجه .

هكذا كان مسار التصوف في العالم الاسلامى منذ ظهوره في القرن الثانى الهجرى حتى ظهور الطرق الصوفية في القرن السادس الهجرى — واذا كانت نزعة الزهد التي سبقته ومهدت له قد بدأت في المشرق الاسلامى وفيه تصاعدت مؤدية الى التصوف ، فان الأمر لم يختلف عن ذلك في المغرب الاسلامى الذى لم يتأخر كثيرا عن مواكبة الحركة الزهدية — الصوفية في المشرق الاسلامى ، اذ مالبت هذه الحركة أن امتدت الى بلاد المغرب والأندلس في وقت غير بعيد عن بدء ظهورها في المشرق . ولقد أصاب الفرد بل اذ قال : « سيكون مثارا للدهشة لو لم ينجح

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة درويش .

(٢) توفيق بن عامر الصوفية والعقيدة الجبرية ، حوليات الجامعة

التونسية عدد ١٨ / ١٩٨٠ ص ص ٧٥ — ٨٨ .

(م ٤ — الزهاد والمتصوفة)

التصوف في النفوذ في الاسلام المغربى والتغلغل فيه ذلك أن كل الحركات
التي ظهرت في المشرق الاسلامى منذ بداية الاسلام وجدت لها أصداء
في الشمال الأفريقى « (١) » .

وإذا كنا نوافق ألفرد بل فيما ذهب اليه ، فأننا نضيف الى ذلك أن
كل الحركات التي ظهرت في المشرق الاسلامى لم يقتصر صداها على الشمال
الأفريقى فحسب بل عبرت مضيق جبل طارق وتردد صداها أيضا في
الأندلس .

وفي ضوء ما تقدم ، سوف نتعرض في الصفحات التالية لدراسة الزهد
والتصوف في المغرب والأندلس منذ ظهورهما هناك حتى نهاية القرن
الخامس الهجرى على اعتبار أن نزعة الزهد التي تصاعدت الى التصوف
في المشرق قد سارت في مسار مشابه لذلك في بلاد المغرب والأندلس
في أوقات متقاربة وظروف متشابهة تجعل من الحركة الزهدية — التصوفية
تيارا عاما في العالم الاسلامى كله بجناحيه الشرقى والغربى على السواء .

(١) الفرق الاسلامية في الشمال الافريقى ، ص ٣٧٩ .

**الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب الاسلامى
حتى القرن الخامس الهجرى**

الزهد والزهاد في بلاد المغرب الاسلامى :

لم يتأخر ظهور الزهد في بلاد المغرب كثيرا عن ظهوره في المشرق الاسلامى ، فقد نزع كثير من أهل المغرب الى الزهد منذ وقت مبكر من تاريخ الاسلام في بلاد المغرب ، ولم يكن نزوع المغاربة الى الزهد راجعا فقط الى أن الحركات التى كانت تظهر في المشرق الاسلامى قجد صداها في الجناح الغربى من عالم الاملام وانما كان ذلك النزوع يرجع أيضا الى عدة عوامل سياسية واقتصادية وثقافية ونفسية ، يمكن أن نشير الى البعض منها :

١ - وفود بعض الزهاد المشاركة الى بلاد المغرب :

كان مما ترتب على الفتح الاسلامى لبلاد المغرب تدفق كثير من المشاركة الى تلك النواحي ، وعلى الرغم من تنوع مهامهم وتعدد أهدافهم فانهم قد تضافروا جميعا في انجاز أعظم حركة وأروعها لأسلمة بلاد المغرب وتعميرها مما جعل من بلاد المغرب جزء لا يتجزأ من عالم الاسلام والعروبة .

وكان ممن قدم من المشرق الاسلامى الى بلاد المغرب نفر من الزهاد الذين نزعوا الى الزهد ومارسوه وعاشوا أهله وتمرسوا فيه حتى أصبح الزهد علما عليهم وأصبحوا أعلاما فيه ، فلما قدموا الى بلاد المغرب أثاروا في نفوس المغاربة الأعجاب بالزهد والميل اليه .

كان من أوائل الزهاد الذين وفدوا من المشرق الاسلامى الى بلاد المغرب نفر من التابعين العشرة الذين أرسلهم الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الى بلاد المغرب ليفقهوا أهلها في الدين . وكان هؤلاء النفر يتصفون — فضلا عن علمهم وفقهم — بالزهد ويمارسونه ، منهم اسماعيل ابن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله الذى كان من أهل الفضل والعبادة والنسك والارادة ، قال فيه سعيد بن المسيب — التابعى المشهور — انه نسك نسك العجم . وكان اسماعيل بن عبيد تاجر الله يلبس جبة صوف وكساء صوف وقلنسوة صوف ، سكن القيروان وكان أول من بنى بها جامع الزيتونة سنة ٩١ هـ ، علم أهلها فقهه وزهده حتى خرج متطوعا في

غزاة عطاء بن رافع صقلية فغرق في البحر فمات سنة ١٠٧ هـ (١) . وكان من هؤلاء التابعين العشرة أيضا اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي الذي ولاء عمر بن عبد العزيز على افريقية لكنه كان مع فقهه صالحا زاهدا ، بلغ من الزهد أنه كان إذا أقبل من الغزو في الصائفة افترش درعه فنام عليها ، وكان هو وأم ولده وفرسه يسكنون بيتا واحدا زهدا في الدنيا وتواضعا ، ضرب به المثل في الزهد حتى قال فيه أحدهم : ما رأيت زاهدا في هذه الأمة غير اثنين : عمر بن عبد العزيز واسماعيل ابن عبيد الله المخزومي ولقد تعلم أهل افريقية من فقهه وزهده حتى توفي بالقيروان سنة ١٢٢ هـ ٢ (٢) .

ثم قدم الى افريقية زهاد آخرون من المشاركة نعرف قلة منهم مثل سعيد الأدم المتعبد بمصر والذي زار افريقية فلقى فيها أبا عيسى مروان ابن عبد الرحمن اليحصبي (٣) ، ولا شك أن آخرين غيره قد قدموا الى بلاد المغرب من المشرق كان لهم دور في استمالة المقاربة الى الزهد غير أن المصادر المغربية سكنت عن كثير من أخبارهم اهتماما منها بأخبار المغاربة الذين رحلوا من بلاد المغرب الى المشرق الاسلامي .

٢ - رحلات الزهاد المغاربة الى المشرق الاسلامي :

كانت رحلات المغاربة الى بلاد المشرق لا تنقطع اذ كانوا يتدفقون على المشرق تدفقا مستمرا لأسباب شتى كالجذب الى المشاعر المقدسة في الحجاز ولطلب العلم في مدارس المشرقية خاصة في الحجاز والعراق والشام ومصر وغير ذلك من أسباب حتى يمكننا القول ان الرحلة الى المشرق كانت حلما يراود كل مغربي .

وكان كثير من هؤلاء الذين ارتحلوا الى المشرق من الزهاد والعباد الذين كانوا يسعون — فيما يسعون اليه — الى لقاء الزهاد المشاركة للتعرف عليهم والأخذ عنهم . فمن هؤلاء الذين ارتحلوا الى المشرق — على

(١) المالكي : رياض النفوس ، ج ١ ص ١٠٦ - ١٠٧ .
والدباغ : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، ج ١ ، ص ١٩١ - ١٩٥ .
(٢) المالكي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٥ - ١١٦ والدباغ :
المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩١ - ١٩٥ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٥ .

سبيل المثال — أبو عبد الله محمد بن مسروق الزاهد ، هكذا كان يلقب ، وكان صالحا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة عن غنى ومقدرة ، لقي في رحلته حين نزل بالاسكندرية أبا شريح المتعبد الاسكندراني (١) . وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي الذي ذكره المالكي وكتب عنه أنه كان متجردا عن الدنيا زاهدا فيها ، كان أصله من السوس الأقصى وقدم الى افريقية فأقام مدة بالقيروان صحبة فيها عدد من أهلها وانتفعوا به كان في مقدمتهم البهلول بن راشد . وكان أبو عبد الله السوسي هذا هو القائل عن الزهد حينما سئل عنه : « الزهد تجريد القلوب وتزوع اليقين بالانصراف سرا وجهرا » . وقد ارتحل أبو عبد الله السوسي هذا الى المشرق وقيل انه توفى بالطور بمصر (٢) .

وكان ممن ارتحلوا الى المشرق البهلول بن راشد ، يصفه المالكي بأنه وتد من أوتاد المغرب (٣) والوتدية مرتبة من مراتب الصوفية لكننا نشك في أن البهلول بن راشد كان من المتصوفة وإنما كان زاهدا فقط . وقد التقى البهلول بن راشد في المشرق بالامام مالك الذي لاحظ غلبة العبادة عليه فلقبه عابد المغرب . وكان يضرب به المثل في الورع ببلاد المغرب ، قال فيه موسى بن معاوية الصمادحي : رحلت من القيروان ولا أظن أني أرى أخشع من البهلول بن راشد حتى لقيت وكيع بن الجراح (٤) .

وكان ممن ارتحلوا الى المشرق عبد الملك بن أبي كريمة ، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وغيرهما ، قيل انه كان مستجاب الدعوة ونسبت اليه كرامات كثيرة . وكان له كتاب في الزهد ، روى عنه بعض

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٣ — ١٩٤ والديباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩١٦ — ٩١٧ .

— يبدو أن أبا عبد الله السوسي هذا غير أبي عبد الله السوسي الذي ذكره كل من الديباغ والسلمي ، فالسوسي المذكور عند المالكي كان فيما يبدو أسن من البهلول بن راشد وقد توفى البهلول سنة ١٨٣ هـ أما السوسي المذكور عند الديباغ والسلمي فقد توفى بعد هذا التاريخ بأحد عشر عقدا من الزمان في سنة ٢٩٣ هـ لكن يبدو أن الخلط بينهما راجع الى تشابه الاسماء أو الى وفاتهما في موضع واحد .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٠ والديباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) الديباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٢ .

المشاركة وكثير من أهل المغرب كان منهم — على سبيل المثال سحنون ابن سعيد وداود بن يحيى وغيرهم ، ووصف ابن أبي كريمة بأنه كان من العلماء الكرماء الفضلاء الزهاد ، مولى اسماعيل بن عبيد الأنصاري (١) • الذى يبدو أنه تلقى عنه العلم والزهد معا •

وكان منهم أبو محمد عون بن يوسف الخزاعي ، كان فقيها صالحا زاهدا ، رحل الى المشرق وقدم الى المدينة المنورة سنة ١٨٠ هـ فأدرك فيها أربعين رجلا من معلمى ابن وهب ، يبدو أنه عمر طويلا فقد توفي سنة ٢٤٠ هـ (٢) •

وكان منهم أبو عباس أحمد بن موسى بن مخلد الفافقى ، كان شيخا صالحا فقيها ثقة ضابطا صحيح الكتب حسن التقيد متعبدا ورعا وزاهدا متواضعا ، وكان مهابا ينهى عن الغيبة فى مجلسه ، يميل الى المواقظ والرقائق يختم بها مجلسه اذا فرغ من المسائل والكلام عليها ، رحل الى المشرق وسمع به جلة من العلماء ، فلما عاد الى المغرب سمع منه خلق كثير من أهل القيروان وفتح الله لهم على يديه (٣) •

وكان منهم أبو عمرو بشير بن عمرو المتعبد بالمنستير ، كان من المتعبدين الزهاد المنقطعين الى الله عز وجل ، رحل الى المشرق فجرح ثم دخل الشام وطرسوس فلقى جماعة من الزهاد والصلحاء واتنفع بهم (٤) •

وكان منهم حمدون بن مجاهد الكلبي ، سمع من سحنون بن سعيد ، وكان من أصحاب عيسى بن مسكين وراويته ، وصف بأنه من أهل الفضل والدين والعفة والزهد والنسك والنورع والعبادة ، كان يحسن الفقه

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٣ والديباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩١ •

(٢) الديباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٢ — ٧٤ •

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ •

وابن فرحون الديباغ المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب ، ج ١ ص ١٤٨ •

وعياض : ترتيب المدارك لمعرفة اعيان مذهب مالك ، ج ٤ ص ٣٩٣ •

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٨ — ٤١٩ •

ويتكلم عليه وكان يسكن الرباط ، روى عنه جماعة من أهل مصر ومن أهل المغرب (١) .

على هذا النحو رحل هؤلاء الزهاد وأمثالهم من المغاربة الى المشرق فالتقوا زهاده وصحبوهم وأخذوا عنهم وتعلموا عليهم فلما عادوا الى المغرب أخذوا يثبون في أهله ما تعلموه عن الزهاد المشاركة ويحكون عن صفاتهم وأحوالهم ما يستهويون به أفئدة المغاربة ويستميلونهم الى الزهد فكان لذلك أثره الفعال في نشر الزهد في بلاد المغرب :

٣ - الحروب التي اجتاحت بلاد المغرب في صدر عصرها الاسلامي :

أسهم البربر — سكان المغرب حين الفتح الاسلامي — بدور بارز في فتح بلادهم بأنفسهم مشاركين العرب الفاتحين في المراحل الأخيرة من فتح المغرب . وأقبل البربر على اعتناق الاسلام اقبالا عظيما ايمانا منهم بصحة عقيدته وسمو مبادئه وآملا في المساواة السياسية مع العرب الفاتحين تحقيقا للمبدأ الاسلامي الهام في المساواة بين كافة المسلمين من عرب وعجم غير أن العصر الأموي الذي شهد اتمام فتح بلاد المغرب كان عصر النفوذ العربي الذي حال بين البربر وبين ما يطمحون اليه من مساواة ومشاركة في السلطة فاندفع البربر في حماس وغيط لمناوئة السلطة العربية واستجابوا لكل دعاة الثورة على الحكم الأموي من خوارج وعلويين فنشبت المعارك في بلاد المغرب بين العرب والبربر ثم نشبت بين العرب أنفسهم من قيسية وكلبية فتلظى المغرب بنار فتنة متأججة ما أن تخمد حيناً حتى تندلع حيناً آخر .

لا ريب أن تلك الحروب التي أفرزتها الفتنة المغربية قد آلمت نفوس كثير من أهل المغرب سواء آكانوا من العرب أو البربر وهياتهم الى النزوع الى الزهد والتأثر بالنزعة الزهدية التي كانت قد بدأت في المشرق ثم مدت ذراعها الى بلاد المغرب مع القادمين اليها من الزهاد المغاربة ممن رحلوا الى المشرق وتأثروا بزهاده .

(١) عياض : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٧ .

٤ - غلبة المذهب المالكي على الزهاد المغاربة :

على الرغم من أن نزعة الزهد كانت قد سبقت المذهب المالكي في اندخول الى بلاد المغرب فقد أصبح لموقف المالكية من الزهد تأثيره على تلك النزعة ومدى اقبال المغاربة عليها خاصة بعد ذبوع المذهب المالكي في المغرب . ويبدو أن موقف المالكية المغاربة من الزهد كان مشجعاً على أقبال أهل المغرب على نزعة الزهد وميلهم اليها . فعلى الرغم من أن مالك ابن أنس لا يعد من الزهاد ، فإن المذهب المالكي لم يلفظ الزهد ولم يذمه ، وكانت أغلبية زهاد المغرب يجمعون بين المالكية والزهد في آن واحد ، فعلى سبيل المثال كان على بن زياد التونسي الذي يعد أول من أدخل موطأ مالك الى بلاد المغرب مالكياً زاهداً كان له كتاب في الزهد سمعه منه البهلول بن راشد فكان يسمعه سحنون بن سعيد وأقرانه من البهلول (١) . وكان البهلول بن راشد مالكياً وزاهداً ، وكان عبد الملك ابن أبي كريمة مالكياً وزاهداً ، وكان عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد المستجاب مالكياً سمع من سحنون بن سعيد ومن أسد بن الفرات وطلب العلم وعنى به (٢) . وكان يحيى بن عمر مالكياً وزاهداً يلبس جبة من صوف (٣) . وكان غير هؤلاء كثيرون ممن جمعوا بين المالكية والزهد حتى كان الزهاد المرابطة في المنستير كلهم من المالكية أحياناً فقد روى أن أمينا لسليمان بن عمران القاضي الجفني خرج ليرابط بالمنستير فصلى بهم امامهم فسلم تسليمه واحدة ثم وثب فقام فقال هذا الأمين : ماله ، أملدوغ هو ! فقالوا له : ماله ما ذكرت وانما هذا مذهبه ، فأراد الأمين أن يجعل الامام يسلم تسليمين فلم يساعده على ذلك أهل المنستير وأغلظوا له في ذلك اتباعاً منهم لمذهب مالك (٤) .

ولم يكن أهل المذاهب الأخرى في المغرب كالأحناف وغيرهم على مبعدة من الزهد اذ كان منهم أيضاً من ينزع الى الزهد لكن موقف المالكية

-
- (١) أبو العرب : طبقات علماء افريقية ص ١١٥ والمالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٤ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢١ ومياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٩٣ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩٠ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٥٣ .

من الزهد كان هو الموقف المؤثر لغلبة المذهب المالكي على بلاد المغرب وشدة تأثير المالكية على أهل المغرب سواء لمناسبة مذهبهم للعقلية المغربية أو لابتعاد المالكية عن الحكام وقربهم من المحكومين فضلا عن أن المالكية المغربية توفر لها عدد من الشيوخ كانوا أعلى كعبا وأبعد صيتا من غيرهم .

٥ - حركة الزهاد في المجتمع المغربي وتمكنهم من قلوب الامامة :

لم يكن الزهد نزعة سلبية في المجتمع المغربي وانما كانت حركة الزهاد في الحياة المغربية ايجابية وفعالة ومؤثرة في كثير من جوانبها فكان منهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومنهم من يتصدى لمظالم الحكام محاولا دفعها عن الناس ، ومنهم من كان كثير السياحة والأسفار ينتقل من بلد لآخر حاملا معه زهدة وعلمه . وكان منهم من يحرس في المحارس والربط وغير ذلك من حركة ايجابية جعلت المغاربة يميلون الى الزهد والزهاد . وبالإمكان تتبع حركة الزهاد الايجابية في بعض الاتجاهات منها : -

(١) أسفار الزهاد وسياحاتهم :

كان كثير من الزهاد ينتهجون السفر والسياحة سبيلا لهم أعراضا عن الدنيا وخروجا عن الأملاك أو للحج وطلب العلم أو سعيها للقاء أعلام الزهاد في أرجاء العالم الاسلامي للأخذ عنهم وللتبرك بهم . ولم تكن تلك الأسفار تعزلهم عن الناس وانما كانت تزيدهم قربا منهم واختلاطا بهم فقد كان الناس يقصدونهم في كل بلد ينزلونه للتعلم عليهم أو للتبرك بهم وكان لذلك - بلاريب - أثره في نشر الزهد في بلاد المغرب لاسيما وأن أسفار الزهاد لم تكن كلها الى خارج المغرب وانما كان بعضها داخليا في بلاد المغرب نفسها .

رحلات الزهاد الداخلية :

كان الزهاد يقومون برحلات داخلية في اطار بلاد المغرب نفسها ينتقلون فيها من مدينة لأخرى ، وكانوا في نزولهم بالمدن المغربية المختلفة يعلمون أهلها ويثبون فيهم الزهد ويستميلونهم اليه ، من ذلك رحلة أبي عبد الله السوسي من السوس الأقصى الى افريقية ونزوله القيروان

وسكناه اياها مدة تعلم عليه فيها عدد من أهلها وصحبه فيها البهلول ابن راشد قبل أن يتوجه منها تلقاء المشرق (١) . وكان اسماعيل بن رباح الجزري من جزيرة شريك معروفا فيها مهيبا لكنه رحل الى القيروان وسكن بها (٢) وكان عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد يتنقل دوما بين قصر زياد والمنستير (٣) وكان أبو الأحوص أحمد بن عبد الله من المغرب الأقصى لكنه سكن سوسة واستوطنها وكان الناس يقدون اليه للأخذ عنه والتبرك به حتى أن ابراهيم بن أحمد الأمير الأغلب كان يزوره ويجله وأصلح سقاية سوسة استجابة لطلبه (٤) . وكان أبو عثمان سعيد ابن اسحاق الكلبي ساكنا بقصر الطوب يقيم به شهورا ثم يقدم الى القيروان فيقيم بها شهورا فيأتى اليه الناس ويسمعون منه (٥) . وكان أبو سعيد لقمان بن يوسف الغساني يقيم بالقيروان ثم سكن صقلية مدة ثم قفل منها واستوطن تونس الى أن توفي بها (٦) .

على هذا النحو كان هؤلاء وغيرهم كثيرون من الزهاد يجوبون بلاد المغرب ويطوفون بها من بلدة لأخرى يثبون في الناس علمهم وزهدهم مما كان له أثر كبير في نشر الزهد في بلاد المغرب .

رحلات الزهاد الخارجية :

وكان الزهاد المغاربة يرحلون الى المشرق الاسلامي — كما سبق أن أشرنا — واتصلوا في رحلاتهم هذه بالزهاد المشارقة وتلقوا عنهم ونقلوا الى بلاد المغرب حين قفولهم اليها ما سمعوه وتعلموه ، فقد رحل — على سبيل المثال — عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الماعري الى المشرق ولقى سفيان الثوري بمكة فلما عاد الى القيروان لم يزل أهلها يعظمونه لدينه وفضله وزهده حتى توفي (٧) .

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٤ .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٣٠ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨٢ — ٤٨٥ ومياض المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٨٠ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢ والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٥ ومياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠٩ .
(٦) مياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٩٦ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢ — ١٦٠ والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٠ .

وكان عمر بن يزيد بن مسروق الزاهد من عباد افريقية رحل الى المشرق وعاد الى افريقية يروي عن عبد الله بن دينار مولى عبد الله ابن عمر (١) * ورحل محمد بن مسروق الزاهد وكان ممن لقيه في رحلته أبا شريح المتعبد الاسكندراني حين نزوله الاسكندرية (٢) كما رحل أبو خلف مطروح بن قيس الخياط الى المشرق وسمع هناك من الفضيل ابن عياض (٣) * وخرج غير هؤلاء كثيرون في رحلة أو أكثر الى المشرق واتصلوا بزهاده وأخذوا عنهم وعادوا ينشرون ما تعلموه في بلاد المغرب مما كان له أثر في انتشار الزهد في بلاد المغرب *

(ب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي لمظالم الحكام :

كان لكثير من الزهاد في بلاد المغرب جاه كبير سيما وقد كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يخشون في ذلك إلا الله عز وجل ، ولم يقتصر أمرهم بالمعروف ونهيمهم عن المنكر على العامة وحدهم وإنما امتد الى الخاصة بما فيهم الحكام وذوى السلطان * فالبهلول بن راشد لم يسعه السكوت على ما عزم عليه محمد بن مقاتل العكي من ارسال نحاس وحديد وسلاح الى طاغية الروم ملاطمة منه اياه وهو عدو الاسلام فنهى البهلول بن راشد محمد بن مقاتل العكي عما عزم عليه ووعظه وألح في ذلك ، وعلى الرغم من أن العكي حنق على البهلول وأمر بحبسه وضربه إلا أن ذلك كان له كبير الأثر في نفوس الناس حتى أنهم تحاشدوا وألقوا بأجسادهم على البهلول ليمنعوا الشياطين من الوصول اليه وضع الناس لذلك في داخل افريقية وخارجها (٤) * وقدم حفص بن عمر الجزيري من جزيرة شريك الى أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب حينما أثقل على الناس وقرض عليهم عليهم من الضرائب ما ضجوا منه ، وصحب حفص بن عمر الجزيري في قدومه جماعة من عباد وصلحاء جزيرة شريك

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٤ والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٨ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠٨ والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٠ .

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٣ والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

فوعظ أبا العباس وطلب منه أن يخفف عن الناس ويسقط عنهم ما ثقل عليهم من الضرائب فامتنع أبو العباس عن اسقاطها فدعا عليه حفص ابن عمر الجزيري ومن معه من عباد جزيرة شريك ويبدو أن الله استجاب لدعائهم فلم يلبث أبو العباس الا خمسة أيام ثم خرجت له قرحة عظيمة تحت أذنه مات منها بعد يومين فقط (١) . وكان اسماعيل بن رباح الجزري معظما لأمر الله عز وجل لا يكاد يرى منكرا الا غيره ولا يهاب في ذلك أحدا من الناس ، من ذلك نهيه الفضل بن أبي العنبر والى جزيرة شريك عن وضع ثقله في أحد مساجد الحصون بها (٢) وأمر أبو الأحوص أحمد بن عبد الله المتعبد بسوسة ابراهيم بن أحمد الأغلبى بتوسيع مسجد سوسة واصلاح سقايتها واخراج المحبوسين (٣) ونهى أبو عبد الله محمد بن أبى حميد المتعبد بسوسة ابراهيم بن أحمد الأغلبى عن تخريب سوسة أو هدم سورها أو تعذيب أهلها . وكان ابراهيم بن أحمد الأغلبى قد عزم على ذلك حين بلغه أن أهلها تكلموا فيه بالقبيح وقالوا منه (٤) .

وكان بعض الزهاد لا يكتفون بأمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر وانما كانوا يتصدون لمظالمهم ويدفعونها عن العامة اذا لزم الأمر ، فقد كان أبو خالد عبد الخالق القتاب كثير المعروف قليل الهيبة للملوك (٥) رفض أن يقبل مالا من ابراهيم بن الأغلب مما أحقق الأمير الأغلبى فقال لعبد الخالق : « أفسدكم البربرى - يقصد البهلول بن راشد - والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفى » فرد عبد الخالق على الأمير الأغلبى غاضبا : والله لو أدركته لكنت أهون عليه من هذا الطين الذى يعجن بين يديك » (٦) . وأتى نواتية لابراهيم بن أحمد الأغلبى الى قصر الطوب بسوسة يريدون النزول فيه فمنعوا من ذلك

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ وعياض : المصدر

السابق ، ج ٤ ص ٣٩٠ .

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥ - ٩ والدباغ : المصدر

السابق ، ج ٢ ص ٢٥٠ . وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٤١٦ .

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٤ والدباغ : المصدر

السابق ، ج ٢ ص ٢٨ .

(٦) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

وأغلق باب قصر الطلوب في وجوههم فبلغ ذلك إبراهيم بن أحمد الأمير الأغلبى فأتى الى باب القصر غاضبا يتوعد الذين منعوا عبيده من دخول القصر فتصدى له أبو عثمان سعيد بن اسحاق الكلبي وقال له : يا إبراهيم تركنا لك الدنيا كلها وانزوبنا في هذا الثغر فجئت تؤذينا والله لئن لم تمر لأهلكنك فسضى إبراهيم على وجهه حتى جاز القصر بمسافة عظيمة (١) .

وبعث الأمير محمد بن الأغلب الى أبى الوليد مروان بن شحمة البلوى الذى كان فقيها صالحا ورعا زاهدا فلما وصل الى باب قصره رأى خصيا بيده عود فكسره ، فلما دخل أبو الوليد على الأمير محمد عاتبه الأمير على كسره العود فقال له أبو الوليد : رأيت منكرا فغيرته (٢) .

وهكذا كان الزهاد في المجتمع المغربى يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويتصدون لمظالم الحكام فكان الناس عامتهم وخاصتهم يجلون الزهاد ويوقرونهم مما مكن لهم في النفوس وكان له أكبر الأثر في استماله الناس الى الزهد وانتشاره في بلاد المغرب .

(ج) حلقات العلم ومجالس السماع والذكر :

كان كثير من الزهاد من أهل العلم والفقہ يعلمون الناس أمور دينهم ويفقهونهم فيه ، فقد كان اسماعيل بن عبيد الأنصارى تاجر الله واسماعيل ابن عبيد الله بن أبى المهاجر من الفقهاء التابعين العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية وأسلم على يديهما خلق كثير من البربر (٣) . وكان أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى من جلة المتحدثين (٤) . وكان البهلول بن راشد من الفقهاء يتبعه الكثيرون ويأخذون عنه (٥) .

-
- (١) المالكى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٣) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٦ ، ص ١١٥ والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩١ ، ص ٢٠٣ .
(٤) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢ والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٠ .
(٥) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٠ وما بعدها والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

وكان أبو علي شقران بن علي عالما بالفرائض يحث الناس على عبادة ربهم بالموعظة الحسنة حتى انتفع به جماعة من مريديه (١) * وعن أبي محمد عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد بطلب العلم وحسن كتب كثيرة بخطه بقصر زياد (٢) * وكان يحيى بن عمر الأندلسي فريدا في علمه وورعه وزهده حريصا على أهل العلم يحرض طالبه ويشرفه (٣) *

وكان للعديد من الزهاد العلماء حلقات علم يقصدها الطلاب والناس للأخذ عنهم والتلقى عليهم كحلقة حماس بن مروان (٤) وغيره ، بل كان لبعض منهم مساجد تنسب اليهم يعقدون فيها حلقاتهم ، وكان منهم من يختم دروسه بالمواظظ والرقائق ، بل كان منهم من اختصت مجالسه بالذكر والسماع مثل مسافر بن سنان الواعظ الذي كان الناس يجتمعون اليه للذكر والمواظظ والتفجع به وعلى يده جماعة من الناس (٥) *

ولعل أشهر مجالس السماع والذكر في افريقية حيثذاك تلك التي كانت تعقد في مسجدى السبت والخميس وهما مسجدان كانا يقعان في الدمنه خارج سور القيروان على مقربة من بعضهما البعض *

أما مسجد السبت فقد سمي بذلك الاسم لأنه كانت تعقد فيه كل يوم سبت مجالس الذكر وتلقى فيه الرقائق من أول النهار الى الزوال ، وكان يحضره عدد من الزهاد والعلماء والقراء والحفاظ ، وقد كان هذا المسجد ينسب الى أبى محمد الأنصارى الدمنى الضرير وكان يعرف أيضا بمسجد الدمنة لكنه عرف فيما بعد — من وقت الدباغ — بمسجد العربى نسبة الى رجل كان يدعى محمد العربى وكان يقوم على خدمته (٦) *

وقد أصاب مسجد السبت بعض التغيير عما كان عليه أول أمره سواء في بنيانه أو فيما كان يجرى فيه ، فقد كان أول أمره مبنيا من الطوب

(١) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٣٩ ، والمالكى : المصدر السابق ،

ج ١ ص ٣١٢ والدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٩

(٢) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ ، وعياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٩٣

(٣) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩١

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥١٧

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٩

والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٩٥

ويخيم على مجلسه الوقار التام فلا يقرأ فيه الا القرآن الكريم الذي كانت القلوب تخشع لسماعه خشوعا عظيما حتى أن شابا ممن كانوا يحضرونه خر ميتا حين سمع قارئاً كان يدعى ابن السامة يتلو قول الله تعالى « أفمن يلقى في النار خيرا أم من يأتي آمنا يوم القيامة » . اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » (١) . ثم أعيد بناء مسجد السبت بالحجارة في وقت لاحق وتغيرت أحواله فلم يعد يقتصر في مجلسه على قراءة القرآن الكريم بل أخذ القوالون والمغنون (٢) يقولون فيه أشعارا في الزهد تنسب الى من يدعى أبو معدان ويقولون في المواعظ وأهوال يوم القيامة وصفات أولياء الله تعالى ويركبون عليها أعمالها - أي ألقاها - عن طريق الحزن والخوف . وكان المتعبدون الصالحون اذا سمعوها استراحوا اليها بقلوبهم وانشروحت نفوسهم وانصرفوا وهم خاشعون محزونون فادمون ، وكانت تظهر عليهم آثار ذلك من السبت الى السبت الذي يليه .

كان يحضر مسجد السبت عدد من الزهاد والعلماء والقراء والحفاظ - كما أشرنا آنفا - لكن يبدو أن القاء الأشعار المنعمة وما كان يعقبها من تصايح وآهات بعد أن كان الأمر قاصرا على تلاوة القرآن الكريم جعل البعض يعزفون عن حضور مسجد السبت وينقدون ما يدور فيه حتى أن يحيى بن عمر الأندلسي ألف كتابا في النهي عن حضور مسجد السبت وكان يشتد في انتقاده ويود لو أنه هدم حتى لا يجتمع فيه أحد (٣) غير أن ذلك لم يمنع الكثير من حضور مسجد السبت والافتعال بما يقال فيه من رقائق وأشعار الزهد (٤) .

أما مسجد الخميس فقد بناه أبو اسحاق ابراهيم بن المضاء الزاهد صاحب سحنون بالدمنة أيضا على مقربة من مسجد السبت وكان يجتمع فيه الصلحاء والقراء والزهاد وأهل الخير كل يوم خميس من العصر الى أول الليل وتلقى فيه الأشعار والرقائق على نحو ما كان يجري في

(١) فصلت / آية ٤٠

(٢) المغنون : قوم يعتبرون بذكر الله أي يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها ، سمو بذلك لأنهم يرغبون الناس في الغاية أي الآخرة .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٣ - ١٩٥

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٦٦ والدباغ : المصدر السابق ، ج ١

ص ٣١ .

(م ه - الزهاد والمتصوفة)

مسجد السبت (١) الا أن مسجد السبت كان أكثر شهرة وأقدم عهدا كما كانت تحيي فيه ليلة النصف من شعبان وليلة النصف من رمضان وتعمد فيه حلقات الذكر ، وكان أمراء بنى الأغلب يقصدونه في هاتين الليلتين للتبرك بأبي محمد الأنصاري وبدعائه ويكون فيهما من الصدقات خير كثير .

ويمكن القول ان مجالس الذكر والسماع كانت تستهوى كثيرا من المغاربة تجذبهم اليها فيحضرونها ويتأثرون بما يجرى فيها مما كان له أثر كبير في انتشار نزع الزهد في بلاد المغرب .

(د) الرباط والحرس على الساحل المغربى :

كان الساحل المغربى على طول امتداده عرضة للغارات البحرية المفاجئة التى يشنها عليه أعداء الاسلام على الشاطئ الآخر للبحر المتوسط ، وكان من اللازم أن يراقب المسلمون سواحلهم وأن يحذروا الأخطار التى قد يحلها البحر اليها فاتخذوا من الساحل المغربى ثغرا جعلوا الرباط فيه جهادا في سبيل الله وقرية اليه (٢) وأنشأوا عليه الرباطات والمحارس والقصور (الحصون) واهتموا بسكناها حراسة للمسلمين وسهرا على أمنهم من تلك الغارات المفاجئة .

وإذا كان الرباط في اللغة هو الإقامة في الثغر المعرض للعدو للذود عنه ولجهاد العدو (٣) فإن الكلمة كانت تطلق اصطلاحا على منشأة حربية دينية اختص بها المسلمون دون غيرهم وكانت لها خطة خاصة في بنائها تتكون عناصرها الأساسية من سور حصين وجدران للسكنى ومخازن للأسلحة والمؤن وبرج للمراقبة (٤) .

ولما كانت سواحل افريقية أكثر عرضة للخطر من غيرها من السواحل المغربية ، فقد عجت بالرباطات التى انتشرت على طول امتدادها وكانت سواحل افريقية أسبق الى معرفة الرباطات ثم تلتها في ذلك بقية السواحل المغربية وصار الرباط نظاما عسكريا دينيا له أصوله وقواعده وما لبث

(١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢ .

(٢) حسين مؤنس : مقدمة كتاب رياض النفوس للمالكى ، ص ٢٥ .

(٣) لسان العرب ، مادة رباط .

(٤) جورج مارسيه : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة رباط .

أن عبر الى الأندلس خاصة بعد اغارات النورمان الأولى على الأندلس
في امارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (١) .

كان أول رباطات افريقية انشاء وأكثرها شهرة رباط المنستير الذي
أنشاه هرثة بن أعين أبان ولايته على افريقية والواقع أن بنيان
رباط المنستير كان امتدادا لمثل هذا النوع من الربط التي أنشئت في
خلافة هارون الرشيد في المشرق الاسلامي اذ يشير اليعقوبي الى أن
هارون الرشيد بنى ثغور مثل طرسوس وغيرها وبني دورا للمرابطين فتشبه
به أهله وعماله فبنى قاعدة هرثة بن أعين بثغر أرمينية وبالمنستير وفي
مواضع أخرى (٢) .

ثم انتشرت الربط على طول الساحل الافريقي ، فقد تحمس أولو
الأمر والناس لاقامتها يدفعهم الى ذلك دوافع أمنية ودينية اذ ابتغوا بها
مرضاة الله وثوابه فأقيمت الربط في سوسه وصفاقس وغيرها وحض المسلمون
بعضهم بعضا على سكنى الرباط والحرس فيه جهادا واحتسابا ، وكان
للزهاد والعباد في ذلك الدور الكبير .

انقسمت الربط على الساحل المغربي الى نوعين : أحدهما قامت الدواة
على تشييده والاتفاق عليه والآخر أقامه الأفراد احتسابا ومشاركة مع الدولة
في الجهاد باذن منها وتنسيقا معها (٣) .

واذا استعرضنا سلسلة الربط التي أقيمت على امتداد الساحل المغربي
من شرقه الى غربه وجدنا عدة مناطق رئيسية كان يتجمع في كل منها عدد
من الربط المتجاورة أو المتقاربة مثلما كان في طرابلس وفي صفاقس وسوسه
والمنستير وتلمسان ، وكانت تتناثر بين تلك المناطق الرئيسية رباطات متفرقة
تملا الفراغ بين المناطق الرئيسية وتسد الثغرات بينها فشكلت الربط على
طول الساحل المغربي حزاما قويا يصعب اختراقه والتسلل منه ويقلل
من فرص العدو في المباغتة ويحذر المسلمين من شر الاغارات المفاجئة
ويقينهم خطرها .

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٢) مشاكلة الناس لزمانهم ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣) الدرديري حسن البيلي : الربط في بلاد المغرب ، ص ٣٤ - ٣٥ .

ومن الملاحظ أن كثافة الربط في المناطق الرئيسية كانت تتزايد كلما كانت المنطقة أكثر عرضة للغارات المعادية ، فقد كانت طرابلس كثيرة الربط (١) وكانت قابس حصنا حصينا مسورة بالصخر الجليل (٢) ويحيط بها خندق كبير يجرى اليه الماء اذا خيف من نزول العدو على المدينة فيزيد من حصاتها ومنعتها (٣) . وتتزايد الربط عددا وعدة كلما اتجهنا غربا على طول الساحل الأفريقي ، ففي صفاقس كان يوجد عدد من الربط والمحارس منها محرس بطويه ومحرس حبله ومحرس أبي الغصن ومحرس مقدمان ومحرس اللوزه ومحرس الرياحه ، وكان محرس بطويه أجل رباطات صفاقس وأهمها ، اذ كان به منار شاهق الارتفاع يرقى اليه في مائة وستون درجة (٤) . وعلى مقربة من المهدية كان يوجد رباط قصر جمه الذي نسب اليه العابد الزاهد أبو السرى واصل الجسى ، وهو الرباط الذي أطلق عليه فيما بعد اسم قصر الرباط بالمهدية (٥) .

ويلى ذلك جهة الغرب رباط المنستير ، أقدم محارس افريقية وأبعدها صيتا وأعلاها شأنا ، كان يسكنه على مر الأيام أمة من الناس ويقصده أهل افريقية لوقت من السنة فيقيمون به أياما معلومة (٦) ويبدو أن موسم الرباط فيه كان شهر رمضان (٧) .

كان برباط المنستير عدة محارس أو قصور منها القصر الكبير الذي بناه هرثمة بن أعين وكان له في يوم عاشوراء موسم عظيم يجتمع فيه خلق كثير ، وهو قصر كبير عالى البنيان ، داخله ربض واسع وفي وسط الربض حصن ثان كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض وفي القبله منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة ينزل حولها

(١) حوقل : المصدر السابق ، ص ٧٢ والحميرى ، الروض المعطار، ص ٣٨٩ .

(٢) البكرى : المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٣) الحميرى : المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

(٤) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٠ وابن حوقل : المصدر السابق ص ٧٣ . والحميرى : المصدر السابق ، ص ٣٦٥ .

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣١ .

(٦) ابن حوقل : المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٥ .

(٧) أبو العرب تميم : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

النساء المرباطات تعرف بقباب جامع (١) . ومنها قصر ابن الجعد (٢) وقصر دويد الذي يرجع انشاؤه الى القرن الثالث الهجرى ، يبدو أنه سمي باسم أحد العباد الذين رابطوا فيه والذي تسميه العامة سيدى ذويب ، ولا يزال هذا القصر قائما بأغلب تفاصيله المعمارية وقد تحول الى مدرسة تسمى مدرسة سيدى ذويب (٣) وبالمستير أيضا قصر السيدة نسبة الى السيدة أم ملال عمة المعز بن باديس ويبدو أنها جددت عمارته فقد كانت أصوله المعمارية تعود الى القرن الثالث الهجرى ، بل ان هذه الأصول قد شيدت فوق مسجد كان بناؤه يرجع الى القرن الثانى الهجرى (٤) ، وقد عد البكرى محارس المستير خمسة محارس متقنة البناء معمورة بالصالحين (٥) .

وبين المستير وسوسة كان يوجد رباط يسمى شقائنص - أو خقائنص - به قصر كبير محرس رباط منيع (٦) . ثم يلي ذلك منطقة محارس رئيسية هي رباط سوسة التى كانت تعرف بطرسوس المغرب لكثرة ما بها من محارس وقصور منها قصر الطوب وقصر زياد وقصر ابن حبشى وقصر سهل وقصر طارق (٧) وكان أهم هذه القصور قصر الرباط الذى كان محرسا عظيما داخل سوسة مسور متقن داخله حصن ثان يسمى القصبه بجوفى المدينة (٨) ويبدو أن الأمير زيادة الله بن ابراهيم الاغلبى قد بنى هذا الرباط أو على الأقل زاد فى عمارته سنة ٢٠٦ هـ كما يشير الى ذلك نقش محفور على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار سنة ٨٢١ م كتب فيه أنه أمر به الأمير زيادة الله وتم على يدى مسرور الخادم مولاه سنة ٢٠٦ هـ (٩) .

-
- (١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٦ .
 - (٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٠ .
 - (٣) الدرديرى حسن البيللى : المرجع السابق ص ٢٩ .
 - (٤) نفس المرجع ، ص ٤٠ .
 - (٥) المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ص ٣٦ .
 - (٦) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٧٥ .
 - (٧) حسن حسنى عبد الوهاب : وراقات ، ج ٢ ص ٢٤ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ .
 - (٨) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٩ .
 - (٩) الدرديرى البيللى ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

ثم يلي سوسة عدد من الربط المعروفة ، فعلى مقربة منها في بلدة لظه كان يوجد مقر رباط أمر ببنائه إبراهيم بن أحمد الأغلبى حوالي سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، وقد رباط بهذا القصر جماعة من مشاهير العباد كان منهم أبو هارون الأندلسي (١) ويلي ذلك غربا بين سوسة وتونس رباط يسمى الحمة (٢) وهي غير حمة مطماطة القريبة من قابس والمعدودة من بلاد قسطلية (٣) وعلى مقربة من رباط الحمة المذكور يوجد جبل أدار الذي سكنه قوم من العباد ممن تطلوا عن الدنيا واعتزلوا الناس والتزموا سكنى هذا الجبل يعيشون من نبات الأرض ومن صيد البحر (٤) . ويلي ذلك من جهة المغرب جزيرة شريك وكان بها عدد من الربط منها ذلك الرباط الذي كان يربط به اسماعيل بن رباح الجزيري (٥) وبجذاء جزيرة شريك في البر نحو الجنوب جبل زغوان وهو جبل منيف يستدل به المسافرون أينما توجهوا لارتفاعه الشاهق ، وكان مأوى للعباد والصالحين وخيار المسلمين (٦) .

وعلى امتداد الساحل المغربى من تونس الى سبته كانت توجد سلسلة من الحصون ، فقد كانت تونس نفسها قاعدة للأسطول الاسلامى في بلاد المغرب ورباطا كبيراً يزود عن المسلمين ، تتوافر لها منعة طبيعية وحصانة صناعية فهي في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو ويحيط بها سور حصين يزيد في حصاته خندق يدور حوله ، وكان لها خمسة أبواب (٧) . وعلى مقربة من قرطاجنة كان يوجد رباط قصر الحجامين (٨) يليه غربا رباط قصر أبي الصقر (٩) ويلي ذلك على مسيرة يوم وبعض يوم (١٠) شرقي طبرقة قلاع بنزرت ، وهي حصون يأوى اليها أهل

(١) حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق ص ١٠٠ والدرديري البيلى ، المرجع السابق ص ٤٤ .

(٢) البكرى ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣) الحميرى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٤) البكرى ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٤ .

(٦) البكرى ، المصدر السابق ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٨) البكرى ، المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٩) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٠) يقدرها الإدريسي بسبعين ميلا .

تلك الناحية اذا غزاهم الروم فهي مفزع لهم وغوث وهي رباطات للصالحين (١) وكان مرسى بونه منيعا تخرج منه السفن لتغزو بلاد الروم وجزر سردانية وكورسيكا وماوالاها (٢) وكان بمدينة شرشال ربط يجتمع اليها خلق كثير في كل عام (٣) والى الغرب من مدينة تنس بينها وبين وهران كان يوجد رباط على ضفة البحر عند مرسى مفيلة بنى هاشم (٤) وكان يوجد رباط عبارة عن ثلاث قلاع مسورة على جبل كبير بقرب مدينة أرزاو على مقربة من وهران (٥) ويلى ذلك غربا رباط وادى ماسين الذى كان رباطا حسنا مقصودا له بركة وكرامة عند العباد (٦) . وكان يوجد بساحل تلمسان عدة حصون يربط فيها العباد مثل حصن تالكرمت وحصن مرنية البير وحصن ابن زينى وحصن العروس وحصن الوردانية وحصن هنين وغيرها (٧) وكان الى الغرب من ذلك رباط بمدينة كور ينسب اليها (٨) .

والى الغرب من طنجة ، على ساحل المحيط الأطلنطى كان يوجد عدد من الربط منها رباط كان يوجد عند مرسى باب اليم غربى طنجة (٩) فاذا انحدرنا غربا الى أصيلة وجدنا بها رباطا اتخذته المسلمون هناك بعد تعرض المنطقة لغزو المجوس - الفايكنج - فقدم اليها المسلمون من مختلف الأمصار ليرابطوا فيها وكانت تقام فى هذا الرباط أسواق جامعة ثلاث مرات فى السنة فى أوقات اجتماعهم فيه أولها فى شهر رمضان وثانيها فى العشر الأول من ذى الحجة وثالثها فى يوم عاشوراء (١٠) . وكان مرسى قوز فرضة أغمات على المحيط وفيه كان يوجد رباط يعمره

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٩٠ .

(٩) نفس المصدر ، ص ١٠٥ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

الصالحون (١) . وبسلا كان يوجد رباط يربط فيه المسلمون ويكثر القاصدون اليه حتى أنه ربما يجتمع فيه نحو مائة ألف مرابط ، كان رباطهم فيه على برغواطة (٢) .

كان تخطيط بنيان الرباط عبارة عن سور حصين يحيط بالرباط ويحيطه من الخارج ، وتقام في الداخل حجرات للسكنى ومخازن للأسلحة والمؤن وبرج للمراقبة والاشارة (٣) . ويتكون الرباط أحيانا من قصر (حصن) واحد أو من عدة قصور أو محارس متجاورة أحيانا أخرى ، من هذا النوع الأخير رباط المنستير وسوسة التي كان كل منها يضم عدة محارس متجاورة أو متقاربة .

كانت أبواب القصور (الحصون) تغلق ليلا فلا تفتح حتى شروق الشمس (٤) . وكانت هذه القصور تبنى من أكثر من طابق ، فقصر ابن الجعد بالمنستير - على سبيل المثال والذي أشرف على بنائه الزاهد أبو عبد الله محمد بن عبادة كان مخططا له في الأصل أن يبنى مربعا قياسا في مثله ليكون أكثر منعة وأحكاما ، لكن البنائين الذين قاموا على بنائه أخطأوا التنفيذ فزادوا فيه جنبتين وارتفع البناء الى ثلاثة طوابق لم يكند يتم بناء الطابق الأسفل منها حتى عمر المرابطين من قبل أن تتركب أبوابه وكذلك فعلوا بالطابق الثاني ، أما الطابق الثالث - أو العلوى - فكان عبارة عن أبراج تم بها بنيان القصر وتحصينه (٥) .

ويبدو أن المرابطين كانوا يسكنون القصور في ترتيب ونظام وفقا لمكائنتهم وعلو شأنتهم في الرباط ، فكان كبارهم يسكنون غالبا الأبراج التي تكون عادة في الطابق العلوى من القصر ، إذ كان مكرم المتعبد

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) جورج مارسيه : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة رباط .

(٤) المالكي : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ .

يسكن بالقصر الكبير بالمنستير برجا ظل منسوباً إليه وقتاً طويلاً (١) ولعل سكنى الأبراج العالية لم يكن تشرافاً لكبار المرابطين فحسب وإنما كان أيضاً ثقة في قدرتهم على المراقبة وصبرهم عليها لأنهم الأكثر عبادة وقياماً في الليل بين أهل الحصن ومن ثم كانوا أقدرهم وأكثرهم مثابرة على المراقبة وأحلمهم لعنائها .

لقد كان كثير من الزهاد يربطون في تلك المحارس والقصور يحرسون المسلمين من الغارات المفاجئة التي يشنها أعداء الإسلام على الساحل المغربي . وقد اشتهر عدد من أعلام الزهاد المغاربة بسكنى الربط وانتسبوا إليها ، فمنهم من كان يدعى المنستيري نسبة إلى المنستير مثل أبي عمرو بسير بن عبدوس المنستيري ومنهم من كان يدعى الجيمي نسبة إلى قصر جمة مثل أبي السرى واصل بن عبد الله الجيمي ومنهم من كان يدعى الجزيري نسبة إلى جزيرة شريك مثل اسماعيل بن رياح الجزيري . وكما كانت تلك الربط تكتسب شهرة من عظيم دورها في حماية السواحل المغربية فقد كان بعضها يكتسب أيضاً شهرته من سكنى أعلام الزهاد ومشاهيرهم إياها وكان الناس كثيراً ما يفدون إلى أحد القصور لمشاركة زاهد بعينه في الرباط والحرس على المسلمين صحبة لهذا الزاهد وتبركا به ، فعلى سبيل المثال كانوا يقصدون إلى مشاركة اسماعيل من رياح الجزيري في الحصن الذي يسكنه بجزيرة شريك (٢) وأبو زكريا الهرقلي في حصن هرقل (٣) وأبو الأحوص أحمد بن عبد الله المرابط بسوسة ، وكانت سوسة في وقته لا تعرف شيئاً من المنكر ، لا خمر ولا لهو ولا عزف ، وإنما كان جل أهلها مشغولين بالحرب والحرس على المسلمين (٤) . وكان مكرم يتعبد بالقصر الكبير بالمنستير وظل برجه معروفاً منسوباً إليه من بعده إلى وقت طويل وهو الذي أشار على ابن الجعد بالموضع الذي بنى فيه القصر المسمى باسمه (٥) . وسكن أبو عثمان سعيد بن اسحاق الكلبي بقصر الطوب بسوسة (٦) وربط

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٤ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٧ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢٠ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠ .

أبو السرى واصل المتعبد بقصر تبصد وهو غير أبى السرى واصل الجمى الذى كان يسكن قصر حجمة ، وسكن أبو يونس المتعبد مرابطا فى قصر الطوب بسوسة (١) .

لم تقتصر حراسة الزهاد للساحل المغربى على سكنى الربط وانما قام بعضهم بما يسمى « الدور » بمعنى الدوران أو المرور على الحصون تفقدا لها وتحميسا لأهلها وحراسة للساحل المغربى كله بما يمكن أن نسميه « الدوريات الليلية » سدا للشغرات التى يمكن للعدو التسلل منها بين القصور والمحارس مما كان يزيد من أحكام الحراسة على الشواطئ المغربية . وكان ممن قام بهذه الدوريات - على سبيل المثال - أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المسوحى (٢) وسعدون بن أحمد الخولانى (٣) وكان يصحبهما فى القيام بتلك الدوريات عدد لا بأس به من المرابطين الذين يرافقون هؤلاء الأعلام من الزهاد المرابطة تأسيا بهم وتبركا .

كانت معيشة الزهاد المرابطة فى تلك الربط بسيطة جدا ، يلبسون خشن الثياب حتى أن اسماعيل بن رباح الجزيرى كان يلبس تليسا وقف به على حلقة ابن وهب بمصر فلم يلتفت إليه ابن وهب لشدة تواضع مظهره (٤) . ولبس كثير منهم الصوف الخشن مثل أبى دراس المتعبد (٥) ويحيى بن عمر الأندلسى (٦) . ولم تضم مساكن هؤلاء الزهاد المرابطة الا خشن الأثاث فلم يكن بمسكن أبى الأحوص أحمد بن عبد الله شيئا من حصير ولا غيره (٧) . وكان طعامهم خشنا لا يأكلون منه الا أقله ، فعلى سبيل المثال ، لم يكن مع أبى عثمان الجزيرى من طعام ليقدمه الى بشير بن عمرو فى أحد أيام الأعياد الا كسرة خبز يابس لم تكن مخلاته تحتوى على شيء غيرها (٨) . وكان أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم

(١) المالكى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٤

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٤١ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨١ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨٣ .

(٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٢ .

(٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٤ - ٤١٥ .

المسوحى يمكث أياما قد تطول الى سبعة أو أكثر لا يأكل فيها الا البقل مع الزيت ولا يزيد على ذلك الا التمر ودقيق الشعير أحيانا (١) واستهجن عبد الرحيم بن عبد ربه أن يضع المرابطون في طعامهم شيئا من التوابل وأن يطبخوا قدورا من الطعام ، فقد نزل عبد الرحيم يوما في القصر الكبير بالمنستير فسمع في العشى صوت مھاریس سأل عنه فقبل له ان المرابطين يدقون التوابل لقدورهم فاستهجن ذلك قائلا ان ذلك لم يكن حال المنستير قديما بل كان سكانها فيما مضى يكتفون بلبث شئ من الدقيق في الزيت ، ورفض عبد الرحيم أن يبيت ليلته في المنستير استهجانا منه لما صار اليه حال مرابطيها (٢) .

وعلى الرغم من أن قدور الزهاد المرابطة لم يكن يطبخ فيها أغلب الأحيان أكثر من البصل والزيت والكمون على نحو ما نعرفه عن قدر مكرم المتعبد الا أن ذلك كان يعز على البعض منهم أحيانا كثيرة حتى أن رائحة قدر مكرم آذت زاهدا آخر كان يسكن تحته فاشتكى هذا الزاهد لمكرم ما ناله من رائحة قدره فأقسم مكرم ألا يطبخ قدرا ولا يأكلها ما بقى على قيد الحياة (٣) .

وكان بعض الزهاد يداوم الصوم مثل أبى السرى واصل بن عبد الله الجبى الذى كان المرابطون يشفقون عليه من قلة ماأكله فيأتون اليه بعد المغرب بافطاره الذى لم يكن يتعدى القليل من خبز الشعير ومن بقل البرية (٤) .

كانت حياة المرابطين تقوم على النشاط والايجابية لا يشغلهم طعام ولا كساء فقد كانوا يتبلغون منه بالقليل وانما كان جل همهم العبادة والحرس على المسلمين ومراقبة الشواطىء المغربية كيلا تدهمها قطاع (سفن) الروم وغيرهم من أعداء الاسلام وكان قيامهم بتلك المهمة يعلى من قدرهم ومكائنتهم في قلوب المغاربة فيقصدون اليهم لمشاركتهم الحرس والتبرك بهم فحجب ذلك الزهد الى نفوس المغاربة وساعد على انتشاره

(١) الملكى المصدر السابق ج ١ ص ٤١٤ - ١٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢٩ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢٠ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٣٢ .

انتشارا ملحوظا في بلاد المغرب تقديرا للزهاد المرابطة ودورهم الفعال في الحياة المغربية .

نتيجة للعوامل السابقة يمكن القول ان الزهد انتشر في بلاد المغرب انتشارا واسعا بعد أن بدأ ظهوره فيها منذ نهاية القرن الأول الهجري ، اذ قدم الى افريقية من المشرق التابعيان الزاهدان اسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله واسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر وإلى افريقية وكانا ضمن التابعين الفقهاء العشرة الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل افريقية في الدين (١) . وإذا كان اسماعيل ابن عبيد الأنصاري قد توفي سنة ١٠٧ هـ بينما توفي اسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر في سنة ١٢٢ هـ ، فقد عاصرهما حينئذ من الزهاد المغاربة زاهدان كان لهما في افريقية شأن كبيرهما أبو خالد محمد بن أبي عمران التجيبي الذي أقام بتونس حتى توفي سنة ١٢٥ هـ (٢) وأبو خالد عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم المعافري الذي كان أول موكود في افريقية في الاسلام وعاش طويلا حتى توفي سنة ١٦١ هـ (٣) .

وشهد القرنين الثاني والثالث من الهجرة تزايدا في أعداد الزهاد المغاربة ففيهما كان منهم عمر بن يزيد بن مسروق التجيبي الزاهد العابد روى عن عبد الله بن دينار مولى عبد الله بن عمر (رضهما) (٤) وأبو عبد الله محمد بن مسروق الزاهد كان صالحا راغبا عن الدنيا عن غنى ومقدرة (٥) وأبو عبد الله محمد بن أحمد السوسى ، كان متجردا عن الدنيا زاهدا فيها (٦) ومسافر بن سنان الواعظ الزاهد (٧) والبهلول ابن راشد الرعيني الزاهد العابد الذي كان يلقب بعباد المغرب ، توفي

(١) المالكي المصدر السابق ج ١ ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ص ١١٥ - ١١٦ والدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٢ . والدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٠ .

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٤ . والدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٣٢٨ .

(٦) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٩ .

سنة ١٨٣ هـ (١) وأبو علي شقران بن علي استاذ ذى النون المصرى فى الزهد ، توفى سنة ١٨٦ هـ (٢) وعبد الملك بن أبى كريمة الذى سمع بالمشرق من مالك ومن سفيان الثورى وغيرهما ، كان مستجاب الدعوة وله كتاب فى الزهد (٣) . وكان منهم أبو خالد عبد الخالق القتات من المجتهدين فى العبادة ومن أصحاب البهلول بن راشد ، كان راغبا فى الآخرة كثير المعروف قليل الهبة للملوك ولا يقبل عطاياهم فقد أراد الأمير ابراهيم بن الأغلب أن يهبه خمسمائة دينار فأبى عبد الخالق أن يأخذها منه (٤) وكان منهم حفص بن عمر الجزيرى (٥) كان رجلا صالحا زاهدا ورعا ظهرت له اجابات منها دعوته على أبى العباس عبد الله بن ابراهيم ابن الأغلب لما رفض أن يضع عن الناس ما أرهقهم به من مغارم (٦) .

وكان منهم اسماعيل بن رياح الجزيرى ، كان من المجتهدين فى العبادة مغطيا لأمر الله تعالى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لا يكاد يرى منكرا الا غيره ولا يهاب فى ذلك أحدا من الناس (٧) .

وكان منهم عباس بن عبد الله الضرير من أهل الفضل والعبادة ، توفى سنة ٢٣١ هـ (٨) وأبو الحجاج زباح بن ثابت الأزدي المتوفى سنة ٢٣٧ هـ (٩) وأبو محمد عون بن يوسف الخزاعى ، كان رجلا صالحا مأمونا ثقة ، يبيع

-
- (١) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٠ والدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ، ص ١٣٩ والمالكى : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٢ .
(٣) والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٦ .
(٤) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٢٣ والمالكى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٤ .
(٥) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٤٣ والمالكى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٤ .
(٦) والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٧) يدعوة ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ١ ص ٩٥) حفص بن حميد .
(٨) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣١ .
(٩) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٤٧ والمالكى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٧ .
(١٠) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٤ .
(١١) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٥٦ والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢ .

الكتان في حانوته فيضع حبة شعير مع المثقال اذا أعطى ويضعها مع الدراهم التي يأخذ فيعطى بزيادة حبة ويأخذ بأنقص حبة ، أخذ عن ابن وهب المصرى وسمع بالمدينة المنورة في رحلته سنة ١٨٠ هـ توفي نحو سنة ٢٣٩ هـ أو ٢٤٠ هـ وصلى عليه سحنون بن سعيد ودفن بباب نافع (١) .

وكان منهم مروان بن أبى شحمه البلوى ، كان شيخا صالحا ثقة سمع من وكيع بن الجراح وغيره ، لم يكن له سرير ينام عليه وإنما ينام على الطوب استدعاه الأمير محمد بن الأغلب فرأى مروان قبل دخوله على الأمير خصيا بيده عود أو طنبور فكسره فشكاه الخصى الى الأمير فعاتب الأمير مروان فيما صنع فقال له مروان : رأيت ببابك منكرا فغيرته ، كانت وفاته سنة ٢٤٢ هـ (٢) .

وكان منهم أبو سنان زيد بن سنان ، لقي سفيان بن عيينه وسمع من البهلول بن راشد وغيره ، كان متقشفا سمحا توفي سنة ٢٤٤ هـ (٣) وأبو خلف مطروح بن قيس الخياط ، كان فاضلا جليلا مشهورا بالعبادة ، سمع من الفضيل بن عياض وصحب جماعة من العلماء والمتعبدين (٤) . وأبو عبد الله حمدون بن عبد الله العسال من أهل الفضل والدين والاجتهاد في العبادة (٥) .

وكان منهم أبو محمد عبد الرحمن بن عبد ربه الربيعي الزاهد المستجاب ، سكن قصر زياد وهو الذى أشرف على بنائه واصله سنة ٢١٢ هـ وأفق في ذلك اثني عشر ألف دينار ستة من ماله وستة من اخوانه . وكان زهد عبد الرحيم عن قدرة وغنى فقد كان يملك ضيعة واسعة تضم سبعة عشر ألف شجرة زيتون لكنه مع ذلك كان

(١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٥٥ والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٠ .

(٣) أبو العرب : المصدر السابق ، ص ٨٠ والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠٨ والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٠ .

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٠ .

أزهد أهل زمانه ، لم يتزوج ولم تكن له سرية ، قيل أنه كان يجتمع مع الخضر ، توفي سنة ٢٤٧ هـ (١) .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن عياد السرتي ، يعرف بابن غلة ، كان من أكابر أصحاب سحنون ، غلبت عليه العبادة والتسك توفى سنة ٢٥١ هـ (٢) .

وكان منهم محمد بن إبراهيم بن عبدوس ، كان اماما في الفقه صالحا زاهدا ورعا عابدا ضرب به حماس بن مروان المثل في الزهد والفقه كانت له مع محمد بن سحنون التقدمة بين أصحاب سحنون بعد وفاته وقيل أنه مستجاب الدعوة ، توفي سنة ٢٦٠ هـ (٣) .

وكان منهم عبد المؤمن بن مستنير الجزيري ، كان رجلا صالحا كثير الرباط راويا لرغائبه ويطوف بالأزقة ليحث الناس على الرباط ويحضهم عليه (٤) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم السوحى ، من المجتهدين في العبادة ، كان يمكث أياما طويلا لا يأكل من الطعام الا البقول مع الزيت (٥) .

وكان منهم مكرم المتعبد بالمنستير ، كان قاضيا ورعا سكن مرابطا بالقصر الكبير وظل برجه فيه معروفا لوقت طويل وبه دفن على

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢١ وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٣ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٨ وعياض : المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٥ .

(٣) الخثني طبقات علماء إفريقية ص ١٣٣ والمالكي : المصدر السابق ج ١ ص ٤٦٠ . والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٧ وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٢٢ . وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٤ .

(٤) أبو العرب : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٤ .

ساحل البحر ، كان كثير الحرس على المسلمين وهو الذى أشار على ابن الجعد بالموضع الذى بنى فيه حصنه (١) .

وكان منهم أبو الحسن بن دارس المتعبد ، كان فاضلا مجتهدا ورعا متقللا من الدنيا (٢) .

وكان منهم عيسى بن مسكين كان من أهل الفقه والورع ، وكان مهيبا وقورا ثقة مأمونا صالحا ذا سمت وخشوع طويل الصمت رقيق القلب غزير الدمعة كثير الاشفاق ، كان محله من الزهد والورع على حالة يقصر عنها وصف البليغ فكان فى قضائه يعيش بدقيق يخبزه لنفسه وبقل البادية وكان يرتدى جبة صوف قديمة مرقعة ولم يكن فى بيته غير آيتين أحدهما بطل والأخرى بزيت توفى سنة ٢٧٥ هـ (٣) .

وكان منهم أبو عياش أحمد بن موسى بن مخلد الغافقى يقال له عيشون . كان شيخا صالحا ثقة فقيها عالما ثبتا زاهدا متعبدا ورعا معدودا فى كبار أصحاب سحنون . كان يميل الى الرقائق والمواظع ويختتم مجلسه بذلك ، توفى سنة ٢٧٥ هـ (٤) .

وكان منهم أحمد بن المعتب بن أبى الأزهر ، كان زاهدا شديدا الورع رقيق القلب بلغ من ذلك أنه حضر يوما مسجد السبت فسمع آيات من القرآن استعبر بها وصاح صيحة عالية خر فى أثرها ميتا سنة ٢٧٧ هـ (٥) .

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٨٠ .

(٣) الخشى : المصدر السابق ص ١٤٢ .

وعياض : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٤) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٩٣ .

وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧١ .

(٥) الخشى : المصدر السابق ص ١٣٨ وعياض : المصدر السابق

ج ٤ ص ٣٢٥ وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٧ .

وكان منهم أبو الأحوص أحمد بن عبد الله المتعبد المرابط بسوسة .
كان من أهل الزهد والورع كثير العمل والاجتهاد ، كان ممن يأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر ولا يهاب في ذلك أحدا من الناس حتى السلطان . كتب
إلى الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى — حين أكثر من الجور والقتل —
يعظه ويزجره ويحثه على التوبة ويتوعده عذاب الله وكان الأمير إبراهيم
نفسه يجلس أبا الأحوص ويزوره تبركا به فاذا وجده يطحن قوته بيده
جلس على التراب واذا وجده لا يطحن جلس على المطحنة . لأن أبا الأحوص
لم يكن لديه حصير ولا غيره ، توفي سنة ٢٨٤ هـ (١) .

وكان منهم أحمد بن وازن الصواف كان من الفضلاء المتقدمين
والعباد المجتهدين ، وكان يسمى جوهرة أصحاب سخنون وقيل أنه
مستجاب الدعوة ، توفي ٢٨٢ هـ (٢) .

وكان منهم يحيى بن عمر الأندلسى ، أصله من جيان وسكن القيروان
ثم استوطن سوسة حتى توفي بها . كان إماما في الفقه والعلم ، له كتب
في الأحمية والحصون وكانت له منزلة شريفة عند الخاصة والعامة .
كان من أهل الصيام والقيام مشهود له بالعلم والورع والزهد وقيل
أنه مستجاب الدعوة (٣) .

وكان منهم بكار المتعبد بقصر الطوب ، كان من المحزونين الخائفين ،
توفي سنة ٢٩٤ هـ (٤) . وأبو زكريا يحيى بن عون بن يوسف الخزاعى ،
الزاهد كآبيه عون ، كان من أهل العلم والفقه ، توفي سنة ٢٩٨ هـ (٥) .
وأبو عثمان سعيد بن اسحاق الكلبي يقصر الطوب ، كان ثقة متعبدا
سريع الدفعة كثير الصلاة ، توفي سنة ٢٩٤ هـ (٦) .

-
- (١) الخشنى : المصدر السابق ص ١٣٦ وابن عذارى : المصدر السابق
ج ١ ص ١٣٠ . والمالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨٤ وعياض :
المصدر السابق ج ٤ ص ٣٩٠ .
- (٢) الخشنى : المصدر السابق ص ١٥٢ وعياض : المصدر السابق
ج ٤ ص ٣٩٥ وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٩ .
- (٣) الخشنى : المصدر السابق ص ١٣٤ والمالكى : المصدر السابق
ج ٢ ص ٤٩ وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢٤ .
- (٤) المالكى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥
- (٥) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٤٩ وعياض : المصدر
السابق ج ٤ ص ٢٩٥ .
- (٦) الدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٥ والمالكى : المصدر
السابق ج ٢ ص ١٧ وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠٩
(م ٦ — الزهاد والمتصوفة)

وشهد القرن الرابع الهجرى تزايداً في أعداد الزهاد ببلاد المغرب فكان منهم أبو عبد الله محمد بن عبادة السوسى ، كان من الصالحين ، سمع من هشام بن عمار وغيره ، كان هو القيم على بناء قصر ابن الجعد ومتولى الاتفاق عليه ، توفى سنة ٣٠٣ هـ (١) وأبو يونس المتعبد بقصر الطوب ، كان صالحاً فاضلاً متعبداً مستجاباً قليل الهيبة للسلطان يميل الى القراءة في كتب الرقائق ، توفى سنة ٣٠٤ هـ (٢) . ويونس ابن أبى النجم المؤدب الأطرابلسى المتعبد ، كان مشهوراً بالاجابة (٣) وسعيد الصبرى المتعبد ، كان من أهل الفضل والعبادة مشهور بالاجابة وكان الناس يأتون اليه من كل أفق يدعو لهم ويجاب دعاء (٤) .

وابراهيم الدمنى المتعبد، بنى مسجد الميس بالدمنة فكان الناس يجتمعون اليه — على غرار مسجد السبت — للذكر والدعاء ، كان مشهوراً بالفضل والعبادة والتسك والاجابة ، توفى سنة ٣٠٥ هـ (٥) وأبو سعيد محمد ابن محمد بن سحنون ، غلبت عليه الزهادة والعبادة ، توفى سنة ٣٠٦ هـ (٦) . وكان منهم أبو عبد الله محمد بن زرقون بن أبى مريم المعروف بالطيارة ، كان اماماً وخطيباً بجامع القيروان ، سمع من سحنون وابنه وغيرهما ، واشتهر بالعلم والفضل والزهد ، توفى سنة ٣٠٧ هـ (٧) . وكان منهم منيب الملقب بعروس المؤمن ، كان صالحاً متعبداً يؤذن بمسجد أبى عياش الفقيه صاحب سحنون ، قتله الشيعة لأنه لم يقل فى أذانه حى على خير العمل (٨) .

وكان منهم أبو محمد سعيد بن حكمون ، كان شيخاً فاضلاً ديناً عاقلاً زاهداً تغلب عليه العبادة وسكنى الرباط توفى سنة ٣٠٨ هـ (٩) . وكان منهم أبو عبد الله محمد بن قطانية المتعبد بقصر الطوب ، كان

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٦ .
 (٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٢٣ .
 (٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٣ .
 (٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٤ .
 (٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٧ .
 (٦) الخشنى : المصدر السابق ص ١١٦ وابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ١٨١ .
 (٧) الدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٤ وعياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٩٥ .
 (٨) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٢ .
 (٩) الخشنى : المصدر السابق ص ١٦٥ وابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥ .

مشهوراً بالعبادة والخير والاجتهاد ، فيل انه كان يجتمع مع الخضر ، توفي سنة ٣١١ هـ (١) .

وكان منهم أبو زيد عبد الرحمن القيسي ، توفي سنة ٣١١ هـ (٢) وأبو محمد عبد الله التاهرتي ، كان فاضلاً عابداً يشير الى المحبة والشوق ، سكن سوسة محتسباً للحرس بها على المسلمين توفي سنة ٣١٣ هـ (٣) . وأبو سواده بن الفراء المتعبد بالمنستير ، كان من الفضلاء من أهل العبادة والتبذل والصيام والقيام رقيق القلب غزير الدمعة طويل الحزن ، كان اذا قرأ القرآن يرتله ويبكى وينتحب فيبكي جميع من يسمعه ، توفي بالقيروان وحضر وفاته خلق عظيم من أهلها لم يشهد مثله حينذاك سنة ٣١٤ هـ (٤) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله الفخار ، من العلماء المتعبدين ، كانت له ختمه للقرآن في كل ليلة أصله من سرت وسكن قصر الطوب كان من الكدادين ممن يحيى الليل بطوله ويشد اللقائف على ساقه في أول الليل كأنه خارج الى سفر ليقوى بذلك على قيام الليل . كان يخرج الى المنستير في شهر رمضان ، توفي سنة ٣١٦ هـ (٥) .

وكان منهم حمدون بن مجاهد الكلبي المتعبد ، توفي سنة ٣١٩ هـ (٦) ولقمان بن يوسف الغساني ، سكن صقلية مدة ثم استوطن تونس سمع بأفريقية ومصر وكان محسناً للقراءة بقراءة نافع ، كان من أهل العبادة والصيام والقيام والتقشف والتواضع فقيهاً في مذهب مالك ، مكث أربعة عشر سنة يدرس المدونة ويكتبها حتى خرج له خراج في جسمه من دس اللوح كان سبب موته سنة ٣١٩ هـ (٧) . وأبو جعفر أحمد بن سعدون الأريسي المتعبد بسوسة يقال له ابن السرداني لأنه غزا سردانية ، كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً ثقة ذا سمع حسن ووقار وورع قال عنه ابن أبي

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٦ والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥٩ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٢ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٨٧ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٤٧ .

(٧) الخشنى : المصدر السابق ص ١٧١ .

وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٩٦ .

الأزهر : ما رأيت في المتعبدين مثله ، كان من الزهاد المتعبدين المستجابين ،
توفي سنة ٣٣٣ هـ (١) . وأبو الفضل يوسف بن مسرور ، كان كثير الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر صالحا فاضلا ألف في الأحمية ، توفي سنة
٣٢٦ هـ ودفن بالقصر الجديد (٢) وأبو عثمان سعدون بن أحمد الخولاني
المتعبد بالمنستير كان فاضلا ذا أوصاف جميلة وكان شيخ الحصون في
وقته يقوم بالدور على الحصون ، توفي سنة ٣٢٦ هـ ودفن قبلى القصر
الكبير (٣) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن سهلون المتعبد بقصر صقبارية ينسب
الى قرية ابن سهلون من نواحي صفاقس ، كان ذا أوصاف جميلة يجله
الزهاد والعباد كأبي اسحاق الجبنياني وأبي اسحاق السبائي وغيرهما ،
توفي سنة ٣٢٧ هـ بقصر صقبارية ودفن به (٤) . وأبو عبد الله محمد
ابن العباس بن الوليد الذهلي المعروف بدعدع ، كان عالما فقيها بمذهب
مالك ، كان شديد البغض للشيعة ويطعن على مذهبهم كثير السب لهم
وضربه في ذلك القاضي النفطى توفي سنة ٣٢٩ هـ (٥) .

وكان منهم يوسف بن عبد الله القفصى ، كان من أعلم أهل زمانه
وأفقههم ، زهد في كل ما يتنافس فيه الناس من الدنيا وأسبابها ، توفي
سنة ٣٣٢ هـ (٦) ، وأبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن
اللباد ، كان عالما باختلاف أهل المدينة واجتماعهم مهيا موصوفا بالدين
والورع والزهد ، جرت عليه محنة على يد قاضي الشيعة ابن أبي المنهال ،
توفي سنة ٣٣٣ هـ (٧) .

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٧ .
وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٢٦ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٤ .
وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٤٣ .
(٣) الخشنى : المصدر السابق ص ١٦٦ والمالكي : المصدر السابق
ج ٢ ص ٢٥١ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦١ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٦٥ وعياض : المصدر السابق ج ٣
ص ٣٤٥ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٨ .
وعياض : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٦ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٦ وعياض : المصدر
السابق ج ٣ ص ٣٠٤ وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩٩ .

وكان منهم أبو القاسم عبد الوهاب بن نصير المتعبد ، كان ممن علم وعمل ، له ملاحه في العباد وحلاوة في النساك كثير الرباط والسياسة قيل أنه مجاب الدعوة • توفي سنة ٣٣٠ هـ ودفن بباب سلم (١) •

وكان منهم أبو محمد الاوساني المتعبد بالمنستير ، كان مشهورا بالعبادة ومن البكائين توفي سنة ٣٣٥ هـ (٢) ، وأبو ابراهيم بن العربي المتعبد المذكور بالخير والدين والحقائق ، من أجلاء عباد جزيرة شريك كان عباد الجزيرة يحيون أن يصحبوه في التوجه الى الحصون للرباط • توفي سنة ٣٣٥ هـ (٣) •

وكان منهم أو ميسرة أحمد بن نزار من الفقهاء العباد المتبتلين الخائفين الورعين ، كانت له ختمه كل ليلة في مجراه ، أصابه العمى في آخر عمره فلم يعرف بذلك أحد الا يوم اجتمع شيوخ افريقية للخروج مع أبي يزيد مخلد بن كيداد على العبيدين ، قيل انه كان مستجاب الدعوة ، توفي سنة ٣٣٧ هـ (٤) • وأبو رزين الاسود الجمونسي المتعبد الساكن بجمونس من أهل الاجتهاد والطاعة ، صاحب أبا ميسره أحمد بن نزار وكانت بينهما أخوة ، ظهرت له براهين وكرامات ، توفي سنة ٣٣٧ هـ (٥) • وكان منهم أبو الحسن علي بن نصر السوسي ، كان شيخا صالحا فاضلا ثقة ورعا زاهدا فقيها صادقا في الحق لايهاب سلطانا كثير الاجتهاد في العبادة يقوم الليل ويصوم النهار كثير التلاوة والخشوع والتواضع • كان زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة • وكان يلبس جبة صوف فاذا اتسخ صدرها رده الى ظهره ويجعل على صدره مرقعة • توفي سنة ٣٤١ هـ فخرج الناس من القيروان وغيرها الى جنازته بسوسه (٦) •

وكان منهم أبو علي المكفوف المزاهد المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٧) وأبو جعفر أحمد الأطرابلسي المتعبد بالمنستير بقصر دويد توفي سنة

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٦ •
 (٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥١ •
 (٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٢ •
 (٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦١ وعباس : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥٨ •
 (٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٠٩ •
 (٦) عباس : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٦٣ •
 (٧) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٠٦ •

٣٤٧ هـ (١) وبشير المتعبد بالمنستير ، توفي سنة ٣٤٧ هـ (٢) وحسن بن محمد الخولاني الكاشي ، كان رجلا صالحا فاضلا فقيها مشهورا بالعلم متعبدا مجتهدا ورعا خائفا رقيق القلب كثير المعروف ، باع ضياعه كلها وتصدق بها ، سكن المنستير ، توفي سنة ٣٤٧ هـ عن تسع وتسعون سنة ودفن بالمنستير (٣) .

وكان منهم أبو الفضل العباس بن محمد الصواف الغدامسي ، توفي سنة ٣٤٩ هـ (٤) وأبو بكر عطية بن محمد بن رهبون الجماجري المتعبد توفي سنة ٣٥١ هـ (٥) وأبو العباس عبد الله بن أحمد المعروف بالاياني كان عالم افريقية في وقته غير مدافع ، من أهل الصيانة والانقباض ، كان غذاؤه نصف حجلة تترد له في نصف خبزه ، متحفظا في طعامه كثير الحمية ، متواضعا كثير التواضع يلبس التليس ، توفي سنة ٣٥٢ هـ (٦) .

وكان منهم أبو سعيد خلفون النوفلي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٧) ومحمد بن نظيف البزاز الافريقي المتوفى سنة ٣٥٥ هـ (٨) وأبو العباس تميم بن أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم ، كان من أهل الورع والانقباض والاجتهاد ، صالحا فاضلا ناسكا زاهدا ، أغلب أقواله الورع والسخاء والمروءة أجمع الناس على فضله قال عنه أكثر من واحد أنه كان كوالده خيرا فاضلا ورعا زاهدا من أهل العلم والصيانة ، دخل الأندلس واستوطن قرطبة وكانت وفاته سنة ٣٥٩ هـ (٩) .

وكان منهم أبو الحسن علي بن زكريا بن الخصيب المعروف بابن ذكرون ، طرابلسي ، كان صالحا متعبدا ناسكا ، له في الفقه والفرائض والرقائق مصنفات كثيرة ، كان من أهل السياحة ، صحب أبا علي بن الكاتب الزاهد المصري وجماعة من النساك وروى عنه كثيرون منهم أبو الحسن

- (١) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٣
- (٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٧ .
- (٣) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣ .
- وعياض : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٦٧ .
- (٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٤٠ .
- (٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٠٩ .
- (٦) عياض : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٤٧ .
- (٧) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦١ .
- (٨) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٠٠ .
- (٩) عياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٣٢ .

القابسي قيل عنه انه من الورعين في مطعمه ومشربه وملبسه ومكسبه
ولفظه ، توفي سنة ٣٧٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو بكر مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي من أهل
العلم والعبادة والزهد التام سكن قصر زياد ، رحل اليه الناس من الأقطار .
كان من النواحين يمثلي من دموعه موضع سجوده حتى تجرى على
الأرض ، توفي سنة ٣٩٣ هـ (٢) . وأبو جعفر أحمد بن خلف المسيلي يعرف
بالخياط ، كان عالما ورعا زاهدا فاضلا ، دخل الأندلس وسكن الثغر أعواما
كثيرة وكان منسوبا إلى البأس والنجدة ، توفي بقرطبة سنة ٣٩٣ هـ (٣) .

وكان منهم أحمد بن حبيب ، من صالحى الأمة وعبادها وزهادها ،
كان تاجرا فترك التجارة لشيء بدا من شريك له وخرج إلى الأندلس
غازيا فذكر هناك وسكن الثغر مرابطا حتى توفي قبيل سنة ٤٠٠ هـ (٤) .

ولم يخل القرن الخامس الهجرى من الزهاد على الرغم من ميل كثير
من المغاربة إلى التصوف . ومع أنه يصعب وضع حدود فارقة بين الزهاد
والمتصوفة حينئذ حتى أن كثيرا من الكتاب يخلط بينهما فأننا نستطيع
التعرف على بعض الزهاد الذين اقتصوا باسم الزهد علما عليهم في القرن
الخامس الهجرى ، كان من هؤلاء فقيه افريقية في وقته أبو الحسن على
ابن محمد بن خلف المعروف بابن القابسي الذى كان واسع الرواية عالما
بالحديث وعلله ورجاله فقيها أصوليا متكلميا مؤلفا مجيدا ومن الصالحين
المتقين الزاهدين الخائفين ، من ذوى الاجتهاد من العباد الزهاد : وقيل
انه مستجاب الدعوة . لم يكن قابسيا وإنما سمي بذلك لأنه كان له عم
يشد عمامته على طريقة القابسين — كان من أهل القيروان وبها توفي
ودفن بباب تونس سنة ٤٠٣ هـ (٥) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن عباس الأنصارى المعروف بالخواص
من فقهاء افريقية ورواتها ومقدمى فضلائها وزهادها كان من أصحاب
أبى عمران القاسى وأبى محمد بن أبى زيد القيروانى توفي سنة

-
- (١) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣١٠ وعياض : المصدر
السابق ، ج ٤ ص ٥٣٧
(٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٣٣ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦٢٧ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠١ .
(٥) عياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٦١٦ .

٤٢٨ هـ (١) ، وأبو بكر اسماعيل بن عذرة الايدى فقيه فاضل زاهد
قيروانى من أصحاب أبى محمد بن أبى زيد وطبقته . كان الغالب عليه
الزهد والعبادة ، وقد سمع منه الناس . كان يقول بكفر بنى عبيد
خاصة الحاكم بأمر الله (٢) .

وكان منهم أبو محمد محرز بن خلف بن أبى رزق التونسى المعروف
بسيدي محرز العابد من مشاهير صلحاء افريقية ، كان متقشفا فاضلا
زاهدا فى الدنيا مجانباً لأهلها وقيل انه مستجاب الدعوة . حرض أهل
تونس على الثورة ضد باديس أمير افريقية فعزم باديس على عقاب
أهلها وهدمها ففزعوا الى شيخهم محرز العابد فدعا على باديس فأصابته
ذبيحة مات بسببها (٣) .

وكان منهم أبو الحجاج يوسف بن حمود بن خلف بن أبى مسلم
الصدقي قاضى سبته لنيف وعشرين سنة كان فقيها خيرا فاضلا زاهدا
متقشفا متواضعا توفى سنة ٤٢٨ هـ (٤) وأبو عثمان سعيد بن خلف الله
ابن ادريس بن سليمان البصرى المعروف بالرياحى ، سبى . كان منقضا
زاهدا متبتلا صاحب عفاف وتقشف وعزلة يقيم ليلة ونهاره بمسجده
بزقاق الخير (٥) .

وكان منهم أبو القاسم ابن أبى مالك أصله من العرب وكانت سكناه
بجهة قلعة بنى حماد . كان من أهل الفقه والورع والزهادة والمروءة
والخير . أوفده ابن حماد رسولا الى المعز بن باديس فقام بالسفارة على
خير وجه سنة ٤٣٨ هـ (٦) .

وكان منهم محمد بن عبد الصمد ، كان من علماء وقته بالقيروان
غلب عليه الزهد وكان ممن انقطع الله الى وأخذ فى وعظ الناس فكان
يجتمع اليه خلق يسمع منه ، كان يحرض الناس على الشيعة قبل أن
ينقلب عليهم المعز بن باديس توفى فى الفتنة التى نشبت فى القيروان
ضد الشيعة نحو سنة ٤٣٥ هـ (٧) .

(١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧١٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧١٢ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧١٨ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧٢١ .

الضبي : بغية الملتبس ، ج ٤٨٩/١٤٣٩ .

(٥) عياض ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٧٧٩ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧٧٩ .

(٨) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧٧٠ .

وكان منهم أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري آخر
ذوي الشأن من أئمة القيروان ، كان ممن قام على حفظ مذهب مالك
والتسكين له ، وكان زاهدا فاضلا دينا يسبر على الدرس والتحصيل •
لازم مدينة القيروان بعد خرابها على أيدي الهلالية ومات بها بعد أن
طال عمره الى سنة ٤٦٠ هـ (١) •

وكان منهم أبو محمد عبد الله الفحصيلي ، كان من الفضلاء العباد ،
زاهدا متقللا لا يقتات في اليوم والليلة بأكثر من نصف مد يمد النبي
(ص) • كان فقيها لم يطاوله أحد من طبقته في الفقه (١) •

وكان منهم عبد العزيز التونسي الزاهد ، توفي بأغصات سنة ٤٨٦ هـ (٢)
وابن أخيه عبد السلام التونسي ، دفن بالعباد بتلمسان (٣) وأبو الطيب
سعيد بن أحمد بن سعيد الصفاقسي الينوتشي الزاهد ، توفي سنة
٥٠١ هـ (٤) •

-
- (١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٧٧٣ •
 - والقزويني : انموذج الزمان ، ص ١٤١ •
 - (٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٧٧١ •
 - (٣) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣ •
 - (٤) ابن العباس : الاعلام بمن حل بفاس من الاعلام ، ج ٨ ص ٣٩٨ •
 - (٥) عياض : الفنية ، ص ١٢٠ •

المتصوفة في بلاد المغرب حتى نهاية القرن الخامس الهجرى :

تطور الزهد في بلاد المغرب مؤديا الى التصوف على نحو ما حدث في المشرق الاسلامى . وكما أنه لم يكن من اليسير تحديد بداية قاطعة لبداية التصوف في المشرق الاسلامى فان تحديد مثل هذه البداية للتصوف في بلاد المغرب أشد صعوبة وأبعد منالا .

وترجع صعوبة تحديد بداية قاطعة لظهور التصوف في بلاد المغرب الى عدة عوامل ، منها اختلاط المتصوفة بالزهاد اختلاطا شديدا في بلاد المغرب وقت ظهور التصوف فيها ، واستمرار تواجد الزهاد بعد ظهور التصوف وتشابه كثير من أنشطة الزهاد والمتصوفة المغاربة الأوائل وحركتهم في الحياة المغربية جنبا الى جنب مما يجعل من العسير التمييز بينهم في كثير من الأحيان لاسيما وأن المغاربة كانوا يستخدمون مسميات واحدة للدلالة على كل من الزهاد والمتصوفة وقتذاك ، فكانوا يطلقون — على سبيل المثال — مسمى العباد على الفريقين معا ، وينعتونهم بكثير من الصفات المشتركة كالصلاح والورع والاجتهاد في العبادة ، بل ويسبغون الولاية على نفر من الفريقين دون تفرقة مما يجعل من الصعوبة بمكان اتخاذ هذه المرتبة أساسا للتفرقة بين الفريقين في كثير من الأحيان ، فعلى سبيل المثال ، لا نكاد نميز عابدا مثل أبى سنان زيد بن سنان الاسدى هل هو من الزهاد أم المتصوفة فقد وصف بأنه كان ذكيا ثبثا زاهدا ورعا وليا من أولياء الله تعالى (١) ووصف أبو عثمان الجزيرى بأنه كان وليا من أولياء الله تعالى (٢) . ولولا أننا وجدنا لبعض من أسبغت عليهم الولاية أوصافا أخرى تلحقهم بالمتصوفة لكان من العسير جدا التعرف على كثير من متصوفة المغرب ممن أدخلناهم في عداد المتصوفة ولظل أمرهم يختلط علينا ويصعب تصنيفهم بين المتصوفة .

ولم تكن الولاية — التى هى من مراتب الصوفية — هى التى تسبغ وحدها على بعض الزهاد وانما كان يسبغ على البعض منهم مراتب صوفية على الرغم من أنهم لم يكونوا من المتصوفة ، فقد أطلقت الولاية على البهلول بن راشد مع أنه كان زاهدا ولم يكن متصوفا .

وزاد من صعوبة التمييز بين الزهاد والمتصوفة أن المصادر المغربية قلما تشير — في تناولها لتلك الفترة — الى مسمى الصوفى أو تذكر شيئا

(١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٢ .

عن تصوف العباد لا سيما وأن لبس الصوف كان سلوكا مشتركا بين كثير من الزهاد وبين المتصوفة مما يجعل من الصعب الركون الى لبس الصوف في التمييز بين الفريقين الا حينما يشار الى لبس المرقعة التي كان المتصوفة يختصون بها دون الزهاد أو يشار الى جبة الصوف التي قد تكون أدل على الزهاد أكثر من دلالتها على المتصوفة .

لكن الإشارة أحيانا الى التنسك والنسك كانت تفيد في التمييز بين بعض المتصوفة والزهاد ، فقد لوحظ أن المتصوفة كانوا أكثر من وصف بالتنسك بين العباد في بلاد المغرب مما جعلنا نستعين بهذه الصفة أحيانا في التمييز بين المتصوفة والزهاد على الرغم من اطلاق هذا الوصف أحيانا على قلة من الزهاد مثل اسماعيل بن عبيد الأنصاري الذي وصفه سعيد بن المسيب بأنه تنسك نسك العجم .

الا أنه — وعلى الرغم من تلك الصعوبات — يمكن القول ان بداية التصوف في بلاد المغرب الاسلامي لم تتأخر كثيرا عن مثيلتها في المشرق الاسلامي . اذ اتسعت ماهية الزهد في المغرب تدريجيا نتيجة التصاعد الذي ألم بالظروف والعوامل التي نشأ عنها الزهد في تلك النواحي ، ومن ثم تصاعد الزهد بدوره مؤديا الى التصوف في بلاد المغرب على نحو كبير الشبه بما حدث في المشرق الاسلامي . ويلوح هذا التصاعد التدريجي في الأفق المغربي منذ نهاية القرن الثاني الهجري مواكبا مثيله في المشرق الاسلامي . فقد وصف بعض عباد المغرب الذين ينتمون الى القرن الثاني الهجري بأوصاف تجعلهم أقرب الى المتصوفة من الزهاد . فلم يكن البهلول بن راشد وحده هو الذي أسبغت عليه الوتدية احدى مراتب الصوفية وانما أسبغت على أبي حفص عمر بن عبد الله القتال مرتبة « البدلية » اذ وصف بأنه من الأبدال من الأصفياء المجتبيين وأنه مارئي ضاحكا ولا مضطجعا ولا آكلا سمنيا حتى مات وكان يقول « اللهم ان كنت تعلم أنني أعبدك حبا لك وشوقا الى رؤية وجهك الكريم في الجنة فأبعنيه مرة في الجنة واصنع بي ما شئت » (١) . وهذا مذهب في الحب والشوق الى الله قد لا يرقى الى ما كانت تذهب اليه رابعة العدوية في العشق الالهي ولكنه يذكرنا به ويورده الى خاطر . كما أسبغت مرتبة « البدلية » أيضا على أبي يزيد رباح بن يزيد اللخمي الذي وصف

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ ، والدباج : المصدر

السابق ، ج ١ ص ٢٥٢ .

بأنه كان من الابدال صالحا فاضلا زاهدا مستجابا مشهورا بذلك وكان أبو يزيد هذا من طبقة البهلول بن راشد ، بل توفي قبله بنحو عشر سنوات سنة ١٢٧ هـ ، وذاع صيت أبي يزيد حتى خراسان فقد جاء أحد الخراسانيين الى البهلول بن راشد وهو بمكة يسأله عن أبي يزيد ، وظل أهل المغرب بعد وفاته يزورون قبره بباب سلم بالقيروان ويتبركون به (١) .

ووصف أبو عيسى مروان بن عبد الرحمن اليحصبي الملقب بسكر الناظرين بأنه كان ناسكا ، وقد كان أبو عيسى هذا من أوائل العباد المغاربة من نفس طبقة البهلول بن راشد (٢) وكان من نفس الطبقة أبو سليمان ربيع بن عبد الله الملقب بالناسك (٣) وصف بأنه تخطى عن الدنيا وتجرد منها وسلك طريق أهل الصدق في الانقطاع الى الله عز وجل وكان كثير السياحة والتغرب عن الأوطان ، رحل الى المشرق وسكن جبل اللكام بالشام وصحب الابدال (٤) . وكان من نفس الطبقة أبو علي شقران بن علي المتوفى سنة ١٨٦ هـ الذي وصف بأنه كان أوحده زمانه عبادة وزهدا وحسن معاملة لله وكثرة كرامات وهو استاذ ذى النون الاخيمى المصرى المتصوف المشهور . ومن الملاحظ في أقواله التى علمها لذى النون تصاعدا بالزهد واقترابا به من التصوف ، فقد كان من تعاليمه الأولى لذى النون « لا تحب الدنيا وعد الفقر غنى والبلاء من الله عز وجل نعمة والمنع عطاء والوحدة مع الله أنسا والذل عزا والمباهاة خطأ والاياس عقلة والطاعة حرفة والتوكل معاشا والله عز وجل لكل شىء عدة » ثم قال له بعد ذلك « ياذا النون ، من توكل استغنى ومن لم يتق تعب ومن شكر كوفى ومن رضى صوفى والنظر الى الظلمة آفة

-
- (١) أبو العرب : المصدر السابق ، ص ١١٨ ، والمالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٠ .
والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٣ - ٢٦٣ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ، ص ١٥٤ والمالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .
والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٠ .
(٣) يجعله المالكى من السابقين من طبقة البهلول لكن الدباغ يؤخره عن ذلك كثيرا .
(٤) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩١٧ والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٣ .

التحقيق والهجر لهم أول الطريق » (١) وبمثل هذا القول كان شقران أقرب إلى المتصوفة منه إلى الزهاد . وكانت تعاليمه - فيما يبدو - هي الأساس الذي بنى عليه ذو النون فيما بعد مذهبه في الصوف .

وسواء اعتبرنا ذلك بداية للتصوف في بلاد المغرب أو مجرد ارهاصة به فإنه يطالعنا أول تلقيب لمغربى يسكن بلاد المغرب بلقب الصوفى في ترجمة أبى سليمان داود بن يحيى الصوفى المتوفى سنة ٢٤٩ هـ ، ووصف بأنه كان ثقة مأمونا صالحا فقيرا لم تكن له رحلة إلى المشرق (٢) ومن ثم فإن تصوفه لم يكن نتيجة رحلة إلى المشرق اتصل فيها بالمتصوفة المشاركة وأخذ عنهم التصوف ، وإنما كان تصوفه مغربيا محليا نبث على الساحة المغربية ومما عليها بفعل عوامل مغربية محلية ومن ثم يمكن اعتباره بداية حاسمة للتصوف المغربى إذا لم تكن هناك بداية قبل ذلك . لكننا لا نستطيع أن نسهب كثيرا في الحديث عن هذه البداية التى حددناها ، ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى تجاهل المصادر المغربية لتلك البداية وعدم الالتفات إليها أو التنبه لها ، ولولا الترجمة الموجزة جدا - وربما العارضة - لأبى سليمان داود بن يحيى الصوفى والتى ذكرها أبو العرب تميم فى طبقاته لما أمكننا استنتاج شىء عن هذه البداية ولا تحديدها .

وبناء على ما تقدم ، يمكن القول ان بداية ظهور التصوف فى بلاد المغرب الاسلامى كانت فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى وهى بداية لا تتأخر كثيرا عن بداية التصوف فى المشرق الاسلامى ولا تتعدى بضعة عقود معدودة تتناسب زمنيا مع تأخر الفتح الاسلامى لبلاد المغرب عن الفتح الاسلامى فى المشرق خاصة عن العراق التى التى شهدت ظهور أول تلقيب بالصوفى مفردا أو عن مصر التى شهدت أول تلقيب لجماعة بالصوفية . ويمكن القول ان المدة التى استغرقها تصاعد الزهد إلى التصوف فى بلاد المغرب تقرب من مثيلتها فى المشرق الاسلامى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان كل من الزهد والتصوف تيارا عاما تظهر بوادره فى المشرق ثم تهب رياحه على بلاد المغرب ليعم بذلك العام الاسلامى كله .

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، صص ٣١٥ - ٣١٧ .

والدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ، صص ٢٧٩ - ٢٨٤ .

(٢) أبو العرب تميم : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

لقد كان ظهور التصوف في بلاد المغرب نتيجة لازمة للتصاعد الذي حدث للعوامل المسببة للزهد في بلاد المغرب من قبل ، اذ كثرت رحلات العباد المغاربة الى المشرق حتى قل أن يوجد بينهم من لم تكن رحلة ، واذا كان هؤلاء العباد قد اتقوا بالزهاد المشاركة أول الأمر فانهم لم يلبثوا أن اتقوا بالمتصوفة بعد ظهورهم بالمشرق . وأخذوا عنهم مثلاً كانوا يأخذون عن الزهاد من قبل فموسى بن معاوية الصمادحي - على سبيل المثال - كان من العباد المغاربة المتقدمين ، توفي سنة ٢٢٥ هـ ، لقي بالمشرق وكيع بن الجراح والفضيل بن عياض وأبا معاوية الضير ، بل انه رحل الى خراسان في طلب رجل خراساني ذكر له (١) . وكان أبو سليمان ربيع بن عبد الله الناسك القيرواني كثير السياحة والتغرب عن الأوطان ، رحل الى المشرق وسكن جبل اللكام بالشام وصحب الأبدال وتوفي بدمشق (٢) . كما رحل الى المشرق أيضا أبو عبد الله المغربي السوسي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وصف بأنه كان أحد الأوتاد متجردا عن الدنيا زاهدا فيها دائم الأسفار على التجريد والتوكل وصحب في المشرق على بن رزين ولقي أبا عبد الله بن الجلاء الصوفي المشهور بسكة وتلمذ عليه الصوفيان ابراهيم الخواص و ابراهيم بن شيبان وكان الخواص من أقران الجنيد سيد طائفة الصوفية ، وتوفي سنة ٢٩١ هـ (٣) .

ورحل الى المشرق أيضا أبو هارون الأندلسي الذي كان متصوفا مغربيا اتحل مذهب التصوف ولبس مرقعة الصوف ووصفه حماس ابن مروان بأنه من الابدال يتأسي بأهل الصفة (٤) وكان أبو هارون

-
- (١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ والعمرى : مسالك الابصار في ممالك الامصار ، ج ٨ ص ٢٠٥ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ والسلمي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٢
والقشيري : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٣ و ابي نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء ، ج ١ ص ٣٣٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١٧ .

الاندلسي يأتي الى القيروان زائرا من مسكنه في بعض محاريس صفاقس حيث لقيه هناك أبو عقال غلبون المتصوف القيرواني الذي زهد في الدنيا بعد طول لهو فيها ومجون الى أن تاب وتنسك فليحق بأبي هارون الاندلسي وصحبه مدة في ممارس صفاقس. ثم ارتحلا سويا الى المشرق فكانت هناك لأبي عقال رياضات ومحارس مرتديا مرقعة الصوف ثم لزم الحرم المكي الى أن توفي فيه ساجدا خلف مقام ابراهيم سنة ٢٩١ هـ (١) .

وكان ممن رحل الى المشرق أيضا أبو عبد الله محمد بن أبي حميد السوسي المستجاب ، لقي هناك هشام بن عمار وأحمد بن أبي الحواري الذي يضعه السلمي في الطبقة الأولى من الصوفية . وقد وصف ابن أبي حميد السوسي بأنه عظيم القدر كبير الشأن من الأبدال توفي سنة ٢٩٣ هـ (٢) . كما رحل الى المشرق أيضا محمد بن طيب المصري المتعبد بسوسة ، وصحب هناك أبا سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ والذي كان من كبار صوفية بغداد في عصره (٣) ويضعه السلمي في الطبقة الثانية من الصوفية ورحل الى المشرق أيضا أبو السري وأصل المتعبد بقصر تبصة وصحب هناك جماعة من المنقطعين الى الله عز وجل (٤) . كما رحل الى المشرق أيضا أبو القاسم المغربي تلميذ أبي بكر بن سعدان الذي كان من أصحاب الجنيد وأبي الحسين النوري (٥) ، وكان أبو القاسم

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢٧ والدباغ : المصدر السابق ،

ج ٢ ، ص ٢١٥ - ٢٣٠ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥ والدباغ : المصدر السابق

ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥٣ . يبدو أننا أصبح لدينا ثلاثة أشخاص تسمى كل منهم بأبي عبد الله السوسي كان أحدهم ينتسب الى سوسة فيما ينتسب الاخران الى السوس بالغرب الاقصى وكان أحدهم زاهدا يسبق في طبعته البهلول بن راشد بينما كان الاخران من المتصوفة توفي أحدهما سنة ٢٧٩ هـ ، وكان من الاوتاد بينما كان الاخر من الأبدال وتوفي سنة ٢٩١ هـ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ - ١٦ .

(٥) السلمي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١١ .

المغربى هذا مكينا فى التصوف يحفظ المتصوفة أقواله ويستشهدون بها وهو القائل « التصوف استقامة الأحوال مع الحق » (١) .

وكان ممن رحل الى المشرق أبو الخير الأقطع التينيانى الذى سكن التينيات ، قرية تقع قرب المصيصة على ساحل الشام فنسب اليها ، صحب أبا عبد الله بن الجلاء الصوفى المشهور وغيره من مشايخ الصوفية ، وكان أبو الخير التينيانى أوحده زمانه فى طريقة التوكل حتى توفى فى سنة نيف وأربعين وثلثمائة (٢) .

وكان أبو عبد الله محمد بن عبد الله السدرى فقيها ناسكا من العباد الزاهدين المريدين المتوكلين السائحين ، ساح فى البلدان وتغرب عن الأوطان وحج حججا كثيرة وأقام بالمشرق عدة سنين (٣) ، كذلك كان أبو القاسم الحسن بن مفرج مولى مهريّة بنت الأغلب من العباد الزهاد البدلاء المؤثرين المريدين ينتحل التوكل كثير الحج والأسفار والتغريب عن الأوطان (٤) .

وكان ممن رحل الى المشرق أيضا أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى ، كان من قرية من قرى القيروان تدعى كركنت ، صحب عددا من أجلاء مشايخ الصوفية مثل أبى على الكاتب المتوفى سنة نيف وأربعين وثلثمائة

(١) السلمى : المصدر السابق ج ١ ص ٥١١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٧٠ والعمرى : المصدر السابق

ج ٨ ص ٢٧ ويكمل المالكي (وإيض النفوس ، ج ٢ ص ٤٣٩) وفاته فى سنة ٣٤٨ هـ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٦ والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٤) الدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٣ والسلمى : المصدر

السابق ج ١ ص ٧٧ والقشيري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٠

ومثل حبيب المغربي وأبي عمرو الزجاجي والنهر جوري وغيرهم ، وكان أبو عثمان المغربي أوحداً في طريقته ، أقام بالحرم مدة غير قصيرة وكان شيخه ثم رحل إلى نيسابور ومات بها في سنة ٣٧٣ هـ (١) .

هكذا كان العباد المغاربة يلتقون برجال التصوف في المشرق ، وإذا كان بعضهم قد مكث في المشرق وأقام به حتى توفي فإن بعضهم الآخر قد عاد إلى المغرب يحمل علوم الصوفية ويتأسى بطريقهم وينتحل مذهبهم وكانوا بعد عودتهم لا يألون جهداً في نشر ذلك في أهل المغرب مما كان له أثر بارز في انتشار التصوف في بلاد المغرب الإسلامي .

وكان بعض متصوفة المشرق يفسدون من جانبهم إلى بلاد المغرب للتجوال حينا آخر وللإقامة حينا آخر ، فقد جاء إلى إفريقية ذو النون الأحمسي المصري الصوفي الأشهر وأخذ عن شقران (٢) ولعله بث بعض آرائه بين المغاربة . كما قدم من المشرق إلى المغرب أبو عبد الله الصبيحي البصري الذي يضعه السلمي في الطبقة الثالثة من المتصوفة التي ضمنها أبي محمد الجريدي والحلاج ، وقد أخرج أهل البصرة أبا عبد الله الصبيحي من مدينتهم فتوجه إلى بلاد المغرب واستوطن السوس حتى توفي هناك . وكان أبو عبد الله الصبيحي عالماً بعلوم الصوفية وصنف كتباً في التصوف تناولها الصوفية (٣) . ويبدو أن كثيرين غيرهما من المتصوفة قد قدموا إلى بلاد المغرب لكن المصادر المغربية لم تهتم كثيراً بذكر الوافدين من المتصوفة المشاركة إلى بلاد المغرب إذ كان جل اهتمامها ينصب على المغاربة المرتحلين إلى المشرق لكنه من المحتمل قدوم أعداد من المتصوفة المشاركة إلى المغرب وأنهم بثوا في المغاربة كثيراً من آرائهم مما كان له أثره في نشر التصوف في بلاد المغرب .

وكانت للأحوال السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين أثرها في تصعيد نزعة الزهد وصولاً بها إلى التصوف فقد ازداد الاضطراب السياسي نتيجة الفتنة المغربية التي اجتاحت بلاد

(١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٣ .

السلمي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧٧ والقشيري : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٠ والعمرى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) المالكي والمصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٣ - ٣١٥ والدباغ

(المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٣ .

(٣) السلمي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٩ .

(م - ٧ - الزهاد والمتصوفة)

المغرب في عصر الولاة ، وعلى الرغم من هدوء الأحوال نسبيا مع قيام الدويلات المستقلة في فاس وتاهرت وسجلماسة وافريقية الا ان هذه بالاندلاع فيما بينها من حين لآخر ، ليس فقط بسبب خلافاتها المذهبية القائمة بين العلويين في فاس والخوارج بفرعيتهم في تيهرت وسجلماسة وافريقية الأغلبية السنية وانما أيضا لقيام هذه الدويلات في واقع الأمر على عصبية قبلية واعتماد كل منها على قبيلة كبرى أو يضع قبائل متقاربة كانت كل منها تتوق دائما الى أن تملو على سائر القبائل المغربية أو أن تنال منها ثاراتها مما أدى الى تفاقم الاضطراب السياسى والأمنى وأثار خوف كثير من المغاربة ممن استمعوا لآراء المتصوفة وتأثروا بها فلاذوا بالتصوف ليجدوا فيه الطمأنينة والنجاة من ويلات هذه القلاقل التى تهددهم دائما .

ولم يقتصر التنافس بين دويلات المغرب المستقلة على المجال السياسى وانما كان بينها نوع من التنافس الحضارى لم يلبث أن أدى الى انغماس حواضر هذه الدويلات — خاصة الأغالية — فى نوع من الترف والبذخ خاصة بين أفراد الأسرات الحاكمة فى تلك الدويلات ، وكان لذلك الترف والبذخ رد فعل ساخط لدى بعض المغاربة الذين آثروا الزهد أو مالوا الى التصوف كنوع من الأعراض عن الدنيا وعرضها الزائل مثلما فعل أبو عقاب غلبون الذى كان من أبناء البيت الأغلبى ونشأ فى رفاهية عظيمة وكان شديد العبث والمجون حتى قيل انه كان يحضر حفلات النساء متخفيا فى زى النساء ، فلما أنعم الله عليه بالتوبة نزع الى التصوف وخلع الدنيا ولبس مرقعة الصوف وصحب أبا هارون الأندلسى المتصوف المغربى — حسبما أشرنا آنفا — وسار معه الى بلاد المشرق حيث كانت له هناك رياضات وسياحات ولزم الحرم الى توفى ساجدا خلف المقام سنة ٢٩١ هـ (١) .

وربما كان من أسباب تصعيد الزهد الى التصوف فى بلاد المغرب هو ما حظى به العباد والزهاد من تقدير العامة لهم واضفائهم الولاية على بعضهم مما كان سببا فى اغال بعض الزهاد فى نزعة الزهد وقرنوا الزيادة الكمية التى تتسم بها العبادة عند الزهاد بالزيادة النوعية التى تحول الزهد الى تصوف أملا فى أن يزداد قدرهم فى نفوس العامة

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢٧ ، والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٥ .

ويكتسبوا لديهم صفة الولاية وكانوا في سبيل ذلك يسمعون الى لقاء
الصوفية ولا يكتفون بالأخذ عنهم بل يشيعون ذلك بين مواطنهم حتى
يذيع صيتهم ويتناقل الناس أخبارهم فيفد اليهم المريدون ، مثال ذلك
ما ذكره موسى بن معاوية الصمادحي أنه رحل من القيروان لا يظن أنه
سيلقى أخشع من البهلول بن راشد حتى لقي وكيع بن الجراح ثم رحل
الى مكة لا يظن أنه سيلقى أخشع من وكيع حتى لقي الفضيل بن عياض
ثم ذكر له رجل في خراسان فرحل اليه ، فلما سأله الخراساني عن لقي
ذكر له أنه لقي الفضيل ووكيع وأبا معاوية الضرير فقال له الخراساني :
أما يكتفيك أن تجعل أحدهم لديك ولكنك تريد أن تقدم بلدك فنقول
لقيت فلانا وفلانا (١) . وإذا كان موسى لم يصرح بأنه كان يريد قول ذلك
فعلا فإن الرواية تدل على سعي غيره الى شيء من ذلك .

وكان البعض يستهويه تبجيل العامة اياهم فيتحدثون عن رياضاتهم
ومجاهداتهم وسياحاتهم ولا يشكرون ما يذيعه الناس عن كراماتهم .
فهذا أبو السري واصل المتعبد بقصر تبصرة يقول عن نفسه : كنت
أجوب في الغرب فإذا ضللت الطريق أتت الوحوش والسباع وغيرها
تمشي بين يدي تهديني الى الطريق فأمشي عليها (٢) وهذا أبو يزيد رياح
ابن يزيد اللخمي يقول أيضا عن نفسه : « رضت نفسي على ترك المآثم
حولا بعد حول حتى طبطبتها ورضت لساني على ترك ما لا يعنيني فبعد
خمس عشرة سنة طبطبتة » . وكان الناس يشيعون عنه أنه كانت له
قربة مملوءة بالماء لكنه أتى فيها بكرامة هي تحويل الماء الى لبن ثم
تحويل اللبن الى ماء مرة أخرى ، فقال له البهلول بن راشد ، يا أبا يزيد ،
إن الناس قد أكثروا عليك في قصة اللبن فقال له : ما تعجبك من هذا
قواله ان لي اثني عشرة سنة ما خفت أحدا الا الله عز وجل (٣) وهكذا
كان بعض المتصوفة يروجون لنزعتهم بما يتحدثون به عن رياضاتهم
وكراماتهم ، ولا شك أن حديثا مثل هذا كان يستهوي عدد من العامة
وكان له أثره في اقبال المغاربة على التصوف والمتصوفة .

مما سبق يتبين لنا أن التصوف ظهر في بلاد المغرب من خلال اتجاهين :
أحدهما مشرقى وافد والآخر مغربى محلي متصاعد ، وقد أدى تضافر

(١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٢ - ٥٦ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠١ - ٣٠٥ .

الاتجاهان وتعاونهما على انتشار التصوف في بلاد المغرب انتشاراً واسعاً ساعد على ذلك أن دور المتصوفة في الحياة المغربية لم يكن يقل إيجابية عن دور الزهاد فيها وتنوعت حركة المتصوفة على الساحة المغربية مما كان له كبير الأثر في إقبال المغاربة على التصوف والمتصوفة .

دور المتصوفة في الحياة المغربية :

كان التصوف الذي عرفته بلاد المغرب الاسلامي منذ ظهوره حتى أواخر القرن الخامس الهجري تصوفاً فردياً لم تنتظمه بعد تلك الجماعات الصوفية المنظمة المعروفة اصطلاحاً باسم الطرق الصوفية وكان أكثر ما عرف من تنظيم للتصوف حتى نهاية هذه لفترة هو التفاف بعض المريدين أو التلاميذ حول أحد شيوخ التصوف للتلقى عنه أو التبرك به دون أن تنشأ حول أحد من الشيوخ أى جماعة من جماعات المعاشرة الاخوانية المعروفة باسم الطرق الصوفية ، فحتى هذا الوقت - أواخر القرن الخامس الهجري - لم تكن قد عرفت بعد في بلاد المغرب الاسلامي وإذا كان للبعض من كبار المشايخ سبيلاً خاصاً في التصوف فإن أحداً منهم لم يكن قد أنشأ بعد أى طريقة صوفية كذلك الطرق التي عرفت فيما بعد في بلاد المغرب في القرن السادس الهجري .

وإذا كان التصوف في بلاد المغرب حينذاك تصوفاً فردياً من جانب ، فإنه من جانب آخر لم يكن تصوفاً سلبياً وإنما كان تصوفاً إيجابياً ذو حركة فعالة ومؤثرة وشديدة الالتصاق بالحياة العامة المغربية (١) . وتعددت جوانب هذه الحركة الإيجابية الفعالة وتنوعت أنشطة المتصوفة المغاربة تنوعاً شديداً ومؤثراً مما ساعد على إقبال المغاربة على المتصوفة وتقبلهم للتصوف ويمكننا تتبع بعض جوانب هذه الحركة النشيطة فيما يلي :

١ - مجالس العلم وحلقات السماع :

كان كثير من المتصوفة المغاربة من الفقهاء وأهل العلم وكان أكثرهم من المالكية فلم ينشأ بينهم وبين الفقهاء من غير المتصوفة ثغور كبير ولم نعرف بلاد المغرب آنذاك مثل ذلك النزاع المشهور المحتدم بين الفقهاء

(١) أبو لبابه حسين : موقف متصوفة إفريقية وزهادها من الاحتلال العبيدي ، ص ٧ .

والتصوفة في المشرق والذي أدى الى أن يساق الى المحكمة بعض المتصوفة مثل ذى النون والحلاج وغيرهما (١) .

وكان لكثير من المتصوفة المغاربة الفقهاء منهم والمحدثين حلقات علم يلتف فيها الدارسون حولهم ويتعلم فيها أهل المغرب أمور دينهم وشئ من علوم التصوف . فعلى سبيل المثال ، كان لأبى سنان زيد بن سنان طلاب يدرسون عليه العلم وكان يؤثر فيهم بشدة تواضعه الذي بلغ أنه كان يحمل خبزه على يده الى القرن فيراوده الطلبة على أن يحملوا له الخبز الى القرن فيأبى الا أن يحمله بنفسه (٢) ، وكان لحماس بن مروان الناسك حلقة علم يعلم فيها الفقه ، دخل عليه فيها ذات يوم أبو هارون الأندلسي مرتديا مرقعة الصوف فقام له حماس احتراماً وأجلسه في موضعه وحول وجهه اليه فجلس أبو هارون معه ساعة ثم خرج فقام حماس معه ، فسأل الطلبة استاذهم عن هذا الرجل الذي قام له وأجلسه موضعه ، فقال لهم حماس بن مروان : هذا أبو هارون الأندلسي من الأبدال (٣) .

وكان جبلة بن حمود فقيها يربط بقصر الطوب حيناً ويقوم الى القيروان حيناً آخر فيعقد فيها مجلس العلم ويسمع منه الناس ، واعتاد أن يلتقى في مجلسه كل يوم جمعه بعض الرقائق (٤) . وكان جبلة لا يهتم بشئ من الثياب الا ما يستر عورته حتى أنه خرج على الطلاب يوماً في خرق بالية كأن ثيابه أكلها الجراد فقوم بعض الطلبة جميع ما كان عليه بثلاثة أرباع درهم فقط (٥) .

وكان حسين بن منرج مولى مهرية الأغلبية ذا عناية بالعلم وبصر بالرقائق (٦) . وكان لربيع القطان حلقة يلتقى فيها ما تعلمه على كبار الصوفية

(١) يحيى هويدي : تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية ، ص ٢٦٧ مع أن هويدي يصدر حكمه أعلاه على فترة لاحقة الا أن هذا الحكم يصدق أيضاً على الفترة موضوع البحث ومن ثم البتناء .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٣٥ .

(٤) اللبناغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧١ .

(٥) عياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٣٠ .

في وقته مثل أبي الحسن علي بن سهل الدينوري وأبي علي الكاتب
وأبي علي الروذباري وغيرهم .

وكان ربيع القطان لسان أهل إفريقية في وقته في علم التصوف ،
أشاد به أبو علي الكاتب ونوه بسرعة ارتقائه لأعلى درجات هذا
العلم (١) .

وكان لأبي مالك الدباغ حلقة يجتمع فيها أصحابه لتدارس علم
الباطن (التصوف) فإذا اختلفوا في شيء قام أبو مالك إلى حلقة ربيع
القطان فيجثو بين يديه ويسأله عما يريد (٢) .

في مثل هذه الحلقات والمجالس كان يدرس علم التصوف وتشد
الرقائق فكانت هذه الحلقات والمجالس تجتذب أعدادا غفيرة من أهل
المغرب ممن كانت الرقائق والأذكار تستهويهم وكان لذلك - بلا شك -
أثر كبير في نشر التصوف في بلاد المغرب الإسلامي .

٢ - التصدي لمظالم الحكام :

كان بعض الصوفية المغاربة بمثابة الملاذ الذي يلوذ به المظالم من
المغرب ليستعينوا بهم على دفع مظالم الحكام وأذاهم مثلهم في ذلك
مثل الزهاد الذين كانوا ينخرطون وإياهم في عداد العباد ، فعلى سبيل
المثال جاء رجل إلى رباح بن يزيد يشكو إليه سعيد بن لبيد كبير رجاله
يزيد بن حاتم أمير إفريقية في وقته ، وقال الشاكي لرباح أن سعيد بن لبيد
أخذ منه جارية له ، فأخذ رباح بن يزيد عصاه وانطلق مع الرجل الشاكي
إلى دار سعيد بن لبيد فأمره برد الجارية إلى سيدها فنزل سعيد على
أمره وقام برد الجارية (٣) . وكان حماس بن مروان لا يهاب في الحق
أحدا من الناس ولا يذارية حتى أدى به ذلك إلى أن يعاديه ابن الصائغ
صاحب البريد وكبير رجالات زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغلبة (٤) .

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٢٣ وعياض : المصدر
السابق ، ج ٥ ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣١١ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٤ .

(٤) عياض : المصدر السابق ج ٥ ص ٧٢ .

وكان أبو جعفر القمودى يدفع الظلم عن يلبجاً اليه من المتضررين من مظالم الحكام طالبين منه أن يدفع عنهم ظلاماتهم (١) . وكان أبو عبد الله محمد بن أبي حميد السوسى لا يتوانى عن التصدى لمظالم الحكام فقد تصدى لإبراهيم بن أحمد الأغلبى حين عزم على تخريب سوسة وانداء أهلها لكن ابن أبي حميد وعظه ونهاه عن انفاذ ما عزم عليه فتأثر إبراهيم بن أحمد الأغلبى من كلامه حتى بكى ثم قفل عائداً الى القيروان دون أن يمس سوسة أو أحد من أهلها بسوء (٢) .

هكذا كان للمتصوفة المغاربة دور ايجابى فى مساندة أهلهم ضد مظالم الحكام وكان الحكام يستجيبون للمتصوفة لما كان لهم من مكانة كبيرة فى قلوب العامة ورهبة الحكام إياهم اعتقاداً منهم فى أنهم مستجابو الدعاء وكان لذلك أثره فى اقبال المغاربة على المتصوفة وميلهم الى التصوف .

٣ - الرابطة والدفاع عن المسلمين :

كان كثير من المتصوفة يسكنون الرباطات حرساً على المسلمين ودفاعاً عنهم ضد اغارات الروم المفاجئة وقد كان دورهم فى الرباط امتداد لدور الزهاد ومشاركة لهم ، فقد كان أبو هارون الأندلسى يربط بقصر الطوب (٣) وكان أبو السرى وأصل بن عبد الله الحمسى يربط بقصر حمة الذى عرف فيما بعد بقصر الرباط بالمهدية وأبو السرى وأصل انتبصى يربط بقصر تبصه المرباط وهو الحصن الذى عرف فيما بعد بالديماس (٤) وكان أبو عثمان سعيد بن اسحاق الكلبي يربط بقصر الطوب (٥) .

وكانت حياة المرباطين من المتصوفة لا تختلف كثيراً عن حياة اخوانهم من الزهاد مما جعل الكتاب يخططون بينهم وإن كان ذلك يدعو الى القول بأن المتصوفة المرباطة فى محارس الساحل المغربى يشبتون أن التصوف

(١) المالكي : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) المالكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٢ .

المغربى كان أول أمره ايجابيا وكان للمتصوفة المغاربة دورهم الفعال في الحياة المغربية مما كان له أثره للحسن في نفوس المغاربة وحسن رأيهم في التصوف ومن ثم ميلهم اليه واقبالهم عليه على النحو الذى جعل من بلاد المغرب معقلا من معاقل التصوف الاسلامى .

٤ - مقاومة الشيعة العبيدية :

كان من أبرز ما قام به المتصوفة المغاربة من أدوار على الساحة المغربية ذلك الدور الهام الذى قاموا به في التصدى للشيعة العبيدية ومقاومتهم مقاومة تشبه مقاومة الزهاد للتشيع ولا تقل اهمية عن دور المالكية المغربية في تلك المقاومة التى انخرط فيها المالكية والزهاد والمتصوفة من اهل المغرب .

وعلى الرغم من قول بعض المؤرخين بوجود صلة بين التصوف والتشيع ، فان التصوفى المغربى في الفترة التى يتناولها البحث لم يكن بينه وبين التشيع العبيدى (الاسماعيلى) صلة الا العداء والمقاومة الشديدة التى كان المتصوفة يقاومونها للتشيع لعبيدى . ولم يكن ذلك العداء راجع فقط الى اتباع غالبية المتصوفة المغاربة للمذهب المالكى (١) وانما كان يرجع أيضا الى أن التصوف المغربى رغم ظهوره من اتجاهين أحدهما مشرقى وافد والآخر مغربى محلى فان هذا التصوف لم يلبث أن اصطبغ بصبغة مغربية خالصة جعلت منه تيارا مغربيا خالصا وجزء لا يتجزأ من فعاليات الحياة المغربية ومقوما من مقومات الشخصية المغربية . وكانت الصلة وطيدة بين هذا التصوف المغربى وبين التيار السنى لا تعكر صفوها حينذاك خصومات ولا نزاعات بينما جاء التشيع العبيدى دخيلا على بلاد المغرب تتجافاه العقلية المغربية وترفضه ، فكان من الطبيعى أن يتعاون التياران المغربيان السنى والصوفى في مقاومة البدعة الشيعية لاسيما وأن التيارين السنى والصوفى في المغرب كانا متداخلين تداخلا شديدا الى الدرجة التى يجمع فيها كثير من العباد المغاربة بين التصوف والسنة في آن واحد وكان كثير من أعلام التصوف المغربى هم في نفس الوقت من أعلام المالكية أو السنية المغربية على وجه العموم .

(١) أبو لبابه حسين : المرجع السابق ، ص ٧ .

وعلى ذلك ، فقد شارك المتصوفة المغاربة مشاركة فعالة ومؤثرة في مقاومة الشيعة العبيدية وتنفير أهل المغرب من التشيع أو التشريق .
فعلى سبيل المثال كان جبلة بن حمود الصدفي المتصوف المغربي واحد ممن قاوموا الشيعة العبيدية وكان يكشفهم الهداء ويصرح به دون خوف بل انه ترك الرباط في الثغر معلنا أن التصدي للشيعة العبيدية أكثر وجوباً منه (١) وكان أبو اسحاق ابراهيم الدميني مؤسس مسجد الخميس بدمنة القيروان يطعن في الدولة الشيعية (٢) . أما أبو عبد الله محمد بن عبد الله السدري الذي كان قد بلغ في التصوف مرتبة « البدلية » معدوداً من أولياء الله عز وجل فقد بايع وزداجه وقبائل أهل افريقية وأكثر أهل القيروان على جهاد عبيد الله المهدي أول خلفاء الدولة العبيدية في افريقية ، فلما بلغ عبيد الله خبره وجه اليه الخيل في طلبه بناحية باجة لكن أبا عبد الله السدري فر الى مكة وأقام بها فترة من الزمن رجع بعدها الى بلاد المغرب فلاحقته عيون عبيد الله المهدي وجواسيسه حتى تمكنوا من القبض عليه وأدخلوه على عبيد الله المهدي الذي سأله عن التهم الموجهة اليه فلم ينكر السدري تلك التهم وأقر أنه شتم العبيدين وشنع عليهم فأمر عبيد الله المهدي بقتله سنة ٣٠٩ هـ (٣) . وكان من المتصوفة الذين قاوموا الشيعة العبيدية حسين بن مفرج مولى مهريه بنت الأغلب وكان ابن مفرج من الذين بلغوا مرتبة « البدلية » في التصوف وقيل انه خرج مع جماعة على عبيد الله المهدي فقتله المهدي ، وقيل ان قتله كان بسبب تفضيله بعض الصحابة على بن أبي طالب مخالفاً بذلك مذهب الشيعة الاسماعيلية (٤) .

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٢ والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٢
وعياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٧٥ وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٣ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٨

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٦٦ والدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٤) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٣ وعياض : المصدر السابق ج ٥ ص ١٣٠ .

وكان ممن قاوم الشيعة العبيدية أبو الفضل العباس بن عيسى المسمى كان من كبار فقهاء المالكية في إفريقية ورعا زاهدا مجتهدا لكنه مال الى التصوف بعد عودته من الحج اذ « لزم الانقباض والنسك » ثم خرج على بنى عبيد فيمن خرج من شيوخ القيروان مع أبى يزيد مخلد بن كيراد وكان يرفع أحد البنود السبعة التى رفعها أهل القيروان يوم نصرتهم لأبى يزيد لكنه قتل في المعركة في شهر رجب سنة ٣٣٣ هـ (١) .

وقاوم الشيعة أيضا من متصوفة إفريقية أبو سليمان ربيع القطان ، كان من الفقهاء المعدودين والعباد المجتهدين والنسك المتصوفة أهل السورع والدين ، لزم الانقباض وذهب الى العلم الباطن والنسك والعبادة وتلاوة القرآن وتفهمه على طريق أهل الارادة وصار داعية اليه وكانت له حلقة بجامع القيروان ، وكان لسان أهل إفريقية في الزهد والرقعة والكلام على الأحوال والمقامات انتفع فى ذلك بصحبة أبى الحسن على بن سهل الدينورى وأبى على بن الكاتب وأبى على الروزبارى وغيرهم . وكان ممن عقد الخروج لقتال الروافض مع شيوخ القيروان وقتل فى وادى الملح فى حصار المهديّة سنة ٣٣٤ هـ (٢) .

وقاوم الشيعة أيضا أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد السبائى ، كان من أولياء الله المعدودين الذين ينزل بدعائهم الفطر وتظهر بهم البراهين . كان أحد من عقد الخروج على بنى عبيد وكان يذمهم ويحذر منهم توفى سنة ٣٥٦ هـ (٣) .

وكان ممن قاومهم أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن على بن مسلم الجبيناى ، أحد أئمة المسلمين وأيدال أولياء الله الصالحين قال عنه أحدهم: كل من أدركت بهذا الساحل من عالم أو عابد يستتر وينزوى بدينه خوفا من بنى عبيد الا أبا اسحاق فانه واثق بالله فلم يسلمه ومسك الله به قلوب المؤمنين وأعز به الدين « كان لا يؤذن حى على خير العمل ولا يجهر

(١) عياض : المصدر السابق ، ج ٥ صص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ صص ٣١٠ - ٣١٣ .

(٣) انظر ترجمته عند المالكى .

بالبسمة في أول سورة الفاتحة في الصلاة ولا يسلم على ناحيتين خلافا
للشيعة العبيدية وكان يظهر بغضه لهم ولا يخفيه • وكان الجبنياني مهيبا
يهابه جند الشيعة ويخافون أن يدعو عليهم دعوة مستجابة ، توفي سنة
٣٩٩ هـ في المحرم وسنه تسعون سنة (١) •

مما سبق يتضح لنا أهمية الدور الذي قام به المتصوفة في الحياة
المغربية وكيف كان لهذا الدور أثره في اقبال المغاربة على التصوف فتزايدت
أعداد المتصوفة في بلاد المغرب من قرن لآخر باضطراد ، يظهر ذلك اذا
تبعنا تراجم المتصوفة التي زخرت بها المصادر المغربية منذ ظهور التصوف
في بلاد المغرب وحتى نهاية القرن الخامس الهجري فقد كان من أوائل
متصوفة المغرب أبو عيسى مروان بن عبد الرحمن اليحصبي المعروف بـ
« سكر الناظرين » والسكر مذهب من مذاهب الصوفية يعرفه القشيري
بأنه غيبة موارد قوى وعكبه الصحو وهو رجوع الاحساس بعد الغيبة ،
وكان السكر مذهب أبي يزيد البسطامي (٢) ولذا يعد أبا عيسى مروان
اليحصبي من المتصوفة سيما وأنه وصف بالنسك (٣) •

وكان من المتصوفة المغاربة أبو حفص عمر بن عبد الله القتال ، اتفق
على أنه كان من الأبدال ووصف بأنه كان من الأصفياء المجتبيين (٤) •
كما كان منهم أبو سليمان ربيع بن عبد الله الناسك ، كان من أهل الصدق
والتخلي والانقطاع الى الله عز وجل كثير السياحة والتغرب عن الأوطان ،
سكن جبل اللكام بالشام وصحب الأبدال (٥) •

وكان من المتصوفة المغاربة أبو عبد الله محمد السوسي المغربي المتوفى
سنة ٢٩٩ هـ كان أحد الأوتاد متجردا من الدنيا دائم الأسفار على التجريد
والتوكل ، رحل الى المشرق فتتلمذ على الصوفي علي بن رزين ثم تتلمذ

(١) انظر ترجمته عند المالكي .

(٢) الرسالة القشيرية .

(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٥٤ والمالكي : المصدر السابق
ج ١ ص ١٩٤ ومابعدها والديباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٠

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ والديباغ : المصدر
السابق ، ج ٢ ص ٩٢٣

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ والديباغ : المصدر
السابق ج ٢ ص ٢٩٣ •

عليه ابراهيم الخواص و ابراهيم بن شيبان من مشاهير الصوفية ، كان الخواص من أقران الجنيد توفي سنة ٢٩١ هـ قبل أستاذه أبي عبد الله السوسي بنحو ثمانية أعوام ، أما ابراهيم بن شيبان فقد صحب أستاذه شيخه ثم رحل الى نيسابور ومات بها في سنة ٣٣٧ هـ (١) .

ولا يبعد أن يكون شقران بن علي أستاذ ذى النون الاخميمي المصري من المتصوفة ، فقد بث شقران في ذى النون تعاليمه وحثه على السياحة في الأرض والاستعانة بأكل العشب على أداء الغرض ، كما حثه على الفقر والوحدة والتوكل ، وحذثه عن العلم والطلب والقصد والوصول والمصافاة (٢) وهي أمور لها عند الصوفية معاني واعتبار .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو سليمان داود بن يحيى الصوفي أول من وجدناه يتلقب بلقب الصوفي في بلاد المغرب ، كان رجلا صالحا فقيرا متعقفا ثقة مأمونا لم تكن له رحلة الى المشرق وإنما نبت تصوفه على الساحة المغربية ومن ثم اعتبرنا فترته البداية الحقيقية للتصوف المغربي ، توفي سنة ٢٤٩ هـ (٣) . وتوالى في المائة الثالثة من الهجرة عدد من المتصوفة المغاربة يمكن أن نعد منهم أبا محمد الأنصاري الدمني الضرير الذي وصف بأنه صاحب صدق ومعاملة صحيحة وزهد وانقطاع وخوف واشفاق ، مستجاب الدعوة وهي صفات تفوق ما يوصف به الزهاد عادة ومن ثم ألحقناه بالمتصوفة ، وكان أبو محمد الأنصاري الضرير هو مؤسس مسجد السبت الذي كان يعقد فيه مجلس السبت كل أسبوع لسماع الرقائق (٤) .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو السرى وأصل الجمي نسبة الى قصر جمة ، وصف بأنه كان من أهل النسك والارادة تجرد لقيام الليل وصيام

(١) السلمي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٢ والقشيري : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٣

والمالكي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ والدباغ : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٥

(٢) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٣٩ والمالكي : المصدر السابق ، ط ص ٢٧٩ .

(٣) أبو العرب ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٤) المالكي : المصدر السابق ، ط ص ٤١١ والدباغ : المصدر السابق ، ط ٢ ص ١١٣ .

النهار وداوم على ذلك حتى صار من الأولياء المعدودين ومن الأصفياء المقربين والنسائك المتجربين ، توفي سنة ٢٥٢ هـ (١) . وكان منهم أبو هارون الأندلسي الذي وصفه حماس بن مروان بأنه من الأبدال يتأسي بأهل الصفة ، كان يلبس مرقعة الصوف وينتحل مذهب التوكل والانتقطاع الى الله عز وجل ، توفي بالمدينة المنورة سنة ٢٩١ هـ (٢) ولحقه في نفس العام صاحبه أبو عقاب غلبون الذي تصوف بعد عبث ومجون وصحب أبا هارون الى المشرق فكانت له هناك رياضات وسياحات ثم لزم الحرم المكي الى أن توفي فيه ساجدا خلف المقام بعد وفاة أستاذه بعدة أشهر فقط (٣) . وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أبي حميد السوسي المتوفى سنة ٢٩٣ هـ كان من الأبدال ، رحل الى المشرق ولقي بالشام هشام بن عمار وأحمد بن الحواري سكن دمنة سوسة وخدم الأضرأ (المجذومين) حتى صار مجذوما مثلهم ، هو الذي نهى ابراهيم بن أحمد الأغلبى عن تخريب سوسة (٤) .

وكان منهم أبو السرى واصل المتعبد بقصر تبصة ، وصف بأنه كان صالحا مجتهدا صاحب جماعة من النسائك المتقطعين الى الله عز وجل بالمشرق والمغرب ، وكان من أهل السياحة والتغرب (٥) .

وكان من متصوفة المغرب أيضا جيله بن يوسف بن حمود ، كان أوحد زمانه في الزهد والورع لم يكن يكتات الا على أقل الطعام اذ كان قوته ثمين من الشعير في الشهر ، وكان يسرد الصيام ويفطر على بقل البرية ، وكان لا يملك الا ثوبا واحدا باليا كأنما أكله الجراد وينام على زنبيل وقطعة نطع وطوية عند رأسه فوقها وسادة خشنة ، يغلب عليه النسك وتوفي سنة ٢٩٩ هـ (٦) .

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ط ص ٤٣١ وعياض : المصدر السابق ، ط ٤ ص ١٩٨ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ، ط ص ٥١٦ .
(٣) نفسها المصدر ، ط ص ٥٢٧ والدبأغ : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢١٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٥ والدبأغ : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢٥٠ وعياض : المصدر السابق ط ٤ ص ٤١٦ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ، ط ٢ ص ١٥ .
(٦) نفس المصدر ، ط ٢ ص ٢٧ والدبأغ : المصدر السابق ، ط ص ٢٧٠ وعياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٧١ .

ويمكن أن نعد من المتصوفة في المغرب حماس بن مروان الملقب بالناسك
كان يجمع بين الفقة الكثير والورع الجيد والعبادة والزهادة ، يلبس
الصوف الخشن ويأكل الشعير (١) .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو بكر الصدفى الصوفى السوسى المتوفى
سنة ٣٠٤ هـ ، لا نعرف عنه أكثر من أنه تلقب بالصوفى (٢) كما كان منهم
محمد بن طيب المصرى الساكن بسوسة أيضا صاحب عددا من كبار الصوفية
المشاركة مثل الخراز الصوفى البغدادي المشهور ، كما صاحب أبا هارون
الأندلسى وأبا عقال غلبون من متصوفة أهل المغرب (٣) .

وكان من متصوفة المغرب أبو اسحاق ابراهيم الدمنى الذى بنى مسجد
الخميس بالدمنة على مقربة من مسجد السبت ، وكان يعقد بمسجد الخميس
مجلسا كل يوم خميس من العصر الى الليل للذكر والدعاء وسماع الرقائق ،
وكان ابراهيم الدمنى يلبس المرقعات من المزابل مشهورا بالفضل والعبادة
والنسك مستجاب الدعوة ويستقى به الغيث ولعله كان من الأبدال هو
وصوفى مغربى آخر كان بالدمنة أيضا يدعى محمد بن العنقل (٤) .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو عبد الله محمد بن عبد الله السيورى كان
فقيها ناسكا من العباد الزهاد ومن البدلاء المريدين العاملين ينتحل التوكل
كثير الحج والأسفار والتغرب عن الأوطان والسياسة (٥) .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو جعفر القمودى ، وصف بأنه من أولياء
الله ، لم يكن فى عصره أكثر عبادة منه ، وكان من أهل السياحة ، جاز على
افريقية كلها فما طاب له المقام الا بسوسه ، أقام أربعين سنة صائما لا يفطر
الا على الخبز والماء ، لم يكن ينام مضطجعا وإنما كان نومه جالسا ، ولم
يكن قوته يتعدى ثمن شعير فى الشهر ، لا يأكل اللحم وإنما تطبخ قدره

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٨ والديباغ : المصدر
السابق ج ٢ ص ٣٢٠ وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٦٦ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٧ والديباغ : المصدر السابق ،
ج ٢ ص ١٧٤ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٦ والديباغ : المصدر
السابق ، ج ٢ ص ٣٥٤ .

بصلة وزيت ، وكان يلبس الصوف له ذكر بالشرق والمغرب ، توفي سنة ٣٢٤ هـ (١) .

وكان منهم أيضا سعدون بن أحمد الخولاني ، كان من أهل العبادة الدائمة والفضل ، وكانت فيه غفلة الشيوخ ، حسن النسك ، كان من الصالحين وشيخ الحصون في وقته ، لم يكن بالمنستير من هو أسن منه ، وصف بأنه من أولياء الله ، رد الله ببركته عن المنستير شر العبيدين حينما أرادوا أن يخلوه من المراقبة كما أدخلوا غيره من الحصون ، توفي سنة ٣٢٤ هـ وقيل سنة ٣١٠ هـ (٢) .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو القاسم عبد الوهاب بن نصر المتعبد وصف بأنه مجاب الدعوة ممن له علم وعمل ، كانت له ملاحظة في العباد وحلاوة في النسك ، كثير الرباط والسياحة ، يرتدى مرقعة الصوف ، توفي سنة ٣٣٠ هـ (٣) . كما كان منهم أبو جعفر أحمد بن أبي خالد يزيد الدباغ كان ذا أوصاف حسنة يميل إلى التصوف وله أخبار ومجالس مع أهل النسك والرقعة توفي أيضا سنة ٣٣٠ هـ (٤) .

وكان من المتصوفة المغاربة أبو الفضل المصبي ، رحل إلى المشرق للحج سنة ٣١٧ هـ لكفة مكث عامه هذا بمصر وحضر مجالسها ونال ثناء أهلها ، ولما حج وعاد من رحلته لزم الاتقياض والنسك إلى أن خرج على بني عبيد الشيعة مع من قام عليهم من علماء القيروان وعبادها وصلحائها أبان ثورة أبي يزيد مخلد بن كيراد ، توفي المصبي سنة ٣٣٣ هـ (٥) .

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١١ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥١ وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٣٤ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٧١ .
(٥) عياض : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ - ٣٠٠ وابن فرحون : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٩ .

وكان منهم أيضا أبو سليمان ربيع القطان ، كان من الفقهاء المعدودين والاباد المجتهدين والنسك أهل الورع والدين ، وكان في وقته لسان أفريقية في الزهد والرقائق والكلام على الأحوال والمقامات لا يفوقه في ذلك أحد من أهل زمانه وانتفع في تحقيق ذلك بصحبة أبي الحسن على ابن سهل الدينوري وأبي على الكاتب وأبي على الروذباري وغيرهم من أعلام صوفية المشرق وقتذاك ، كان أبو على الكاتب يقول فيه : ما رأيت رجلا جعل رجله الأولى في أول درجة من علم التصوف وجعل رجله الثانية في أعلى درجة منه إلا ربيعا القطان كأنما جاءه الأمر دفعة واحدة من الله تعالى . وكان لربيع القطان حلقة يدرس فيها علم التصوف (الباطن) وكان قد نحل جسمه ورق عظمه من صيام النهار وقيام الليل وكان قد جعل على نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد وقد توفي سنة ٣٣٤ هـ (١) .

وكان منهم أيضا سالم بن حماس مروان وصنف بأنه كان من الأبدال ، وكان أخوه حمود بن حماس بن مروان أيضا من أهل النسك والورع حسن السميت صاحب جماعة من النسك واختص بأبي هارون الأندلسي وتوفي حمود بعد أخيه سالم بعامين في سنة ٣٠٩ هـ (٢) .

وكان من متصوفة المغرب أبو عبد الله محمد بن أبي سهل الصوفي كان من أهل الفضل والدين ثم تنسك حتى توفي سنة ٣٣٣ هـ (٣) وقد ذكر أنه كان يحضر يوما مستجد السبت مع أبي بكر بن سعدون وأبي بكر بن اللباد فاقتح بعض القوالين قائلا :

لا يشغلنك عن حبيبك شاغل فاذا فعلت فإن حبك باطل

فتحرك محمد بن أبي سهل الصوفي حتى استغرقه الحال فما بقي أحد في المسجد إلا بكى لصدقة في حركته (٤) .

وكان منهم زهرون بن حسن بن جمال ، كان شيخا صالحا متعبدا ناسكا مجتهدا ظهرت له براهين وكرامات وحج أكثر من مرة على طريق

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ وعياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٠٠ - ٣١٥

(٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤١٧ .

الوحدة لا يحمل معه زادا وإنما يأكل من المناهل ، من أتاها بشيء أكله (١) .
وكان منهم أبو الخير الأقطع التينيانى ، سلك طريق النساك ثم رحل
الى المشرق فصحب أبا عبد الله بن الجلاء وغيره من مشايخ الصوفية
وكان آوحد في طريقة التوكل ، سكن التينيات وهي فرضة على ساحل
بحر الشام قرب المصيصة فنسب اليها وظهرت له كرامات ، توفي سنة
٣٤١ (٢) .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن خليل العسال امام جامع القيروان ،
كان فاضلا ورعا صواما قواما من المنعبدين المتبكين المشهورين بالفضل
واجابة الدعوة وكان ذا سمت ونسك ، توفي سنة ٣٠٨ هـ (٣) .

وكان منهم أيضا أبو لقاسم المغربي تلميذ أبى بكر بن سعدان البغدادي
تلميذ الجنيد ، كانت لأبى القاسم المغربي أقوال في التصوف يعتد بها
مثل قوله : التصوف استقامة الأحوال مع الحق (٤) .

وكان منهم أبو القاسم الحسن بن مفرج مولى مهرية الأغلبية كان من
البدلاء العاملين ينتحل التوكل كثير الحج والأسفار والتغرب عن
الأوطان (٥) . كما كان منهم أبو اسحاق الجبنيانى أحد أئمة المغاربة
وأحد أبدال أولياء الله الصالحين (٦) كما كان منهم أبو الحسن على
ابن أحمد بن زكريا بن الخصيب المعروف بابن ذكرون ، صاحب جماعة من
النساك وكان صالحا متعبدا ناسكا له تأليف في الرقائق انتفع به أهل
بلدته - طرابلس - وتعلموا منه الفقه والحديث والنسك ، توفي
سنة ٣٧٠ هـ (٧) .

-
- (١) المالكي المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨٣ .
(٢) السلمى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧٠ . وأبو نعيم
الإصفهاني : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٩ . وابن فضل الله العمري :
المصدر السابق ، ج ٨ ص ٢٠٧ والمالكي : المصدر السابق ج ٢
ص ٤٣٩ .
(٣) الديباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٠ .
(٤) السلمى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٠ ، ص ٥١١ .
(٥) الديباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٣ . وعياض :
المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٣٠ .
(٦) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٤ .
(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٠٣ .
(م ٨ - الزهاد والمتصوفة)

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي كان من قرية من قرى
القيروان يقال لها كركنت أقام بالحرم مدة وكان شيخه ، صحب أبا علي
الكاتب وحبيبا المغربي وأبا عمرو للزجاجي والنهرجوري وغيرهم من
مشايخ التصوف ، وكان أوحدا زمانه في طريقته وزهده ، ورد نيسابور
وتوفي بها سنة ٣٣٧ هـ (١) .

وجملة القول ، ان الزهد قد تصاعد الى التصوف على الساحة
المغربية ، لكن ظهور آخرهما لم يلغ وجود أولهما وانما تواجد كلاهما
معا على الساحة المغربية وتداخلا تداخلا شديدا يجعل من الصعوبة بمكان
التفريق بينهما والتمييز بين الزهاد والمتصوفة المغاربة حتى القرن الخامس
الهجري خاصة وأن الفريقين قاما بحركة متشابهة على الساحة المغربية
ومن ثم التبس الأمر علينا أحيانا فعددنا بعضهم من الزهاد أولا ثم أدرجناهم
في المتصوفة دلالة على تداخل الفريقين وتشابههما حتى القرن الخامس
الهجري .

(١) السلمى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧٧ ، والقشيري :
المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٠ . والعمرى : المصدر السابق ، ج ٨
ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

**الزهاد والمتصوفة
في بلاد الأندلس**

الزهد في الأندلس :

عرفت نزعة الزهد طريقها الى بلاد الأندلس في وقت غير بعيد عن ظهورها في بلاد المغرب كاشفة بذلك عن وجه آخر من أوجه التقارب بين مجريات الأمور على العدوتين المغربية والأندلسية في تاريخهما الاسلامي .

ويمكننا أن نرجع ظهور نزعة الزهد في بلاد الأندلس الى عوامل مشابهة لتلك العوامل التي أدت الى ظهورها في بلاد المغرب ، فإذا كانت الحركات والنزعات التي شهدتها ساحة المشرق الاسلامي قد تردد صداها في المغرب الاسلامي فقد كانت العدو الأندلسية لا تقل في ذلك عن العدو المغربية وإنما كان الارتباط بينهما قويا حتى أنهما كانتا أشبه بدفتي كتاب واحد يكتمل ما في واحدة منهما بما في الأخرى ومن ثم فقد كان لنزعة الزهد في المشرق الاسلامي صداها في كل من بلاد المغرب وبلاد الأندلس على السواء ، وكانت العوامل المسببة لظهورها على كل من العدوتين متشابهة أحيانا ومتماثلة أحيانا أخرى .

في ضوء ما تقدم نستطيع أن نرجع ظهور نزعة الزهد في الأندلس الى العوامل الآتية :

١ - وفود الزهاد الى الأندلس :

يشكل قدوم الوافدين الى الأندلس فرادى وجماعات ملمحا أساسيا من ملامح تاريخه الاسلامي ولقد كان لهذا التوافد آثار بارزة في التاريخ الأندلسي ، طيبة جينا وسيئة جينا آخر ، لكنها كانت دوما عميقة ومؤثرة الى الدرجة التي تدعو الى عدم التغافل عنها عند دراسة التاريخ الأندلسي وحضارته .

وكان من الوافدين الى الأندلس عدد غير قليل من الزهاد منهم من قدم من المشرق الاسلامي ومنهم من قدم من العدو المغربية . وكان لهؤلاء الزهاد الوافدين دور هام في ادخال نزعة الزهد الى الأندلس وتعريف أهل الأندلس بتلك النزعة ونشرها فيهم .

كان من أوائل الزهاد المشاركة الذين وفدوا الى الأندلس النعمان ابن عبد الله بن النعمان الحضرمي الذي وصف بأنه كان صالحا زاهدا كثير الصدق والتصدق حتى أنه كان يتصدق بعطائه كله ، وقد قدم من المشرق الى برقه فسكنها وقتا ثم رحل عنها الى الأندلس للمشاركة في الجهاد بعد أن رأى في منامه كأنه يقال له : اختر بين الايمان واليقين فقال : اليقين ودخل بعدها الأندلس ليجاهد هناك ثم قفل منه بخبر فتح هنالك حملة الى سليمان ابن عبد الملك لكنه عاد الى الأندلس مجاهدا حتى استشهد مرابطا في أقصى الثغور الأندلسية (١) .

وقدم من المشرق الى الأندلس أيضا أبو وهب عبد الرحمن العباسي ، قيل انه كان من بني العباس لكنه أخفى عن الناس نسبة ، كان منقطع القرين في الزهد والورع مقبولا لدى الناس منقبضا ، وكان متنفذا في أطراف من العلوم يبدو لمن لا يعرفه وكأنه مدخول العقل ، توفي بقرطبة سنة ٣٤٤ هـ في أيام الناصر لدين الله عن تسعين عاما وحضر جنازته خلق عظيم (٢) .

وكان ممن وفد الى الأندلس من الزهاد المغاربة أبو جعفر أحمد ابن خلوف المسيلي الخياط . كان فقيها مالكا ورعا زاهدا فاضلا ، سكن الثغر أعواما كثيرة مجاهدا وكان مشهورا بالشجاعة وعلا ذكره في الثغر ، توفي بقرطبة سنة ٣٩٣ هـ (٣) .

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج ٢ ص ١٥٨ / ٢٥٠٠ الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٧٨ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ١ ص ٥٨ .
- ينقل عن ابن بشكوال ابياتا لأبي وهب عبد الرحمن العباسي منها :

انا في حالتي التي تراني احسن الناس ان تفكرت حالا
منزلي حيث شئت من مستقر الارض اسقى من المياه زلا
ليس لي كسوة أخاف عليها من مغير ولا ترى لي مالا
أجعل الساعد اليمين وسادي ثم انني اذا انقلبت شملا
قد تلذت حقبة بامر فتدبرتها فكانت خيلا

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٣ .

وقدم الى الأندلس صغيرا مع آبيه ، أبو الفضل أحمد بن قاسم ابن عبد الرحمن التجيبى التاهرتى البزاز ، كان صالحا زاهدا فى الدنيا متقبضا عن الناس مائلا الى الخمول ، توفى سنة ٣٩٥ هـ (١) . وقدم أيضا من المغاربة جساس الزاهد ، كان من أهل سجلماسة وكانت له رحلة الى المشرق ثم دخل الأندلس فكان يروى هناك كتب الزهد مثل كتاب الزهد لبمن بن رزق الذى سمعه البعض منه بمجريط (٢) .

وكان ممن وفد من المغاربة أيضا الى الأندلس أحمد بن حبيب كان من صالحى الأمة وعبادها وزهادها ، ترك التجارة لشيء لم يقبله من شريك له فقبلاً من جميع ما فى يديه وخرج الى الأندلس فقيرا مجاهدا فاشتهر هناك وطار ذكره وسكن الثغر مرابطا حتى توفى قبل الأربعمائة من الهجرة (٣) .

وقدم منهم أيضا الى الأندلس أبو محمد خلف بن على بن ناصر بن منصور البلوى السبتي الزاهد ، كان زاهدا متبتلا سائحا فى الأرض لا يأوى على وطن ، راوية للعلم ضابطا للكتب ، سكن مسجد متعة بقرطبة وتعبده فيه فكان الصلحاء والزهاد يقصدونه ليسمعوا منه ، توفى باليرة صدر الفتنة البربرية سنة ٤٠٠ هـ (٤) .

على هذا النحو ، وفد هؤلاء الزهاد وغيرهم الى الأندلس من المشرق وبلاد المغرب الاسلامى ، وكان لهؤلاء الزهاد أثر فعال فى استمالة الأندلسيين الى الزهد بحسن سيرتهم وتعبدهم وجهادهم وروايتهم للعلم وتعليمه فكانت القلوب تميل اليهم ويتأسى الناس بهم وينزعون مثلهم الى الزهد .

٢ - رحلة الأندلسيين الى المشرق الاسلامى ولقاء زهاده :

لم تنقطع رحلة أهل الأندلس الى المشرق الاسلامى بل كانوا يرحلون دوما الى المشرق لأغراض شتى كالحج والزيارة وطلب العلم وجلب الكتب أو يتوجه بعضهم اليه للتجارة . ولا شك أن الرحلة الى المشرق تشكل وجها آخر من أوجه التاريخ الأندلسى التى لا ينبغى التغافل عنها عند دراسة هذا التاريخ لاسيما وأن لها نتائج جد خطيرة على التاريخ الأندلسى سياسية كانت أو حضارية .

(١) ابن بشكوال : الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس ج ١ ص ٨٤ .

(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) القيروانى : أنموذج الزمان ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٧ .

وكان ممن ارتحل الى المشرق الاسلامي من أهل الأندلس بعض الزهاد الأندلسيين الذين نزعوا الى الزهد قبل رحلتهم الى المشرق أو بعد أوبتهم منه ، وكان منهم من خرج قاصدا لقاء الزهاد المشاركة للتبرك بهم والأخذ عنهم كما كان منهم من التقى بالزهاد عرضا في طريق رحلته فتأثر بهم وتعلم منهم فلما عاد هؤلاء واولئك الى الأندلس سلكوا في ذويهم مسلك الزهاد وساروا سيرتهم ونشروا فيهم ما تلقوه عن الزهاد المشاركة مما كان له أثر كبير في انتشار نزعة الزهد بين أهل الأندلس واقبال كثير منهم على الزهد اقبالا ملحوظا .

كان من أوائل الزهاد الأندلسيين الذين رحلوا الى المشرق — لسبب أو الآخر — زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشيطنون ، أحد الرواة عن مالك بن أنس وله عنه سماع معروف منسوب اليه يعرف بسماع زياد زهد حتى في القضاء اذ أراد الأمير هشام الرضا أن يوليه على القضاء فخرج هاربا بنفسه ، وكانت وفاته سنة ٢٠٤ هـ (١) .

وكان ممن رحل الى المشرق عيسى بن دينار ، وصف بأنه من أهل الزهد اليأس والدين الكامل ، أدرك في رحلته أصحاب مالك متوافرين فسمع من ابن القاسم كبيرهم وصحبة وعول عليه ثم انصرف الى الأندلس فكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه — في وقته — أحد في قرطبة ، كان عالما زاهدا قيل انه أول من علم أهل الأندلس المسائل وكان خيرا فاضلا عابدا ناسكا ورعا مستجاب الدعوة ، اتهم بتحريض العامة على الأمير الحكم بن هشام يوم هيج الربض فهرب واستخفى عن الأنظار حتى أمته الحكم ، كانت وفاته بطليطلة سنة ٢١٢ هـ (٢) .

وكان ممن رحل الى المشرق عبد الملك بن زوئان ، سمع من أشهب ابن عبد العزيز وابن القاسم وابن وهب وغيرهم كان يذهب أولا مذهب الاوزاعي ثم عدل عنه الى مذهب مالك وكان يفتي في أيام هشام الرضا

(١) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

والمقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) ابن حبان : المقتبس ، نشر مكى ص ٢٣١ .

الضبي : المصدر السابق ص ٤٠٢ وابن الغرضي : المصدر السابق

ج ١ ص ٢٣١ وابن سعيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ وابن فرحون :

المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤ .

مع يحيى بن يحيى الليثي . كان فقيها زاهدا فاضلا يغلب عليه الزهد .
وكان منهم أبو عثمان سعيد بن حسان ، قرطبي ، مولى للأمير الحكم
ابن هشام ، كانت رحلته سنة ١٧٧ هـ فلقى فيها كثير من العلماء وروى
عن عبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم لكنه استكثر من الرواية عن
أشهب بن عبد العزيز وسمع منه سماعة عن مالك ثم قفل إلى الأندلس
سنة ٢٠٤ هـ . كان أبو عثمان فقيها مشاورا زاهدا فاضلا ورعا ، توفي
سنة ٢٣٦ هـ (١) .

وكان منهم أبو عمرو هارون بن سالم ، قرطبي ، سمع من عيسى
ابن دينار ويحيى بن يحيى الليثي وسمع في رحلته من أشهب بن عبد العزيز
وأصبح بن الفرج وسجنون بن سعيد ، وصف أبو عمرو بأنه كان منقطع
القرين في الفضل والزهد والعلم مجاب الدعوة ، مات في الأربعين من
عمره سنة ٢٣٨ هـ (٢) .

وكان منهم أبو خالد مالك بن علي بن عبد العزيز بن قطن الزاهد ،
قرطبي ، سمع في رحلته من عبد الله بن مسلمة وأصبح بن الفرج وكان
ورعا محتسبا ، توفي سنة ٢٦٨ هـ (٣) .

وكان ممن رحل إلى المشرق أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد ، قرطبي ،
سمع من محمد بن عيسى ويحيى بن يحيى الليثي ورحل إلى المشرق فلقى
جماعة من أئمة المحدثين ، ملأ الأندلس بعد قفوله حديثا ورواية وكان
ورعا فاضلا زاهدا وقيل أنه مجاب الدعوة ، توفي سنة ٢٧٦ هـ (٤) .

وكان منهم أبو العطاء يعلى بن عبيد الله ، أموي الولاء من أهل
سرقسطة ، كان زاهدا فاضلا ، توفي سنة ٢٨٦ هـ (٥) . ورحل أيضا إلى
المشرق محمد بن عبد الله بن الدفاع الزاهد ، قرطبي ، سمع في رحلته من

(١) ابن حبان : المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٩١ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٠ .

الحارث بن مسكين وغيره ، كان زاهدا فاضلا ، توفي سنة ٢٨١ هـ (١) .
وكان ممن رحل الى المشرق أيضا محمد بن وضاح بن بزيع ، ثاني
اثنين كان لهما فضل نشر الحديث والاسناد في الأندلس ، هو وبقي
ابن مغلط . رحل ابن وضاح الى المشرق رحلتين : أولاها كانت في
سنة ٢١٨ هـ قيل رحلة بقي بن مغلط ولم يكن الحديث طلبه في تلك الرحلة
وانما كان طلبه الزهد ولقاء العباد . كان ابن وضاح كثير الحكايات عن
العباد ورعا فقيرا زاهدا متعقفا محتسبا في نشر علمه ، علم أهل الأندلس
العلم والزهد ، توفي سنة ٢٨٧ هـ (٢) .

وكان ممن رحل الى المشرق محمد بن عبد الجبار بن محمد ، قرطبي ،
رحل حاجا وكان الغالب عليه الرواية مع الزهد والعبادة وكان عالما بالقراءات ،
توفي سنة ٢٩٦ هـ (٣) .

ورحل أيضا الى المشرق يحيى بن زكرياء بن يحيى الثقفي المعروف
بابن الشامة من أهل قرطبة ، سمع من ابن وضاح كثيرا ، وسمع بمصر
وبمكة ، كان عابدا صواما توفي سنة ٢٩٨ هـ (٤) .

وكان ممن رحل الى المشرق أيضا محمد بن أحمد بن عبد الملك يسمى
ابن الزراد ، روى عن محمد بن وضاح كثيرا وصحبه وروى عنه غيره ،
كان الزهد وأخبار العباد أغلب عليه من العلم ، توفي سنة ٣٠٥ هـ (٥) .

ورحل أيضا الى المشرق محمد بن فطيس بن واصل القافقي الالبيري
الزاهد ، روى بالأندلس عن بقي بن مغلط ومحمد بن وضاح وغيرهما ،
سمع بالمشرق من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى
 وغيرهما ، وسمع بمكة من مائة شيخ ، كانت الرحلة اليه بالبيطرة وبها
توفي عن تسعين عاما سنة ٣١٩ هـ (٦) .

-
- (١) ابن الغرضي : المصدر السابق ٦ .
والمقرئ : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧ .
(٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥ .
وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٩ .
(٣) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٨٧ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥ .
(٦) الحميدى : المصدر السابق ص ١٢٩ الضبي : المصدر
السابق ص ١٢١ والمقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٢ .

ورحل أيضا الى المشرق أحمد بن محمد بن الرومي ، قرطبي ، سمع من محمد بن وضاح ، لقي في المشرق ابراهيم بن الجنيد البغدادي الزاهد وسمع منه بعض تصنيفه في الزهد (١) .

ورحل أيضا الى المشرق محمد بن زكرياء بن محمد بن جعفر ، قرطبي ، سمع من محمد بن وضاح وغيره من شيوخ الأندلس ، رحل سنة ٢٧٤ قسم بمكة وبيغداد . كان ضابطا ثقة زاهدا ورعا صاحب ليل وعبادة ، غزا مع عبد الرحمن بن محمد (الناصر) غزوة وحشمة فمات فيها عند قلعة ودفن هناك سنة ٣٢٢ هـ (٢) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو عبد الله محمد بن أصبغ بن ليبي ، من أهل استجه ، سمع بالأندلس وبمكة فلما قفل لزم الزهد والعبادة وكان متفنا في العلوم بصيرا بالفرض والحساب والنحو والغريب ومعاني الشعر وكان شاعرا يتكلم في مذاهب العلم الباطني ، توفي سنة ٣٢٨ هـ (٣) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو محمد وسيم بن سعدون ، طليطلي ، سمع من محمد بن وضاح بقرطبة ، وسمع في رحلته بمكة وبمصر ، كان موصوفا بالزهد والعبادة وكان فقيه طليطلة في وقته (٤) .

ورحل أيضا الى المشرق أصبغ بن قاسم بن أصبغ ، استجي ، سمع في رحلته بمكة وكان منسوباً الى الزهد متحلياً بالورع ، توفي سنة ٣٦٣ هـ (٥) ومات في نفس السنة زاهدا آخر من أهل شذونة يدعى أبو عبد الله محمد بن وضاح وهو غير محمد بن وضاح بن بزيع ، كانت لأبي عبد الله رحلة الى المشرق وكان رجلا صالحا زاهدا يكتب المصاحف (٦) .

ورحل الى المشرق أيضا أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانه الفزاري الزاهد الليري ، كان منقطع القرين في العبادة بعيد الصيت في الزهد ، حج وعنى بالقراءات والتفسير ، توفي سنة ٣٦٦ هـ (٧) .

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٨ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٠ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٣ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٩٠ .

وكان ممن رحل الى المشرق أبو بكر محمد بن اسحاق بن منذر ، كانت رحلته سنة ٣٢٢ هـ فسمع بمكة وبمصر من غير واحد وقتل الى الأندلس فأقبل على الزهد والعبادة والتقشف والبر ، كان يصيد السمك بنهر قرطبة ويبيع صيده فيقتات بجزء ثمنه ويتصدق بفضله حرصا منه على طلب الحلال . قدمه الحكم المستنصر للشورى ثم ولاه المظالم والشرطة ثم ولاه قضاء الجماعة بعد وفاة منذر بن سعيد البلوطي سنة ٣٥٦ هـ ، توفي أبو بكر سنة ٣٦٧ هـ (١) .

ورحل الى المشرق أيضا أبو اسحاق خلصة بن موسى بن عمران الراي الزاهد ، أصله من ربه وسكن قرطبة ، كان زاهدا فاضلا بعيد الاسم في الخير ، توفي سنة ٣٧٦ هـ (٢) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو أيوب عتاب بن هارون بن عتاب الثقفي الزاهد من أهل شذونة ، كانت رحلته سنة ٢٥١ هـ فسمع بمكة وبمصر ، كان مالكا حسن النظر قيل انه حجاب الدعوة ، توفي سنة ٣٨١ هـ (٣) .

ورحل الى المشرق أيضا أبو عمر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد القاهر العبسي ، من أهل اشبيلية ، سمع بقرطبة وبالبيرة وبسرقسطة من غير واحد ، كانت رحلته سنة ٣١٩ هـ فأخذ عن كثير بين منهم اسحاق ابن ابراهيم النهرجوري . كان من أهل الخير والفضل والتصاوت والاتقياض ، له تأليف في الزهد سماه الاستبصار توفي سنة ٣٧٩ هـ (٤) .

وكان ممن رحل الى المشرق أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم القلعي ، أحد أعلام الزهاد ، كانوا يشبهونه بسفيان الثوري سمع بالشام والعراق ، كان جليلا محدثا زاهدا عالما مجاهدا شجاعا ، عرض الحكم المستنصر عليه القضاء فاستعفى ، توفي سنة ٣٨٣ هـ (٥) .

ورحل الى المشرق أيضا أبو محمد مسلمة بن محمد بن بقرى الأيادي ، قرطبي ، كان زاهدا فاضلا مجتهدا ورعا كثير الجهاد ، كانت

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٤٧ .

الضبي : المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

(٣) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، ج ١ ص ٨ .

(٥) الضبي : المصدر السابق ص ٣٣٤ . وابن فرحون : المصدر

السابق ، ج ١ ص ٤٥٢ .

العبادة أملك به وأغلب عليه ، توفي سنة ٣٩١ هـ ودفن بمقبرة الرض
وشهد جنازته خلق عظيم (١) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو عبد الله محمد بن خليفة بن عبد الجبار
البلوى المؤدب ، قرطبي ، لزم التأديب بالقرآن ، كان شيخا صالحا زاهدا ،
توفي في سنة ٣٩٢ هـ (٢) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو عبد الله محمد بن سعدون من ساكني
حصن مورة من عمل باجة ، يعرف بابن الزنوني ، كان صالحا فاضلا
زاهدا ورعا ، توفي ببطلوس سنة ٣٩٢ هـ (٣) .

وكان ممن رحل الى المشرق أيضا خلف بن القاسم بن سهل الدباغ ،
كان حافظا فهما عارفا بالرجال ، حدث حديث مالك وأشياء في الزهد ،
توفي سنة ٣٩٣ هـ (٤) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي المؤدب
المعروف بابن الخلاص من أهل بجانة ، سمع كثيرا بمصر والشام ومكة ،
كان زاهدا فاضلا منقبضا توفي سنة ٣٩٤ هـ (٥) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن محمد
الأنصاري من أهل ريه ، كانت رحلته سنة ٣٤٣ هـ فحج وتردد هناك
ثلاثة أعوام وسمع بمصر كثيرا ثم قفل الى الأندلس فلزم الانقباض والزهد
وولي الصلاة في موضعه مدة طويلة الى أن توفي سنة ٣٩٤ هـ (٦) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو المطرف عبد الرحمن بن عثمان بن عفان
القشيري ، قرطبي أصله من جيان ، كانت رحلته سنة ٣٥٥ هـ . كان

(١) ابن الفراضى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٤) المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٥) ابن الفراضى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٧ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٢٥ .

صالحا زاهدا منقبضا ثقة فيما رواه ، توفي سنة ٣٩٦ هـ (١) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو محمد حماد بن عمار بن هاشم (٢) يبدو أنه عمر طويلا اذ توفي سنة ٤١٠ هـ (٣) . ورحل أيضا الى المشرق أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن خزرج ، اشبيلي ، كانت رحلته سنة ٤١٠ هـ ، جاور بمكة وأخذ العلم عن جماعة ثم قفل الى الأندلس سنة ٤١٢ هـ . كان من أهل العلم والعمل والزهد في الدنيا مشاركاً في عدة علوم ، توفي سنة ٤٢١ هـ .

ورحل أيضا الى المشرق أبو محمد حماد بن عمار بن هاشم (١) الزاهد ، قرطبي ، لقي بالقيروان أبا محمد بن أبي زيد الفقيه ، كان حماد بن عمار صالحا زاهدا ورعا مشهور بالخير والصلاح واجابة الدعوى توفي عن مائة عام سنة ٤٣١ هـ (٤) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان ابن سعيد بن ذونين الصديقي ، طليطلي ، كتب بمدينة الفرج عن أبي عمر أحمد بن خلف الزاهد وغيره رحل مع أبيه الى المشرق سنة ٣٨١ هـ فحج ولقي بمكة أبا القاسم عبيد الله بن محمد السقطي البغدادي . كان أبو محمد بن ذونين خيرا فاضلا زاهدا عابدا مجتهدا دينيا متواضعا ورعا سنيا عالما عاملا ويقل انه مجاب الدعوة ، رحل اليه الناس من البلدان ، كانت جل بضاعته قراءة كتب الزهد وروايتها وشيء من كتب الحديث (٥) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو محمد عبد الله بن سعيد بن ليلاج الشنتجياي ، طال جواره بمكة بعد أن رحل سنة ٣٩١ هـ فسمع بها من أبي القاسم عبيد الله السقطي وغيره . كان أبو محمد بن ليساج خيرا عاملا جوادا زاهدا متتبلا منقطعا الى ربه ، يسرد الصوم ولم تكن قرطبة وتوفي سنة ٤٣٦ هـ (٦) .

(١) ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٦ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧١ .

ورحل أيضا الى المشرق أبو العاص حكم بن محمد الجذامي المعروف بابن افرانك قرطبي كانت رحلته سنة ٣٨١ هـ فلقى ابا القاسم السقطي وأبا الفضل أحمد بن أبي عمران الهروي ، كان صالحا ثقة صليبا في السنة متشددا على أهل البدع ، عفيفا ورعا رافضا للدنيا مهينا لأهلها متقبضا عن السلطان توفي سنة ٤٤٧ هـ ودفن بمقبرة أم سلمة وروى على نعشه يوم دفن طيورا لم تعهد كانت ترفرف فوقه وتتبع جنازته (١) .

ورحل أيضا الى المشرق أبو عمر أحمد بن محمد بن عمر الصديقي الزاهد ، يعرف بابن أبي جنادة ، طليطي ، كان من أهل العلم والعمل وترك الدنيا صواما قواما منقبضا عن الناس ملازما لثغور المسلمين توفي سنة ٤٥٠ هـ وحضر جنازته المأمون بن ذي النون (٢) .

٣ - الفتن والثورات التي اندلعت في الأندلس :

لم تكد رياح الفتح الاسلامي تهدأ وتستقر حتى هبت على الأندلس عواصف الفتن والثورات التي عصفت بذلك الصقع الاسلامي البعيد عن مركز الخلافة سواء كان هذا المركز في دمشق أو بغداد ، فلم تستطع الحكومة المركزية لتلك الثورات دفعا وئث تممكن من وقاية الأندلس من هذا الخطر المريع .

لاحت بوادر هذه الفتن مبكرا منذ مقتل عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذي تولى الأندلس اثر عودة أبيه الى المشرق ثم عصفت بالأندلس في عصر الولاة فتنة ميرة تعددت محاورها وتنوعت فكائنات وقائعها بين العرب والبربر حينا وبين الشاميين والبلديين حينا آخر ثم تمخضت عن قتال بين القيسية والكلبية من العرب أنفسهم . فتداخلت الوقائع والاحداث وتفاقت الاخطار حتى أوهنت سواعد المسلمين وأزهقت أرواح الكثيرين منهم وأرغمت بعضهم - خاصة البربر - على الفرار ناكسين الى العدو المغربي ليفقد الاسلام ثلث ما فتحه المسلمون من أراضى الأندلس فاستولت عليه شر ذمة متنامية من نصارى الاسبان كانت قد تخلفت عن معارك الفتح وانزوت جانبا في صخرة قاحلة تدعى صخرة بلاي لكن هذه الشر ذمة انتهزت فرصة انقسام المسلمين

(١) ابن يشكوال السابق المصدر ، ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٩ .

على أنفسهم فتنامت واستولت على ثلث أراضى الأندلس دون جهد ولا قتال •

وإذا كانت هذه الفتنة الأندلسية في عصر الولاة قد يسرت السبيل أمام عبد الرحمن الداخل ليقيم إمارة أموية في قرطبة ، فإن هذه الإمارة الأموية لم تجعل بلاد الأندلس بمنأى عن الحروب وويلاتها ولا بمنجاة من الفتن والثورات وخرابها وإنما أوجدت للفتن والثورات والحروب المترتبة عليها دواعي جديدة وأسباب آخر فاستمرت الثورات والحروب تفرض وجودها على الساحة الأندلسية من فتنة لآخرى طيلة عصر الإمارة الأموية في الأندلس فاستنفذت الحروب والثورات كثيرا من طاقات مسلمي الأندلس وأوهنت قواهم بل لم ينته عصر الإمارة الأموية إلا بعد أن عصفت بالاندلس فتنة ثائية مبيدة أهلكت الزرع والضرع وأزهقت النفوس وأضعفت شوكة المسلمين أمام نصارى الأسبان ، فلما أعلنت الخلافة الأندلسية تعبيرا عن توطد السلطان لعبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر ، لم يكد الأندلسي نعم بعدهما بالاستقرار حتى عادت القلاقل سيرتها الأولى وأطلت الفتنة والحروب برأسها من جديد وجاءت الفتنة هذه المرة أكبر من سابقتها لتعصف بالحكومة المركزية في الأندلس وتمزق الأندلس أشلاء صغيرة عرفت باسم ممالك الطوائف التي كانت جولات المنازعات والحروب بينها أطول بكثير من لحظات الوفاق العابرة ممهدة بذلك الطريق الذي سار المسلمون عليه للخروج نهائيا من الأندلس •

كان من الطبيعي أن تحز هذه الفتن والحروب في نفوس الكثير من أهل الأندلس فهانت الدنيا في أعينهم وجنحوا إلى الزهد كرد فعل لنزعة التكالب على الدنيا والتقاتل من أجل عرضها وزخرفها فعلى سبيل المثال ، كان أبو عمر يوسف بن نصر الأزدي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ استجى الأصل لكنه تحول عن استجيه زمن الفتنة فيها إلى قرطبة صغيرا بعد أن قتل أبوه نصر في تلك الفتنة التي نشبت باستجة بين المولدين والعرب فعاش يوسف في قرطبة زاهدا لا يتلبس بشيء من الدنيا طويل الصمت تغلب عليه العبادة (١) •

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٤ •

وكان أبو محمد خلف بن علي بن فاصر بن منصور البلوي السبتي الزاهد سائحا في الأرض ثم سكن مسجد متعة بقرطبة وتعبده فيه وقصده الصلحاء والزهاد فلما اندلعت الفتنة البربرية أواخر عصر الخلافة خرج أبو محمد فارا منها فتوفي بالبيرة سنة ٤٠٠ هـ (١) .

وكان أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعي من أهل قرطبة . فقيها زاهدا مجاب الدعوة لكنه امتحن في الفتنة البربرية على يد البربر حين تغلبهم على قرطبة محنة أودت بحياته سنة ٤١٣ هـ .

وأدى تمزق الأندلس الى ما يسمى بممالك الطوائف الى زهادة أهل الأندلس في البقاء فيه وصاح شاعرهم ينشد قائلا :

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرم يحكم اتقاخا صوله الاسد
وتجاوبت الصيحة في أرجاء الأندلس تدعو أهله للخروج منه خاصة
بعد سقوط طليطلة في أيدي نصارى الأسبان وأظهر الفقيه الزاهد أبو محمد
عبد الله العسال - زاهد طليطلة المشهور بالكرامات واجابة الدعوة والمتوفي
سنة ٤١٧ هـ - وعيا واضحا بخطورة ما آل اليه الوضع السيء للمسلمين
بعد سقوط طليطلة فأنشد يقول :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها الا من الغلظ
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط (٢)

وهكذا كانت الفتن والثورات والحروب وما تتج عنها من ويلات
عاملا من عوامل ظهور نزعة الزهد في بلاد الأندلس ، ذلك الزهد الذي
لم يقتصر على بغض الدنيا والتقلل من أسبابها وانما امتد أيضا الى نوع
آخر من الزهد هو الزهد في البقاء بالأندلس والدعوة الى الخروج منه
والرحيل عنه خشية الوقوع في أيدي نصارى الاسبان .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٢١ . ورايات

المريزين وغايات المميزين ص ٨١ .

(م ٩ - الزهاد والمتصوفة)

٤ - مالكية أكثر زهاد الأندلس :

بات المذهب المالكي أكثر المذاهب الفقهية السنية انتشارا في الأندلس منذ عصر الأماة ولم يكن ذلك راجع فقط الى أن مالك كان امام دار الهجرة يتطلع اليه أهل الأندلس ويعظمونه تعظيما للبلد الذي يسكنه والذي وفد اليه أهل الأندلس ويعظمونه تعظيما للبلد الذي يسكنه والذي وفد اليه الحجيج منهم كل عام وانما كان أهل الأندلس يميلون أيضا ميلا تلقائيا نحو مذهب مالك لأن تعاليمه الحازمة كانت مبتغى أهل الأندلس وتلاءم مع تطلعاتهم في مذهب حاسم حازم بعد أن عانوا من الخلافات والفتن فضلا عن أن أخلاق مالك وشماله التي يثها في تلاميذه والتزموا بها جعلت للمالكية مكانة مرموقة وسلطانا روحيا على نفوس الأندلسيين كان الأمويون في حاجة الى الاستناد اليه كسند شرعي يدعم سلطانهم السياسي كإمارة خارجة على الخلافة العباسية التي كانت تمثل وقتذاك الخلافة الإسلامية العامة ، ساعد على ذلك أن الامام مالك لم يكن على ود مع العباسيين ولم يتول لهم وظيفة بل أفتى لصالح ذي النفس الذكية العلوي وأثنى على هشام الرضا بن عبد الرحمن بن معاوية الأموي الذي طابت نفسه لهذا الثناء فرفع من قدر فقهاء المالكية ووقرهم وأغدق عليهم العطايا مما أدى الى تأييد متبادل بين الأماة الأموية في قرطبة والفقهاء المالكية في الأندلس تأييد لم ينل منه كثيرا هيج الرضى العارض اذ سرعان ما تقارب الأمراء الأمويون والفقهاء المالكيون من جديد حتى أصبح ما بينهم من تقارب أشبه بتحالف غير مكتوب على التأييد المتبادل بين الأمراء الأموية والفقهاء المالكية ، يعلى كل منهما شأن الآخر ويمزجاه عند العامة فوصل شأن الفقهاء الى أن تكونت من كبارهم جماعة رسمية سميت جماعة الفقهاء المشاورين وعرف رئيسها باسم رأس الفتيا أو رئيس البلد أو شيخ المسلمين ، وكان معظم هؤلاء الفقهاء المشاورين من المالكية حتى توهم البعض أن أمراء الأندلس الأمويين قد اتخذوا المالكية مذهباً رسمياً لدولتهم (١) .

كان نفوذ جماعة الفقهاء المشاورين عظيماً تصعب معارضته يتبين ذلك - على سبيل المثال - من موقفهم من القاضى يحيى بن معمر الالهاني الذي كان فقه اشبيلية في وقته ، ورعا زاهدا فاضلا اذا أشكل عليه أمر من أحكامه لا يأخذ فيه برأى فقهاء قرطبة وانما يكتب فيه الى أصبغ بن الفرج بمصر ونظرائه من المصريين طالبا الرأي فكان فقهاء قرطبة يسخطون عليه

(١) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٢٦ - ٣٥ .

لذلك فيدمونه ويتبعون عثراته ويغضونه الى الناس ، وكان أشدهم عليه زعيم الجماعة يحيى بن يحيى الليثي الذي ظل يسمى في تجريج يحيى بن معمر الالاني حتى عزل عن القضاء (١) .

كان اعتراض شيوخ المالكية — لو حدث — عقبة كئود في طريق انتشار نزع الزهد اذا ذم هؤلاء الشيوخ تلك النزعة وحملوا على أهلها ، لكن ذلك لم يحدث لأن أغلبية الزهاد في الأندلس كانوا من المالكية ، بل كان بعضهم من كبار فقهاء ، فعلى سبيل المثال كان زياد شيطون الزاهد من كبار فقهاء المالكية في الأندلس فهو واحد من أهم الرواة عن مالك وله عنه سماع معروف بسماع زياد (٢) وكان عيسى بن دينار الفافقي زاهدا ومن كبار فقهاء المالكية تدور عليه الفتيا في وقته لا يتقدمه أحد فيها (٣) وكان سعيد بن حسان زاهدا ومن كبار فقهاء المالكية أيضا وكان في وقته مشاورا مع الشيخ يحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وقاسم بن هلال حتى توفي سنة ٢٣٦ هـ (٤) وكان هارون بن سالم زاهدا ومالكا منقطع القرين في الزهد وفي العلم ، توفي سنة ٢٣٨ هـ (٥) وكان أبو خالد مالك بن علي بن مالك زاهدا ومالكا له مختصر في الفقه على مذهب مالك ، توفي سنة ٢٦٨ هـ (٦) وكان يحيى بن قاسم بن هلال زاهدا ومالكا توفي سنة ٢٧٢ هـ (٧) وكان أحمد بن قزلمان المؤدب زاهدا وحافظا للفقه على مذهب مالك ، توفي سنة ٣٧٧ هـ (٨) وكان أبو أيوب عتاب ابن هارون زاهدا وحافظا للرأي على مذهب مالك ، توفي سنة ٣٨١ هـ (٩) وكان أحمد بن خلوف المسيلي زاهدا وعالما بالمسائل حافظا لها على مذهب مالك ، توفي سنة ٣٩٣ هـ (١٠) .

-
- (١) ابن حيان : المقيس ، نشر مكي ، ص ١٩٠ .
 (٢) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٣١ والحميدي : المصدر السابق ص ٤٧٢ . وابن سميد : المغرب ، ج ٢ ص ٢٤ وابن فرحون : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤ .
 (٣) ابن الفرضي ، المصدر السابق ج ١ ص ١٥٤ .
 (٤) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٢٠ .
 (٥) نفس المصدر ص ٢٢١ .
 (٦) الحميدي : المصدر السابق ص ٥٥٢ .
 (٧) ابن الفرضي : المصدر السابق ج ١ ص ١٨٣ .
 (٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٣ .
 (٩) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٠٠ .

ويمدنا ابن فرحون في ديباجة وابن عياض في مداركة بقائمة طويلة من علماء المذهب المالكي في الأندلس نزعوا إلى الزهد واتصفوا به ولقبوا بالزهاد منهم - على سبيل المثال - ابراهيم بن محمد باز المعروف بابن القزاز المتوفى بطلبلة سنة ٢٧٤ هـ (١) وعبد الملك بن الحسن بن زريق المعروف بزوفان ، تحول عن مذهب الاوزاعي إلى مذهب مالك وتوفى سنة ٢٣٢ هـ (٢) وقاسم بن ثابت بن حزم القلعي المتوفى سنة ٣٠٢ هـ (٣) وأحمد بن خالد بن يزيد المتوفى سنة ٣٢٢ هـ (٤) وأبو بكر بن محمد بن اللباد المتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٥) واسحاق بن ابراهيم بن مسرة المتوفى سنة ٣٥٢ هـ (٦) ومحمد بن اسحاق بن منذر بن السليم المتوفى سنة ٣٦٧ هـ (٧) وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الالبيري الزاهد المالكي المتوفى سنة ٣٩٩ هـ (٨) وأبو بكر محمد التجيبي الحصار جد القاضي أبي الوليد الباجي لأمة ، توفى سنة ٤٠٦ هـ (٩) .

هؤلاء وغيرهم كثيرون كانوا يتخذون الزهد نزعة والمالكية مذهباً فجمعوا بين الزهد والمالكية وجنبوا الزهد معارضة شيوخ المالكية وكبار فتنائها في الأندلس مما أفسح الطريق أمام الزهد لينتشر في الأندلس دون معارضة تذكر فكان لموقف المالكية الموافق ونزوع رجالها إلى الزهد أثر كبير في تقبل أهل الأندلس لتلك النزعة واقبالهم عليها .

٥ - حركة الزهاد في المجتمع الأندلسي :

لم يكن الزهد في الأندلس نزعة سلبية تقوم على اعتزال الناس واجتنابهم وعدم الاكتراث بأمورهم ولكن الزهد في الأندلس كان نزعة ايجابية نشيطة وفعالة في المجتمع الأندلسي يهتم الزهاد من خلالها بشئون هذا المجتمع ويسهمون في حركته الحياتية ويعنون بشئون أفرادهم وبحياتهم وأحوالهم فكانوا يعلمون أهل الأندلس أمور دينهم ويفقهونهم في علوم

(١) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٩ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٤٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٩٦ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩٦ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٨) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٩) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر بعد أن يسلكوا هم أنفسهم الطريق القويم فيتخذهم للناس أسوة حسنة يتأسون بها وكان من الزهاد من لا تأخذه في الله لومة لائم ويتصدى لمظالم الحكام دافعا آذاهم عن الناس ، وكان من الزهاد من يشارك في الجهاد في سبيل الله مدافعا عن المسلمين مرابطا في الثغور والمحارس الأندلسية أو غازيا في الحملات المتوجة لغزو نصارى الأسبان ومدافعتهم عن دار الاسلام .

كان لهذه الحركة النشيطة للزهاد في المجتمع الأندلسي جميل الأثر في نفوس أهل الأندلس فيميلون الى الزهد ويجلون الزهاد ولدينا أمثلة كثيرة عن تنوع حركة الزهاد الايجابية في المجتمع الأندلسي ، فعلى سبيل المثال كان عيسى بن دينار واحد من الذين اتقنوا سلوك الحكم الربضي وحرصوا عليه العامة يوم هيج الربض المشهور (١) ، وكان أبو العجنس الزاهد لا يأبه كثيرا بالحكام ، مر عليه الحكم الربضي ذات يوم وهو على سقف له يبينه فسلم عليه الحكم وأشار اليه بالخيزران فرد عليه أبو العجنس السلام من موضعه وأشار اليه بالأطربة فكلم في ذلك أبو العجنس فقال : أشار الى بالخيزران فأشرت اليه بالأطربة (٢) وكان أبو ابراهيم اسحاق بن مسرة الزاهد قليل الهيبة للسلطان متصرفا مع الحق حيثما تصرف لا تأخذه في الله لومة لائم فعظمة الحكم المستنصر (٣) .

وكان كثير من الزهاد يحرصون على المشاركة في الجهاد بل كان منهم من يفضل الجهاد على عرض الدنيا وسلطانها منهم - على سبيل المثال - عيسى بن رفاعه بن الحارث المذحجي من أهل ريه ، أراد الحكم الربضي أن يوليه قضاء الجماعة بقرطبة فقر منه ولحق بالثغر مجاهدا (٤) وكان النعمان ابن عبد الله الحضرمي من الزهاد المجاهدين استشهد في أقصى ثغور الأندلس (٥) . وكان نعم الخلف بن أبي الخصيب الزاهد التطيلي محاربا كثير الرباط والغزو ، استشهد في رمضان سنة ٢٩٨ هـ (٦) .

-
- (١) ابن القرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣١ .
 - (٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٠٨ .
 - (٣) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٨ .
 - (٤) ابن القرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٧ .
 - (٥) الضبي : المصدر السابق ، ص ٤٧٨ .
 - (٦) ابن القرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٩ .

وكان محمد بن زكرياء الزاهد من المجاهدين ، غزا مع الخليفة عبد الرحمن الناصر غزاة وحشمة وفيها توفي بمحلة قلهرة سنة ٣٣٢ هـ (١) . وكان أبو الحكم مخارق المعافى الزاهد مجاهدا ، خرج للجهاد في غزوة قلنبرية الأخيرة فاستشهد في المعركة سنة ٣٧٧ هـ (٢) . وكان أبو محمد عبد الله بن محمد بن قاسم بن حزم الثغري القلعي الزاهد يلزم الجهاد والعبادة لا يخشى السلطان ولا يخاف في الله لومة لائم من الرجال الزهاد الذين لا نظير لهم في لباس ولرجولية ، مشهور بالبسالة مذكور الشجاعة وكانت الرحلة اليه من جميع نواحي الثغر ، توفي بقلعة أيوب سنة ٣٨٣ هـ (٣) . وكان أحمد بن خلوف المسيلي الزاهد مجاهدا سكن الثغر أعواما كثيرة وشهر فيه وعلا ذكره هناك منسوباً الى لباس والنجدة ، توفي سنة ٣٩٣ هـ (٤) وكان أبو عثمان سعيد بن موسى الغساني زاهدا من البيرة ، أقام للرباط بتطيلة مكثرا من الجهاد حتى استشهد بمعتراً الماشه سنة ٣٩٣ هـ (٥) . وكان أبو حبيب عبد الرحمن بن حبيب من الزهاد المجاهدين دخل الأندلس مجاهدا فسكن الثغر مرابطا وشهر فيه حتى توفي قبيل الأربعمئة (٦) . وكان ابن أبي جناده أبو عمرو أحمد بن محمد بن عمر الصدي من الزهاد المرابطين بشعور المسلمين بالأندلس حتى توفي سنة ٤٥٠ هـ (٧) .

ومن الزهاد من تولى القضاء فأحسن السيرة فيه مثل القاضي مسرور ابن محمد بن سعيد بشير ، ولاء عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة بقرطبة فكان صالحا زاهدا يحمل خبزه الى القرن بنفسه (٨) وكان القاضي يحيى بن معمر الالهاني ورعا زاهدا فاضلا غفيرا (٩) . وكان القاضي وهب الله بن حسين زاهدا ، تولى قضاء الجزيرة وشذونه أيام الأمير

-
- (١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٣ .
 - (٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥١ .
 - (٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٤٤ والضمي . المصدر السابق ، ص ٣٣٤ . وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٧ .
 - (٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٣ .
 - (٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٧٦ .
 - (٦) القيرواتي : ١ نموذج الزمان ، ص ١٤١ .
 - (٧) ابن يشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٩ .
 - (٨) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
 - (٩) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

محمد بن عبد الرحمن (١) ، وتولى أبو بكر محمد بن اسحاق بن السليم الزاهد قضاء الجماعة للحكم المستنصر بعد وفاة القاضي منذر بن سعيد البلوطي سنة ٣٥٦ هـ (٢) وتولى خلف بن سليمان الأوريوالي الزاهد قضاء شاطبة ثم دانية ثم استعفى ولزم الانقباض حتى توفي سنة ٥٠٥ هـ (٣) . وقد أحسن هؤلاء القضاة الزهاد السيرة في قضائهم وتوخوا العدل في أحكامهم مما استمال إليهم كثير من الناس فنهجوا نهجهم في النزوع الى الزهد .

وإذا كان بعض الزهاد ممن ذكرنا - وغيرهم - قد تولى القضاء فقد استعفى زهاد آخرون من توليته خوفا على دينهم من عرض الدنيا منهم - على سبيل المثال - زياد شبطون الذي أراد هشام الرضا ابن عبد الرحمن أن يوليه القضاء ففر هاربا بنفسه (٤) ومنهم عيسى ابن رفاعة الزاهد أراد الحكم بن هشام أن يوليه قضاء الجماعة ففر الى الثغر الأعلى (٥) وأبو محمد قاسم بن ثابت بن حزم الزاهد الناسك الورع ، سأله الأمير أن يلى القضاء فامتنع وتوفي سنة ٣٠٢ هـ (٦) وحماة بن عمار بن هاشم الزاهد القرطبي المتوفى سنة ٤٣١ هـ عن مائة عام ، دعاه على بن حمود الحسني الى تولي قضاء قرطبة فصرف الرسول على عقبه واتهمه (٧) .

وإذا كان بعض الناس قد أعجبوا بحسن سيرة القضاة الزهاد فقد كان منهم آخرون يسترق قلوبهم اعراض بعض الزهاد عن القضاء خوفا على دينهم من عرض الدنيا فكان لهذا وذاك أثره في استمالة أهل الأندلس الى الزهد .

ومن جوانب حركة الزهاد في المجتمع الأندلسي تولى بعضهم أمانة الصلاة في مواضعهم منهم - على سبيل المثال - عثمان بن سعيد

-
- (١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٨ .
 - (٢) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٦ .
 - (٣) الضبي : المصدر السابق ص ٢٨٤ .
 - (٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤ .
 - (٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩٧ .
 - (٦) ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٧ .
 - (٧) ابن يشكوال : المصدر السابق ج ١ ص ١٥٦ .

ابن كليب الالبيري الزاهد المتوفى سنة ٣٤١ هـ ، ولي الصلاة بحاجزة البيرة (١) وأبو عمر أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن بن قاسم الأزدي ، قرطبي ، يعرف بابن المشاط ، كان زاهدا ورعا ولي الصلاة بقرطبة بعد محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الى أن توفي سنة ٣٥٢ هـ (٢) وأصبح ابن قاسم بن أصبح الزاهد ، استجى ولي الصلاة باستجة وأحكام قضائها الى أن توفي سنة ٣٦٣ هـ (٣) وأحمد بن عبد السلام بن زياد اللخمي من أهل ريه ، كان عالما فاضلا ذا عفاف وزهد ، ولي الصلاة بموضعه حتى توفي بعد سنة ٣٧٠ هـ (٤) وأحمد بن عبد الله القيني من أهل ريه ، كان فقيها عالما زاهدا منقبضا كثير التلاوة والذكر حافظا للمسائل بصيرا بالفرائض ، وولي الصلاة بموضعه (٥) وخلف بن سعيد ابن محمد بن خير الزاهد من أهل طليطلة ، سكن قرطبة ، كان صالحا ورعا متقللا من الدنيا وكان صاحب صلاة الفريضة بالمسجد الجامع بقرطبة ، توفي سنة ٥١٥ هـ ودفن بالربض في جنازة احتشد لها الناس وبلغ من كثرتهم أنهم ما انصرفوا عنها الا مع المغرب (٦) .

وكان من جوانب حركة الزهاد في المجتمع الأندلسي اهتمام الكثير منهم بالعلوم الدينية وقيامهم بتدريسها فكان للكثير منهم حلقات تدريس ومجالس علم يؤمها الطلاب ويفد اليها الناس من أنحاء شتى للسمع عليهم والتلقى عنهم ، فعلى سبيل المثال ، كان زياد شبطون من أوائل من أدخلوا فقه مالك الى الأندلس وكان عيسى بن دينار فقيها عالما زاهدا يرى محمد بن وضاح الزاهد أنه هو الذي علم أهل الأندلس الفقه (٧) . وكان بقي بن مخلد زاهدا من حفاظ المحدثين وأئمة الدين ، ملا الأندلس علما وألف كتباً حسنا منها كتابه في التفسير الذي يعده ابن بشكوال أحسن التفاسير على الإطلاق ويراها أفضل من تفسير الطبري ومنها

-
- (١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
 - وابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٥ .
 - (٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤ .
 - (٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٠ .
 - (٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٠ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٢ .
 - (٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١ .
 - (٦) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٦ .
 - (٧) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

مصنفه الكبير في الحديث وغير ذلك من مصنفات ، وقد أصبحت الأندلس على يده - ويد محمد بن وضاح بن بزيع - دار حديث بعد أن كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١) لذلك يرى الدكتور مؤنس أن بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح أحدثا في الأندلس انقلابا حاسما في الفقه أدى الى ظهور جماعة من الشيوخ لا يقتصرون على فقه مالك وتلاميذه وإنما تربوا في مدرسة الحديث وتميزوا بالعلم الواسع (٢) .

وكان أبو عبد الله محمد بن فطيس القافقي الالبيري الزاهد عالم البيرة في وقته ، اليه كانت الرحلة حتى توفي سنة ٣١٩ هـ (٣) . وكان محمد بن أحمد بن يحيى الزهرى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ معلما كتاب يجتمع اليه أهل الاحتساب والمعلمون ليقروا عليه (٤) وكان عبد الرحمن بن عيسى ابن محمد بن دراج من أهل طليطلة ، واليه كانت الرحلة في طلب الحديث وكتب الناس عنه كثيرا حتى توفي سنة ٣٦٣ هـ (٥) . وسمع الناس كثيرا من أبي عمر أحمد بن خلف بن محمد بن قزتون المديوني الزاهد الراوية الثقة المتوفى سنة ٣٧٧ هـ (٦) .

وكان لأبي عمر أحمد بن عبد الرحمن العبسي الاشبيلى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ تأليفا في الفقه أسماه الاقتضاء وآخر في الزهد أسماه الاستبصار (٧) . وكان أبو أيوب عتاب بن هارون بن عتاب الزاهد يلقي دروس العلم بشذوته وقد رحل اليه ابن الفرضى صاحب كتاب علماء الأندلس وقرأ عليه كثيرا وأجاز له ما سمعه عليه ، وقد توفي أبو أيوب سنة ٣٨١ هـ (٨) .

-
- (١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٣ .
والحميرى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٤ . وابن بشكوال :
المصدر السابق ج ١ ص ١١٦ .
(٢) شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٣٦ .
(٣) المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٢ .
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٤ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٣ .
(٦) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦ .
(٧) نفس : المصدر ، ج ١ ص ٧ .
(٨) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٠ .

وكان أبو القاسم سهل بن إبراهيم بن سهل بن العطار من أهل استجة،
كان عالماً محدثاً زاهداً ، سمع الناس منه وطال عمره حتى ساوى الصغار
فيه الكبار وكان ممن قرأ عليه ابن الفرضي ، وتوفي أبو القاسم سنة
٣٨٧ هـ (١) .

وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي المعروف بابن الخلاص الزاهد
من أهل بجانة وسمع منه غير واحد ، توفي سنة ٣٩٤ هـ (٢) .
وتوفي سنة ٣٩٧ هـ (٣) .

وتوفي في نفس العام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن محمد الأنصاري
الزاهد بمدينة ريه ، حدث وسمع منه كثير من الناس وأجاز لابن الفرضي
جميع رواياته (٤) . وكان أبو عثمان سعيد بن محمد الكلبي الزاهد
الاشييلي واسع الرواية كثير العناية بالعلم ، روى الناس عنه كثيرا باشييلية
وتوفي سنة ٣٩٧ هـ (٥) .

وكان أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمين الاليسري الزاهد
المتوفى سنة ٣٩٩ هـ من كبار المحدثين والعلماء الراسخين ، أجل أهل وقته
بالأندلس قدرا في العلم والرواية والحفظ للرأي ، متفنا في الآداب قارضا
للشعر له توافيف عديدة متداولة في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين
وأشعار كثيرة ، من كتبه كتاب في الشروط على مذهب مالك بن أنس ،
وكتاب حياة القلوب في الرقائق والزهد ، وكتاب أنس المريدين في الزهد
والمواعظ المنظومة في الزهد ، وكانت إليه الرحلة الى البيرة (٦) .

وكان أبو محمد خلف بن علي بن ناصر بن منصور السبتي الزاهد
يسكن مسجد متعة بقرطبة يقصده فيه الصالحاء والزهاد وسمع منه
جماعة من علماء قرطبة وغيرها وكانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ (٧) .

(١) ابن الفرضي المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) الحميري : المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٦) وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٧) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٧ .

وكان أبو المطرف عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين زاهداً طليطلياً مشهوراً بالعلم والعمل ، قرأت عليه كتب الزهد والرقائق ووعظ الناس بها وكان الناس يرحلون إليه بطليطلة لسعة روايته ، توفي سنة ٤٠٣ هـ (١) .

وكان أبو محمد عبد الله بن أبي المطرف عبد الرحمن بن عثمان بن ذنين لا يقل شهرة بطليطلة عن أبيه ، كان خيراً فاضلاً زاهداً عابداً مجتهداً دنياً ورعاً عالماً عاملاً ، قيل أنه مجاب الدعوة ، رحل إليه بطليطلة الناس من مختلف البلدان وكانوا يتبركون بلفائه ويقرأون عليه كتب الزهد التي كانت جل بضاعته وشيء من كتب الحديث ، توفي سنة ٤٢٤ هـ فازدحم الناس لجنازته فما رأى على جنازة بطليطلة ازدحاماً مثل ازدحام الناس عليه (٢) .

وكان الناس يقصدون أبا القاسم خلف بن محمد الأنصاري السراج الزاهد بقرطبة يتبركون بدعائه ولفائه ويسمعون منه بعض كتب الزهد ، توفي سنة ٥٠٠ هـ (٣) .

وكان حسين بن محمد بن حيون الصوفي المعروف بابن سكرة امام محدث زاهد كثير الرواية ، لم يكن بشرق الأندلس في وقته أحد مثله في تقييد الحديث وضبطه والعلو في روايته سمع منه الكثيرون ، توفي سنة ٥١٤ هـ (٤) .

لقد كانت حركة الزهاد في المجتمع الأندلسي متعددة الجوانب ، وكانت حركتهم ايجابية تتصل بحركة المجتمع وتتفاعل معها فهي حركة نشيطة مثمرة أفادت أهل الأندلس واستمالتهم وجعلتهم يقسحون صدورهم للزهد والزهاد مما كان له أثره ليس في ظهور نزعة الزهد في الأندلس فحسب بل وذيوعها أيضاً هناك .

(١) لابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٧٥ .

(٤) الضبي : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

مما تقدم يتضح لنا أن عوامل ظهور نغمة الزهد في بلاد الأندلس شبيهة بالعوامل التي أدت الى ظهور تلك النزعة في بلاد المغرب لتبين - بشكل أو بآخر - وجها من أوجه الوحدة التاريخية للعدوتين الأندلسية والمغربية خلال تاريخهما الاسلامي ولتؤكد على أن هذه الوحدة - أو على الأقل التقارب - لم تكن في الجانب السياسي وحدة وانما كانت أيضا في الجوانب الحضارية والثقافية وليس أدل على ارتباطهما الثقافي حينذاك من وجدتهما المذهبية المتمثلة في غلبة المذهب المالكي على أهلها من ناحية ، ومن ناحية أخرى انتشار الزهد والزهاد في العدوتين ، غير أنه من الملاحظ وجود بعض الفوارق البسيطة في موقف أهل الأندلس من الزهاد عن موقف أهل المغرب منهم ينبغي علينا ابرازها .

فلعلنا لا نجانب الصواب اذا قلنا ان أهل الأندلس كانوا لا يرتقون في تقديرهم لزهادهم الى مستوى تقدير أهل المغرب لزهادهم ، فقد كان أهل المغرب أميل الى تبجيل زهادهم الى حد التقديس واضفاء صفات الولاية عليهم ونسب الكرامات اليهم وجعلوا القول بالكرامات - أحيانا - شرطا للاتسبب الى مذهب المدنين ، قال أبو عبد الله محمد بن الفتح المرجى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ « من أنكر الكرامات فليس من أهل المدينة . » وما أدركت أحدا أقننى به في ديني بالشرق ولا بالمغرب الا وهو يقول بالكرامات ويترين يذكرها في كل الأوقات » (١) .

والمتصفح لتراجم الزهاد في كتب التراجم المغربية - كطبقات أبي العرب ورياض النفوس للمالكي ومعالم الايمان للدباغ وغيرها - يتبين له بوضوح أن المغاربة كانوا لا يتشككون في ولاية الكثير من زهادهم ولا كرامات العديد من أوليائهم وانما - على العكس من ذلك - يؤكدونها ويجزمون بها ، فعلى سبيل المثال تظهر نبرة الجزم في عبارة المالكي « ظهرت له براهين وكرامات » التي ينسب فيها الكرامات الى عمرو بن الأسود الحامي المتعبد بحصن الحامة (٢) وتظهر أيضا في قول الدباغ عن دمنة القيروان « كان بهذه الدمنة خمسة عشر رجلا كلهم مستجاب الدعوة منهم ابراهيم بن المضاء له كرامات واجابات وكان يستسقى به الغيث » (٣) وتكرر عند أبي العرب عبارة « لا يشك في أنه مستجاب » مثلما قال عن

(١) المالكي : رياض النفوس ، ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧٧ .

(٣) معالم الايمان ، ج ٢ ص ١٧٤ .

أبي زياد رباح بن زياد اللحى (١) والبهلول بن راشد (٢) . ولم تنوقف الكرامات التي أضفاها أهل المغرب على زهادهم عند حد اجابة الدعوة أو أن يستسقى بهم الغيث ، وأما نسبوا اليهم ما هو أكبر من ذلك بكثير كمشى بعضهم فوق الماء (٣) أو التحدث مع الخضر (٤) أو تحويل أحدهم الماء الى لبن ثم اعادته ماء مرة أخرى (٥) . وغير ذلك من خوارق تعج بها كتب التراجم المغربية .

لكن تقدير أهل الأندلس لزهادهم لم يرق الى هذا المستوى ، فمح أنهم كانوا يبجلون زهادهم ويتبركون ببعضهم فانه من النادر أن نجدهم ينسبون اليهم شيئا من الكرامات أو الايات ببعض الخوارق ، يظهر ذلك جليا في تراجم الزهاد الأندلسيين التي اشتملت عليها كتب التراجم الأندلسية فأقصى ما أثبتته هذه التراجم لبعض الزهاد الأندلسيين أنهم كانوا مستجابو الدعوة بل ان ذلك لم يجزم به الا للقلة منهم ، فلا نجد ابن القوضي — على سبيل المثال — يتعدى قوله في أغلب الأحيان عبارة « كان يقال انه مجاب الدعوة » (٦) ولم يذهب ابن حيان الى أبعد من ذلك كثيرا ، من ذلك . قوله عن معاذ بن عثمان الشعباني « كانوا يعدونه مجاب الدعوة » (٧) . وقد ردد ابن بشكوال أيضا عبارة « يقال انه كان مجاب الدعوة » (٨) وقد يصمد بها في بعض الأحيان الى مستوى الترجيح مثل قوله « يشار اليه بالصلاح واجابة الدعوة » (٩) لكنه لم يتعد ذلك بأي حال من الأحوال .

وهكذا لم ينسب أحد من أهل الأندلس الى الزهاد الأندلسيين — حتى القرن الخامس الهجري — شيئا من الخوارق أو الكرامات

-
- (١) طبقات علماء إفريقية ص ١١٨ .
 - (٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ .
 - (٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦١ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٠٥ .
 - (٥) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٩٣ ، ج ١ ص ٣٠٠ ، ج ٢ ص ١٦٨ .
 - (٦) القتبس ، نشر مكى ، ص ٢٢٠ .
 - (٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦١ .
 - (٨) الصلة ، ج ١ ص ٢٦٤ .
 - (٩) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٦ ، ص ١٧٦ .

ولم تسجل كتاب التراجم الأندلسية شيئا من هذا القبيل الا في النادر ، ولعل من الاشارات النادرة التي وردت عن الكرامات في تراجم بعض الزهاد الأندلسيين ما ورد عند ابن بشكوال عن ابراهيم بن محمد ابن شنظير الأموى الطليطلى أنه « كان يسمع كتب الزهد والكرامات » (١) فسماع حكاوى الكرامات - وليس ادعاء الاتيان بها - هو أقصى ما نسبته ابن بشكوال لزاهد شهير بارز كابن شنظير ، وعلى هذا النحو كانت نظرة أهل الأندلس الى زهادهم ولا بد أن لذلك أسبابه .

أغلب الظن أن سبب التفاوت بين نظرة كل من المغاربة والأندلسيين الى زهادهم لم يكن سببا مذهبيا ولا صلة له بالمذهب المالكي الذي كان سائدا بين أهل المغرب وأهل الأندلس على السواء كما أنه كان غالبا على أغلبية الزهاد هنا وهناك فلا مناص اذن من البحث عن سبب آخر ولعله يكون سببا سياسيا !

فبينما كان الزهاد المالكية في بلاد المغرب على خلاف لا يكاد أن ينقطع مع حكام افريقية من الأغلبية ثم العبيدين ، منحازين في ذلك الى جانب عامة أهل المغرب ضد الحكام - خاصة العبيدين - ولم يبالوا في سبيل نصرة العامة بصنوف الأذى التي تلحق بهم من قبل هؤلاء الحكام بل قاوموهم بشدة جعلت أهل المغرب يجلبون زهادهم ويرفعون بعضهم الى درجة الشهداء والقديسين ويضعون عليهم صفات الولاية وينسبون اليهم الخوارق والكرامات تعويضا نفسيا عن الاحباطات التي تصيب المغاربة من جراء ابداء الحكام لهم من ناحية وتجديدا أو احياء لأمل هؤلاء المغاربة وطموحاتهم الدائمة في الخلاص من هؤلاء الحكام ، هذا الخلاص الذي وإن عجز المغاربة عن تحقيقه من الناحية الواقعية فلا أقل من يأملوا في تحقيقه على يد زهادهم الذين يتصدون للحكام ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر والبغى ، فهؤلاء الزهاد عند المغاربة بمثابة الأبطال القوميين ويجب أن يتحلوا بصفات فوق العادية تمكنهم من التصدي للحكام فقام محبيهم - أو مريديهم ان صح التعبير - باضفاء صفة الولاية اليهم ونسبوا اليهم الكرامات والاتيان بالخوارق .

أما الزهاد الأندلسيين فلم يتوفر لهم مثل هذا المناخ السياسي فقد كان حكام الأندلس - فيما خلا الحكم الرضى - على وفاق طويل مع فقهاء المالكية خاصة الزهاد منهم ، ولم يشهد الأندلس مثل هذه المعارضة الصاخبة للحكام من جانب المالكية على النحو الذى شهدته بلاد المغرب ولم يتحمل زهاد الأندلس مثيلا للأذى الذى تحمله زهاد المغرب فى سبيل حماية العامة والدفاع عنهم ضد ظلم الحكام وجورهم ، ولم يستشهد أحدهم فى سبيل ذلك شهادة ترقى به الى مصاف الشهداء والقديسين ومن ثم لم يتسن لأحد منهم أن يبلغ فى نفوس أهل الأندلس تلك المكانة التى وصل اليها كبار الزهاد المغاربة فى نفوس أهل المغرب •

وعلى الرغم من ذلك فقد كان أهل الأندلس يجعلون زهادهم ويتبركون بهم لكنهم توقفوا فى ذلك عند حد التجليل دون أن يصلوا به الى مستوى الولاية أو التقديس ، وليس معنى ذلك أن الزهد كان فى الأندلس أقل انتشارا عنه فى بلاد المغرب ولكنه يعنى أن الزهد فى الأندلس كان أكثر اعتدالا وأقل صخبا عنه فى بلاد المغرب وقد نجد تفسيراً لذلك فى الاختلافات النسبية السياسية والحضارية للعدوة الأندلسية عن العدوة المغربية ، إذ أن الوحدة التاريخية بين العدوتين فى العصر الإسلامى لا تنفى وجود بعض الفوارق النسبية البسيطة فى هذا الأمر أو ذاك •

تصاعد ترعة الزهد فى الأندلس

وفد الى الأندلس فى وقت مبكر من تاريخه الإسلامى نفر من الزهاد المشاركة - على نحو ما أشرنا آنفا - كان من أوائلهم النعمان بن عبد الله ابن النعمان الحضرمى الذى كان صالحا زاهدا دخل الأندلس مجاهدا فى فتوجه الأولى وجاء من الأندلس الى سليمان بن عبد الملك بخبر فتح تم هناك لكنه طلب من الخليفة أن يعيده الى الأندلس فعاد اليه وظل مجاهدا حتى استشهد فى أقصى الثغور هناك (١) من تاريخ لا نعرفه على وجه التحقيق لكننا نهم أنه كان فى أوائل القرن الثانى الهجرى •

وأغلب الظن أن النعمان بن عبد الله الحضرمى لم يكن زاهدا الأندلس الأوحده فى وقته وإنما عاصره زهاد آخرون لم تمدنا المصادر التى وصلت

(١) الحميرى : المصدر السابق ص ٣٥٨ ، الضبى : المصدر السابق

الينا بأسمائهم لكن ذلك لا ينفي وجودهم لكن وجود النعمان بن عبد الله الحضرمي ومعاصريه لا يعدو كونه مجرد ارهاصة بظهور نزعة الزهد في الأندلس اذ أن البداية الحقيقية لتلك النزعة لم تكن قبل أواخر القرن الثاني الهجري في الفترة التي ينتمي اليها فرقد بن عبد الله الجرشى أول زاهد من أصل أندلسي تصل الينا ترجمته : كان من أهل سرقطة زاهدا عابدا عالما يقال انه مجاب الدعوة وكانت له رحلة ، استنزله عبد الرحمن ابن معاوية الداخل من سرقسطه - بعد استيلائه عليها - الى قرطبة فأقام بها السنوات السبع الأواخر من اماره عبد الرحمن الداخل حتى وفاة الداخل سنة ١٧٣ هـ ، فلما تولى هشام الرضا اماره الأندلس بعد أبيه عبد الرحمن عاد فرقد بن عبد الله الى مدينته سرقطة وظل بها الى أن توفي في اماره هشام (١) أى قبل صفر سنة ١٨٠ هـ تاريخ وفاة الرضا .

ويبدو أن الزهد أخذ في الانتشار بين أهل الأندلس وقتذاك اذ أخذت تراجم الزهاد من أهل الأندلس تترى وتنوالى في تزايد تدريجى فكان منهم زياد شبطون المتوفى سنة ٢٠٤ - وكان فقيها زاهدا يعد أول من أدخل فقه مالك الأندلس ، أراد هشام الرضا أن يوليه على القضاء فخرج شيطون هاربا بنفسه ، غلب الزهد على ظاهره وباطنه (٢) كما كان منهم عيسى ابن دينار المافقى كان اماما في الفقه يعده البعض أفضه من يحيى بن يحيى الليثى وكان زاهدا على درجة عالية من الزهد والعبادة والورع يقال انه مجاب الدعوة (٣) وقد عاصر شيطون وعيسى بن دينار - عدد من الزهاد منهم - على سبيل المثال - أبو العجنس الزاهد ، كان حيا في اماره الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) اذ روى عنه أن الحكم مر عليه وهو يبنى سقف له فسلم عليه الحكم وأشار اليه بالخيزران فرد أبو العجنس عليه السلام وأشار بالأطرله ، وكان أبو العجنس يسكن غدير بنى ثعلبة (٤) . ومنهم عباس بن رفاعه المذحجى من أهل ريه ، كان فقيها زاهدا نبذ الدنيا

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٣ .
(٢) الحميرى : المصدر السابق ص ٢١٨ ، الضبى : المصدر السابق ص ٢٩٤ ، وابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤ .
(٣) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٣١ ، والحميرى : المصدر السابق ص ٤٧٢ ، الضبى : المصدر السابق ص ٤٠٢ ، وابن الفرضى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٣١ ، وابن سعيد : المصدر السابق ص ٤٠٢ ، وابن فرحون : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤ .
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٨ .

بالثغر الأقصى (١) وأبو عبد الله محمد بن عبد الله من أهل قرطبة ، رحل وقرأ القرآن على عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش وبعد عودته الى الأندلس استأد به الحكم بن هشام لبنيه ، وكان أبو عبد الله عالما بالقراءات زاهدا (٢) .

هكذا كانت بداية نزعة الزهد في الأندلس في أواخر القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث ، ثم تزايدت أعداد الزهاد في القرن الثالث لتدل على سعة انتشار الزهد في بلاد الأندلس وكان من متقدمي زهاد هذا القرن من أخذ عن عيسى بن دينار منهم ابنه محمد بن عيسى بن دينار الذي كان فقيها زاهدا خرج من الأندلس منفيا مع أهل الربض وحضر معهم فتح كريت (٣) وعبد الملك بن الحسن بن زريق المعروف بزولان ، كان فقيها ورعا وزاهدا فاضلا ، تولى قضاء طليطلة وتوفي بها سنة ٢٣٢ هـ (٤) وأبو عمر هارون بن سالم ، من أهل قرطبة ، سمع من عيسى بن دينار وغيره ، وكان منقطع القرين في الفضل والزهد والعلم وكان يقال انه مجاب الدعوة توفي في الأربعين من عمره سنة ٢٣٨ هـ (٥) .

وكان من الزهاد المتقدمين في القرن الثالث الهجري أبو عثمان سعيد ابن حسان مولى الحكم بن هشام ، من أهل قرطبة ، رحل الى المشرق سنة ١٧٧ هـ فروى عن عبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم وأشهب بن عبد العزيز . كان زاهدا فاضلا فقيها مشاورا مع يحيى بن يحيى وقاسم بن هلال وعبد الملك بن حبيب ، توفي بعد يحيى بن يحيى بعامين سنة ٢٣٦ هـ في امارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (٦) .

وكان من زهاد القرن الثالث الهجري في الأندلس القاضي يحيى بن معمر الالهاني الذي كان ورعا فاضلا زاهدا (٧) والقاضي مسرور بن محمد بن بشير ،

(١) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥ .

(٣) المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩ .

(٥) ابن حيان : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢٠ .

وابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٩ .

(٦) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦ .

(٧) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(م ١٠ - الزهاد والمتصوفة)

كان زاهدا متواضعا ولاء الأمير عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة
بقرطبة (١) .

وكان منهم عبد الجبار بن الفتح بن منتصر البلوى الفقيه الزاهد من
أهل فحص البلوط توفي سنة ٢٥٨ هـ (٢) وأبو خالد مالك بن علي بن
قطن الزاهد ، من أهل قرطبة ، توفي سنة ٢٦٨ هـ (٣) وإبراهيم الزاهد
الخياط كان له سماع من سحنون بن سعيد ، توفي سنة ٢٧٠ هـ (٤)
وأبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال ، من أهل قرطبة يعرف بصاحب
الشجرة ، اذ قيل انه كانت في بيته شجرة تسجد لسجوده ، كان عابدا مجتهدا
توفي سنة ٢٧٢ هـ (٥) وإبراهيم بن محمد بن باز المعروف بابن القزاز كان
فقيها عالما زاهدا ورعا فاضلا من أهل قرطبة لكنه توفي بطليطلة سنة
٢٧٤ هـ (٦) .

وكان منهم بقي بن مخلد ، مؤسس مدرسة الحديث في الأندلس ،
كان من الزهاد الصالحين وقيل انه مجاب الدعوة ، توفي سنة ٢٧٦ هـ (٧)
وتوفي قريبا من هذا الوقت أبو محمد لب بن عبد الله من أهل سرقة كان
محدثا وزاهدا فاضلا (٨) .

وكان منهم أبو الخضر حامد بن أخطل بن أبي العريض التغلبي ليبري
جليل ثقة وكانت له رحلة ، مذكور بالفضل والزهد والورع توفي في
سنة ٢٨٠ هـ (٩) ومحمد بن عبد الله بن الدفاع الزاهد من أهل قرطبة ،

-
- (١) نفس المصدر ابن حيان السابق ، ص ١٨٦ .
(٢) الحميري : المصدر السابق ص ٤٦٥ ، وابن الفرضي : المصدر
السابق ، ج ١ ص ٢٨٣ .
(٣) الحميري : المصدر السابق ص ٥٥٢ ، وابن الفرضي : المصدر
السابق ج ٢ ص ١ .
(٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٤ .
(٥) نفس : المصدر ، ج ٢ ص ١٨٣ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠ ، وابن فرحون : المصدر السابق
ج ١ ص ٢٦٠ .
(٧) ابن الفرضي : المصدر السابق ج ١ ص ٩١ ، والحميري :
المصدر السابق ص ٢٧٤ .
(٨) ابن الفرضي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٥ ، والحميري :
المصدر السابق ص ٥٣٥ .
(٩) الحميري : المصدر السابق ص ١٩٧ .

كانت له رحلة وتوفي سنة ٢٨١ هـ (١) . وأبو سعيد مطرف بن عبد الرحمن ، كان فاضلا زاهدا توفي سنة ٢٨٢ هـ (٢) وعبد الواحد بن محمد بن دينار من أهل قرطبة ، حفيد عيسى بن دينار فقيه الأندلس المشهور ، كانت له رحلة وبلغ مبلغ أكابر أهله في العلم ، كان خيرا فاسكا ، توفي سنة ٢٨٢ هـ (٣) .

على هذا النحو أخذت نزعة الزهد تنتشر في بلاد الأندلس وتزايدت أعداد الزهاد الذين انتشروا في مواطن كثيرة من الأندلس : في قرطبة لشيلية وطليطلة وسرقسطة ولييرة وغيرها .

لكن نزعة الزهد ستشهد تصاعدا هاما في الأندلس على يد واحد من كبار الزهاد في الأندلس هو محمد بن وضاح بن بزيع القرطبي وتلاميذه الذين تلقوا عنه العلم والزهد معا ، فقد كان محمد بن وضاح بن بزيع القرطبي اماما في الحديث والزهد رحل في طلب العلم والزهد رحلتين أهتم في أولاهما سنة ٢١٨ هـ خاصة بالزهد ولقاء العباد ولما عاد الى الأندلس ووى سير العباد وصبر على الأسماع محتسبا في نشر علمه وزهده فسمع الناس منه كثيرا وانتشر عنه بالأندلس علم جم وانتفع أهل الأندلس به كثيرا حتى كان — على حد قول ابن فرحون — معلم أهل الأندلس العلم والزهد ، كانت وفاته في المحرم سنة ٢٨٧ هـ ودفن في مقبرة أم سلمة (٤) .

يظهر أثر ابن وضاح في نشر الزاهد جليا في كثرة تلاميذه الذين تلقوا عنه وسمعوا منه حتى أن عبارة « سمع من ابن وضاح » ستصبح عبارة معتادة تطالعنا في تراجم كثير من الزهاد الذين أدركوا محمد بن وضاح ، كان منهم — على سبيل المثال — أبو عثمان سعدون بن اسماعيل مولى جذام ، سمع من ابن وضاح ، كان عالما بالفرائض واللغة والشعر ، وكان زاهدا ورعا متنقلا لم ينكح ولا تسرى ولا اشتغل بشيء من الدنيا ،

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢ .

(٢) الحميري : المصدر السابق ص ٥٥٤ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٨١ .

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥ . والحميري : المصدر السابق

ص ٩٣ .

الضبي : المصدر السابق ص ١٣٣ . وابن فرحون : المصدر

السابق ، ج ٢ ص ١٧٩ .

توفي سنة ٢٩٥ هـ (١) . ومحمد بن عبد الجبار بن محمد ، من أهل قرطبة ، سمع من ابن وضاح ، رحل حاجا وكان الغالب عليه الحمل والرواية مع الزهد والعبادة وكان عالما بالقراءات ، توفي سنة ٢٩٦ هـ (٢) وأبو يوسف سليمان بن هارون الرعيني من أهل طليطلة ، سمع من ابن وضاح وغيره ، كان زاهدا عابدا توفي سنة ٢٩٧ هـ (٣) ويحيى بن زكريا الثقفى المعروف بابن الشامة ، من أهل قرطبة ، سمع من ابن وضاح كثيرا ومن غيره ، رحل للحج سنة ٢٩٠ هـ ، كان عابدا صواما توفي سنة ٢٩٨ هـ (٤) . ويحيى بن سهل بن صالح المعروف بابن الرفا من أهل قرطبة ، كان زاهدا فاضلا سمع من ابن وضاح توفي فيما يبدو بعد سنة ٣٠٠ هـ (٥) ومحمد بن عثمان بن عباس المعروف بابن ارفع رأسه ، من أهل طليطلة سمع من ابن وضاح ، كان الغالب عليه الزهد ، توفي سنة ٣٠٢ هـ (٦) .

وقد أكمل تلاميذ ابن وضاح جهود استاذهم لنشر الزهد في الأندلس اذ أنهم لم يكتفوا بالتلقى عنه وانما علموا الناس وحدثوهم ونشروا فيهم ما تلقوه عن ابن وضاح ، فعلى سبيل المثال كان أبو القاسم أصبغ ابن مالك بن موسى — أصله من قبره وسكن قرطبة — قد صحب ابن وضاح نحو أربعين سنة وسمع منه كثيرا وكان عابدا زاهدا يجتمع اليه أهل الزهد والفضل فيسمعون منه حتى توفي بناحية بيشتر سنة ٣٠٤ هـ (٧) وكان أبو عثمان سعيد بن عثمان الأعناقى عالما زاهدا سمع من ابن وضاح وصحبه سمع منه الناس وحدث عنه علماء الأندلس ، توفي بفريش سنة ٣٠٥ هـ (٨) وكان ابن الزراد محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سلام من أهل قرطبة ، روى عن محمد بن وضاح كثيرا وصحبه ، رحل حاجا وسمع يسيرا في رحلته ، كان الزهد وأمر المحتسبة وأخبار العباد أغلب عليه من العلم وكان كثير الحكاية عن ابن وضاح حافظا لأخباره ، حدث

-
- (١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٣ .
 - (٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٢ .
 - (٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٥ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٥ .
 - (٥) نفس المصدر ج ٢ ص ١٨٧ .
 - (٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٤ .
 - (٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٩ .
 - (٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣١٤ .

وسمع الناس عنه كثيرا ، توفي سنة ٣٠٥ هـ . (٥) .

لكن ابن وضاح وتلاميذه لم يكونوا وحدهم على ساحة الزهد في الأندلس بل وجد أيضا زهاد آخرون شاركوا في إثراء النزعة الزهدية وبثها في نواحي الأندلس كان منهم — على سبيل المثال — أبو العطف بعل بن عبد الله الأموي ، من مواليهم ، كان من أهل سرقسطة فقيها زاهدا فاضلا له رحلة وسماع كثير توفي سنة ٢٨٨ هـ (٦) ونعم الخلف بن أبي الخصيب من أهل تطيلة ، كان زاهدا عابدا محاربا كثير الرباط والغزو ، توفي شهيدا سنة ٢٩٨ هـ (٧) وأبو الفرج الزاهد من أهل استجة ، قيل انه كان مستجاب الدعوة ، توفي بعد الثلاثمائة (٨) وعبد الله بن محمد بن عبد الله ابن بدرون من أهل الجزيرة سمع بقرطبة سنة ٢٤٤ ثم رحل سنة ٢٥٠ فلقى أصحاب ابن وهب بمصر ولقى بالقيروان محمد بن سحنون ، كان بليغا بصيرا باللغة والاعراب من أهل الزهد والورع ، توفي سنة ٣٠٩ هـ . (٩) وأحمد بن محمد المعروف بابن الحراز من أهل قرطبة ، كان من أهل الزهد والفضل ، توفي سنة ٣٠٣ هـ (١٠) وأبو محمد قاسم ابن ثابت بن حزم العوفي من أهل سرقسطة ، كانت له رحلة مع أبيه سمع فيها من أحمد بن شعيب النسائي بمصر ومن ابن الجارود بمكة وعنى بجمع الحديث واللغة وأدخل هو وأبوه علما كثيرا إلى الأندلس وكانا أول من أدخل إلى الأندلس كتاب العين للخليل بن أحمد القراهيدي . كان قاسم عالما فقيها نحويا شاعرا وزاهدا خيرا ورعا ناسكا امتنع عن تولي القضاء بسرقسطة وتوفي سنة ٣٠٢ هـ (١١) .

ولقد تضافرت جهود تلاميذ ابن وضاح مع جهود غيرهم من زهاد الأندلس لتنتشر نزعة الزهد في الأندلس حتى فشلت في الأندلس في القرن

(١) ابن الفرضي المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٥١ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٠ .

(٧) ابن فرحون : المصدر السلفي ، ج ٢ ص ١٤٧ .

وإبن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٦٠ .

الرابع الهجرى الذى عجز بالزهاد حتى ليبدو أكثر القرون امتلاء بالزهاد فى الأندلس على النحو الذى يتضح لنا من كثرة تراجعهم فى هذا القرن .

كان من زهاد القرن الرابع الهجرى فى الأندلس - فضلا عن ذكرناهم آنفا - أبو عثمان عفان بن محمد من أهل وشقه ، كان زاهدا عابدا كثير التلاوة للقرآن صائما أكثر دهره ، كان صاحب الصلاة بوشقة ثم تولى أحكام الشرطة بها حتى توفى سنة ٣٠٧ هـ (١) ومحمد بن عبد الله بن محمد ابن قاسم من أهل قرطبة سمع من بقى بن مخلد ، كان منسوبا الى الزهد موصوفا بالفضل ، توفى سنة ٣١٢ هـ (٢) . وأحمد بن محمد بن الرومى ، من أهل قرطبة ، سمع من ابن وضاح ، كانت له رحلة لقي فيها ابراهيم ابن الجنيد البغدادي الزاهد وسمع منه بعض تصنيفه فى الزهد ، توفى - فيما يبدو - بعد سنة ٣١٢ هـ (٣) . وأحمد بن شاب بن عيسى الأموى من أهل قرطبة كان مؤدب كتاب سمع من غير واحد وكان زاهدا فاضلا توفى سنة ٣١٧ هـ (٤) وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن مؤذن من أهل وشقة ، عنى بالعلم وشهر به كان موسوما بالفضل والزهد ، توفى سنة ٣١٧ هـ (٥) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الفافقى الالبيرى الزاهد . سمع بالأندلس من كثيرين منهم محمد بن وضاح ورحل الى المشرق سنة ٢٥٧ هـ وتردد هناك فسمع ببصر من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره وسمع بمكة من جماعة منهم أحمد بن يحيى الكوفى المعروف بالصوفى ، وسمع بطرابلس وافريقية ، توفى عن تسعين سنة فى سنة ٣١٩ هـ (٦) .

وكان منهم أبو عبد الحميد اسحاق بن عبد الرحمن ، من أهل سرقسطة ، كانت له رحلة وكان فاضلا عابدا وقيل انه مجاب الدعوة ولاء محمد بن لب صاحب سرقسطة على الصلاة فكان يخطب بهم ويصلى حتى توفى قريبا

(١) ابن الفرنبى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٣ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٧ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٠ ، والمقرئ : المصدر السابق ،

ج ٢ ص ٢٧٢ .

من سنة ٣٢٠ هـ (١) . وأبو عبد الله محمد بن زكرياء بن محمد بن جعفر اللخمي من أهل قرطبة ، سمع من ابن وضاح وغيره من شيوخ الأندلس ، كانت له رحلة سمع فيها بمكة وبغداد كان ضابطا ثقة وزاهدا ورعا صاحب ليل وعبادة وكانت فيه مع ذلك دعاية غزا مع عبد الرحمن الناصر غزاه وخمسة ، وتوفي سنة ٣٢٢ هـ (٢) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الجباب من أهل قرطبة سمع من ابن وضاح وغيره ، كانت له رحلة سمع فيها كثيرا بمكة وصنعاء وغيرهما ثم عاد إلى الأندلس فكان امام وقته غير مدافع في الفقه والحديث والعبادة ، ضابطا ورعا منقبضا متقشفا ، توفي سنة ٣٢٢ هـ (٣) .

وكان منهم شيبان بن سليمان المؤدب الزاهد ، كان له زهد باين وورع صادق ، من أهل قرطبة ، سمع من محمد بن وضاح وغيره (٤) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى الزهري المعروف بالاشييلي الزاهد ، من أهل قرطبة ، كان معلم كتاب روى عن ابن وضاح وغيره وكان يجتمع إليه أهل الحسبة والمعلمون ويقرأون عليه ، كان طويل الصلاة مسمتا وقورا ، توفي سنة ٣٢٥ هـ (٥) وأبو عمر سيد أبيه بن العاص المرادي الزاهد ، من أهل اشبيلية ، كان الغالب عليه علم القرآن وعبرة الرؤيا وكان أحد العباد المثبتين منقطع القرين في وقته وقبل انه مجاب الدعوة ، توفي سنة ٣٢٥ هـ (٦) .

وكان منهم أحمد بن زياد اللخمي أبو القاسم ، من أهل قرطبة ، سمع من ابن وضاح وكان مختصا به وبإبراهيم بن محمد بن باز ، حدث كثيرا وكان زاهدا فاضلا توفي سنة ٣٢٦ هـ (٧) وأبو عبد الله محمد بن مهلهل

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣ .

(٣) نفس : المصدر ، ج ١ ص ٣١ .

وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٤ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣ .

ابن مسور الزاهد من أهل قرطبة ، كان منقطعا الى الله عز وجل مقبلا على الزهد والعبادة مجتهدا في ذلك حتى وفاته سنة ٣٢٨ هـ (١) . وأبو عبد الله محمد بن أصبغ بن لبيب من أهل استجة سمع بالأندلس ، كانت له رحلة الى المشرق سمع فيها بمكة الى الأندلس فلزم الزهد والعبادة وكان متفننا في العلوم بصيرا بالغرض والحساب والنحو والغريب وكان شاعرا يتكلم في مذاهب العلم الباطني توفي سنة ٣٢٨ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد وسيم بن سعدون من أهل طليطلة ، سمع بقرطبة من محمد بن وضاح وغيره ورجل مع أحمد بن خالد فسمع بمكة ومصر ، كان موصوفا بالزهد والعبادة ، وكان فقيه طليطلة في وقته (٣) . وأبو الأصبغ اسماعيل بن عمر الزاهد من أهل قرطبة ، سمع من محمد بن وضاح وغيره ، كان مشاورا في الأحكام ، توفي سنة ٣٣٢ هـ (٤) . وأبو الحسن محمد بن محمد بن عبد السلام الخشني ، من أهل قرطبة ، روى عن أبيه وكان مشاورا في الأحكام ، كان موصوفا بالزهد والفضل توفي سنة ٣٣٣ هـ (٥) . وأبو عبد الله محمد بن دليق من أهل وشقة كان من العباد المجتهدين ومن أهل العلم والفصاحة عالما بمعاني القرآن وتفسيره ، ورث عن أبيه مالا عظيما فتخلى عنه وفرقه ، خرج الى الحج وانصرف فلزم السياحة والتبذل نحو عشرين سنة ثم نكح آخرها وجلس للناس يفتيهم ويحدثهم ، توفي سنة ٣٣٥ هـ (٦) .

وكان منهم أبو سعيد عثمان بن سعيد بن كليب من أهل البيرة ، كان حافظا للرأى وولى الصلاة بحاضرة البيرة ، كان موصوفا بالزهد ،

(١) ابن الفرضي المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٦٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٥ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٣ .

(٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

توفي سنة ٣٤٠ هـ (١) أبو عبد الله محمد عبد الله بن عبد البر المعروف بالكشكيتاني ، من أهل قرطبة ، سمع بالأندلس ثم رحل وسمع بالشرق كانت له في الأندلس وجهة عند الخاصة والعامة بالعلم والزهد وسمع منه الناس كثيرا . رحل ثانية في آخر عمره فحج وتوفي بإطرابلس الشام سنة ٣٤١ هـ (٢) وأبو عمر أحمد بن يحيى بن زكريا - المعروف بابن الشامه كان أبوه من الزهاد المعدودين وكان هو نفسه زاهدا منقطعا وناسكا متبتلا ، توفي سنة ٣٤٣ هـ (٣) وأبو بكر محمد بن سعدون التميمي الجزيري المتعبد ، حج غير مرة ورابط ببلاد المغرب وصحب الفقراء وطاف بالشام وغزا وجاهد وحرص على الجهاد وساح بجبل المقطم وتوفي سنة ٣٤٤ هـ (٤) وأبو وهب عبد الرحمن العباسي الزاهد ، قيل أنه من بني العباس ، قدم الى قرطبة مخفيا لشبهه ، كان منقطع القرين في الزهد والورع وقيل انه مجاب الدعوة ، توفي بقرطبة سنة ٣٤٤ هـ (٥) .

وكان منهم أبو عبد الله أحمد بن بقر بن مخلد ، من أهل قرطبة ،
سمع من أبيه ، تولى قضاء قرطبة ، كان زاهدا فاضلا توفي سنة ٣٤٤ هـ (١)
وأبو غالب تمام بن غالب من أهل البيرة ، كان زاهدا فاضلا سمع من
محمد بن فطيس وغيره ، حدث وسمع عنه ، توفي سنة ٣٤٧ هـ (٢) *

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن مغيث الأنصاري من أشرف قرطبة ،
 روى عن جماعة منهم محمد بن أحمد بن أحمد الا شيبلى الزاهد ،
 كان من أهل المعرفة والنباهة والذكاء والفهم ، أدبيا بارعا وشاعرا وكاتبا
 بليغا مع الدين والفضل والتسك والعبادة والتواضع وزهد في الدنيا
 في آخر عمره وله كتاب التوايين من تأليفه توفي سنة ٣٥٢ هـ (٨) .
 وأبو عمر أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن بن قاسم الأزدي يعصرف

- (١) ابن حيان : المصدر السابق ص ١٩٢ ، وابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٥ .
- (٢) ابن القرضي : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠ .
- (٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٨ .
- (٤) المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٣٩ .
- (٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٨ .
- (٦) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣ .
- (٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩٨ .
- (٨) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٢ .

بابن المشاط ، من أهل قرطبة ، كان زاهدا ورعا ولى الصلاة بقرطبة ، توفي سنة ٣٥٢ هـ (١) . وأبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم بن مسرة التجيبي ، أصله من طليطلة وسكن قرطبة ، سمع بطليطلة من وسيم بن سعدون وغيره وسمع بقرطبة من جماعة ، كان حافظا للفقه على مذهب مالك متقدما فيه وكان مشاورا في الأحكام ، حدث وسمع منه جماعة من الناس ، كان وقورا مهيبا خيرا فاضلا ورعا من أهل الزهد والتقشف والبعد عن السلطان لا تأخذه في الله لومة لائم وكان الحكم المستنصر مغطما له ، توفي بطليطلة سنة ٣٥٢ هـ (٢) .

وكان منهم أبو بكر أحمد بن محمد خلف بن أبي حجيرة ، من أهل قرطبة سمع من أحمد بن خالد وغيره ، كانت له رحلة سمع فيها ، كان زاهدا متبتلا وفقها عالما ، توفي سنة ٣٥٦ هـ (٣) . وأبو مروان عبد الملك ابن هذيل من أهل قرطبة ، يعرف بالخلقى لأنه كان يلبس خلق الثياب ، سمع من أحمد بن خالد وغيره ورحل فسمع بمصر وبمكة وبالقيروان وانصرف الى الأندلس فالتزم العزلة والانقباض والزهد ، توفي سنة ٣٥٩ هـ (٤) .

وكان منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج ، من أهل طليطلة سمع بطليطلة وبقرطبة ورحل فسمع بمصر وبمكة ، كان ورعا فاضلا زاهدا وكان يرحل اليه في الحديث وكتب عنه الناس كثيرا توفي بطليطلة سنة ٣٦٣ هـ (٥) . وأبو عبد الله محمد بن وضاح من أهل شذونة ، كان يكتب المصاحف صالحا زاهدا ، توفي سنة ٣٦٣ هـ (٦) . وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد الخضرى ، من أهل قرطبة ، كان زاهدا فاضلا حدث وكتب الناس عنه ، توفي سنة ٣٦٤ هـ (٧) . وأبو الوليد هاشم ابن عبد الأعلى يعرف بابن الغليظ ، من أهل قرطبة ، وكان أدبيا شاعرا . ناسكا عالما بتفسير الرؤيا ، توفي سنة ٣٦٦ هـ (٨) .

-
- (١) ابن القرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤ .
 - (٢) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٦ .
 - (٣) ابن القرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧٤ .
 - (٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٣ .
 - (٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٣ .
 - (٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٤ .
 - (٨) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٧٢ .

وكان منهم أبو يحيى عمرو بن اسماعيل العبدري ، كان ورعا زاهدا عابدا ، نظير صاحبه أبي بكر يحيى بن مجاهد الليري ، توفي أبو يحيى عمرو بن قرطبة سنة ٣٦٦ هـ ودفن بمقبرة متعة (١) ونظيره أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانه الليري الزاهد ، من أهل قرطبة ، كان منقطع القرين في العبادة بعيد الاسم في الزهد ، توفي في نفس العام الذي توفي فيه صاحبه سنة ٣٦٦ هـ ودفن بمقبرة الربض وصلى عليه محمد بن اسحاق ابن السليم قاضي الجماعة الزاهد (٢) .

وكان منهم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي المعيطي كان حافظا للفقه على مذهب مالك . ولى الشورى ابن ثلاثين سنة وكان ورعا زاهدا متبتلا توفي سنة ٣٦٧ هـ (٣) وقاضي الجماعة أبو بكر محمد ابن اسحاق بن منذر بن السليم ، كان مع علمه من أهل الزهد والتقشف والبر ، بلغ به التقشف وطلب الحلال أنه كان يصيد السمك بنهر قرطبة (نهر الوادي الكبير) ويبيع صيده فيأخذ من ثمنه ما يقتات به ويتصدق بفضله ، تولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ وتوفي سنة ٣٦٧ هـ (٤) وأبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن يحيى الكلبي ، من أهل البيرة يعرف بابن الغريقي ، كان زاهدا فاضلا توفي سنة ٣٦٩ هـ (٥) .

وأحمد بن عبد السلام بن زياد اللخمي من أهل ريه ، كان عالما فاضلا ذا عفاف وزهد وولى الصلاة بموضعه توفي بعد سنة ٣٧٠ هـ (٦) وأبو نصر فتح بن أصبغ من أهل طليطلة يعرف بابن تاكله ، كان عالما زكيا متفتنا عابدا مشهور الفضل قيل انه مجاب الدعوة توفي سنة ٣٧١ هـ (٧) وأبو محمد عبد الله بن محمد بن نصر الزاهد ، من أهل قرطبة ، كان زاهدا ورعا فاضلا يميل الى الحديث والآثار مشاركاً في الرأي ، توفي سنة ٣٧١ هـ (٨) .

-
- (١) المراكشي : الدليل والتكملة ص ٤٨٠ .
 - (٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩٠ .
 - (٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٨ .
 - (٤) وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢٥ .
 - (٥) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٤ .
 - (٦) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٤ .
 - (٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٢ .
 - (٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٤٨ .
 - (٩) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦ .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم ، من أهل قرطبة ، كان من صغره زاهدا ، كان كثير الصلاة والقيام عابدا متهجدا ورعا غنيما فقيها عالما ، توفي سنة ٣٧٢ هـ (١) . وأبو عمر أحمد ابن محمد بن أحمد من أهل اشبيلية يعرف بابن الخراز ، سمع من جماعة وكان زاهدا فاضلا قيل انه لم يكن بأشبيلية بعد سيد أبيه الزاهد مثل أبي عمر بن الخراز ، توفي سنة ٣٧٣ هـ (٢) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن التراس ، من أهل البيرة ، روى عن محمد فطيس وغيره ، كان زاهدا فاضلا متبتلا توفي سنة ٣٧٣ هـ (٣) . وأبو يحيى ادريس بن عبد الله بن ادريس ، من أهل قرطبة ، كان حافظا للمسائل فقيها وولى أحكام الشرطة . وكان ورعا منقشفا زاهدا متواضعا لم تغيره الدنيا ،

وكان منهم أبو اسحاق خلصه بن موسى بن عمران الراي الزاهد أصله من ريه وسكن قرطبة ، كان زاهدا فاضلا مشهورا بالفضل بعيد الاسم في الخير ، توفي سنة ٣٧٦ هـ وصلى عليه القاضي محمد بن يتي بن زرب واحتفل الناس لجنازته (٤) . وأبو بكر عبد الرحمن عامر بن عبد الرحمن ابن معاوية من أهل قرطبة ، كان منسوباً إلى الزهد ، توفي سنة ٣٧٦ هـ (٥) .

وكان منهم ذواله بن زيد العكي من أهل ريه ، كان فاضلا زاهدا انتقل إلى مدينة مالقه (٦) وغانم بن منتيل من أهل قریش كان موصوفا بالزهد والعلم معتنيا بالرأى (٧) وأبو عمرو أحمد بن قزلمان المؤدب من أهل قرطبة كان حافظا للغة على مذهب مالك ، يؤدب بالقرآن ، وكان من العباد المتبتلين ، توفي سنة ٣٧٧ هـ ودفن في مقبرة الرضافة (٨) .

-
- (١) ابن الفرضي المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٣ .
وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٨٥ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٤١ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٥ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٤٧ .
(٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٤٧ .
(٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٣ .

وأبو الحكم مخارق المعافى الاسكافى من أهل قرطبة كان من العباد المجتهدين المتجهدين بالقرآن قيل انه مجاب الدعوة ، خرج مجاهدا في غزوة قلنبرية الأخيرة فاستشهد فيها سنة ٣٧٧ هـ (١) . وأبو أيوب سليمان بن أيوب بلكاش القوطى من أهل قرطبة سمع من جماعة منهم محمد بن أحمد الشبلى الزاهد ، كان من أهل العلم والنظر بصيرا بالاختلاف حافظا للمذاهب مائلا الى الحجة والدليل ، حدث وسمع الناس منه كثيرا وكان زاهدا متواضعا كثير البكاء ، توفي سنة ٣٧٧ هـ ودفن بمقبرة مومرة (٢) وأحمد بن خلف بن فرتون المديونى فى الزاهد الرواية من أهل مدينة الفرج ، سمع الناس منه كثيرا وكان خيرا فاضلا زاهدا ثقة ، توفي سنة ٣٧٧ هـ (٣) . وكان منهم أبو عمر أحمد بن عبد الرحمن ابن عبد القاهر بن خير العيسى ، من أهل اشبيلية ، كان من أهل الخير والفضل والتعاون والانقباض له فى الزهد تأليف سماه الاستبصار ، توفي سنة ٣٧٩ هـ (٤) .

وكان منهم أبو أيوب عتاب بن هارون بن عتاب بن بشر الفقيه الزاهد من أهل شذونه ، كان حافظا للرأى على مذهب مالك حسن النظر يقال انه مجاب الدعوة ، توفي سنة ٣٨١ هـ (٥) . وأبو محمد عبد الله بن أحمد ابن زكريا المعروف بابن الشامة ، من أهل قرطبة ، كان موصوفا بالفضل والزهد ، توفي سنة ٣٨١ هـ ودفن فى مقبرة أم مسلمة (٦) . وحيان الزاهد ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا زاهدا ورعا خاشعا متبتلا من أصحاب أبى بكر يحيى بن مجاهد الزاهد وكان ممن تصح الله به المسلمين ، توفي سنة ٣٨١ هـ ودفن فى مقبرة فريش فى جمع عظيم (٧) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف الثغرى القلعى من أهل قلعة أيوب ، سمع بالأندلس وكانت له رحلة سمع فيها بالبصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر وانصرف الى الأندلس

-
- (١) ابن الفرضى المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥١ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٨ .
(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٧ .
(٥) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٠ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٤٣ .
(٧) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢ .

فلزم العبادة والجهاد واستقضاء المستنصر بالله بسوضعه ثم استغفاه فأغفاه
كان فقيها فاضلا دينيا ورعا صليبا في الحق لا يخاف في الله لومة لائم ،
أحد أعلام الزهاد وكانوا يشبهونه بسفيان الثوري ، توفي سنة ٣٨٣ هـ (١) .

وكان منهم أبو عبد الله مروان بن عبد الملك بن الفراء ، من أهل
قرطبة ، رحل حاجا وسمع بمصر ، كان زاهدا فاضلا وعابدا مجتهدا ،
توفي سنة ٣٨٣ هـ (٢) .

وكان منهم أبو القاسم سهل بن إبراهيم بن سهل بن نوح بن خمار ،
نسبة في البربر ، مولى لبنى أميه من أهل استجة وكان يعرف بابن العطار
كان فاضلا زاهدا عالما عاملا ، لزم الانقباض والعبادة الى أن توفي وسمع
منه الناس قديما وحديثا وطال عمره حتى ساوى فيه الصغار الكبار ،
توفي سنة ٣٨٧ هـ (٣) .

وكان منهم أبو الفرج عبدوس بن محمد بن عبدوس من أهل طليطلة
له رحلتين سمع فيهما بمكة ومصر والشام ، كان يتجول بين طليطلة وطليطلة
وكان زاهدا فاضلا ورعا متقللا سمع منه الناس كثيرا وتوفي بطليطلة
سنة ٣٩٠ هـ (٤) . وأبو عبد الله محمد بن يزيد من أهل بطليوس ، كان
رجلا صالحا فاضلا متقللا ، كان يسرد الصوم ولم تكن له امرأة قط ، توفي
سنة ٣٩٠ هـ (٥) .

وكان منهم أبو محمد مسلمة بن محمد بن مسلمة بن بترى الأيادي
من أهل قرطبة ، كان زاهدا فاضلا متبتلا مجتهدا ورعا كثير الجهاد وتغاب
عليه العبادة ، توفي سنة ٣٩١ هـ ودفن في مقبرة الرضخ وشهد جنازته
خلق عظيم (٦) . وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن يوسف الضنى المتزهد

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٤ ، الضبي :
المصدر السابق ، ص ٣٣٤ ، وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١
ص ٤٥٢ .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩١ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٤٠ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٣ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٠ .

يعرف بابن الملاح من أهل قرطبة * حدث عنه الصحابان وغيرهما توفي سنة ٣٩١ هـ (١) * .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن خليفة بن عبد الجبار البلوي المؤدب من أهل قرطبة ، كان شيخا صالحا زاهدا توفي سنة ٣٩٢ هـ (٢) وأبو عبد الله محمد بن سعدون من ساكني حصن موره يعمل باجه يعرف بابن الزنوني ، كان رجلا صالحا فاضلا زاهدا ورعا ، توفي بحاضرة بطليوس سنة ٣٩٢ هـ (٣) * .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن خلوف المسيلي يعرف بالخياط كان فقيها عالما بالمسائل حافظا للرأى على مذهب مالك ، ورعا زاهدا فاضلا ، سكن الثغر أعواما كثيرة مجاهدا وكان منسوبا الى البأس ، شهر في الثغر وعلا ذكره فيه ، قدم قرطبة فتوفي بها سنة ٣٩٣ هـ ودفن بمقبرة الرض (٤) * . وخلف بن القاسم بن سهل الدباغ كان حافظا فهما ، حدث بأشياء في الزهد ، توفي سنة ٣٩٣ هـ (٥) * .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن موسى بن مهص الغساني من أهل البيرة من قرية تسمى قرخشبيط له رحله وبعد عودته أقام في تطيله للرباط الى أن توفي ، كان فقيها عالما زاهدا ورعا يصوم الدهر تنقل في سكناه بين تطيله وبلغى * استشهد في معترك الماشه قرب بلغى سنة ٣٩٣ هـ (٦) * .

وكان منهم أبو القاسم أصبغ بن علي بن حكيم من أهل قرطبة كان زاهدا فاضلا مجتهدا وله خط من العلم ، سمع بالأندلس ورحل حاجا وجاور بمكة وسمع بها ثم قدم الأندلس فلم يزل مجاهدا حتى توفي بتطيلة حين خرج في غزاة الصامعة سنة ٣٩٤ هـ (٧) * .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد القيسي المعروف بابن الخلاص ، من أهل بجاته له رحله سمع فيها بمصر والشام ومكة ، وكان زاهدا فاضلا متقبضا حافظا للحديث وسمع منه غير واحد ، توفي

-
- (١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٩ .
 - (٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٤ .
 - (٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٣ .
 - (٥) المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣١١ .
 - (٦) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٦ .
 - (٧) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٢ .

سنة ٣٩٤ هـ (١) وأبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن محمد الانصارى ، من أهل ريه ، له رحلة سمع فيها بمصر وبالقلزم وانصرف الى الأندلس فلزم الانقباض والزهد وولى الصلاة بموضعه الى أن توفي سنة ٣٩٤ هـ (٢) .

وكان منهم أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التميمي التاهرتي البزار ، قدم قرطبة صغيرا في الثامنة من عمره مع أبيه وسكنها ، كان شيخا صالحا زاهدا منقبضا توفي سنة ٣٩٥ هـ (٣) .

وكان منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن عثمان بن عفان القشيري ، من أهل قرطبة وأصله من جيان ، كان صالحا زاهدا منقبضا ثقة فيما رواه وسمع الناس منه كثيرا ، توفي سنة ٣٩٦ هـ (٤) .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن محمد بن عبد الله الكلبى ، سكن اشبيلية ، كان صالحا زاهدا واسع الرواية كثير العناية بالعلم وبمعانى الزهد . روى عنه الناس باشبيلية وشهر بالخير ، توفي سنة ٣٩٧ هـ (٥) .

واذا كان الزهد قد تزايد في الأندلس بفضل محمد بن وضاح بن بزيع وتلاميذه فمعج القرن الثالث الهجرى بالكثير من الزهاد الذين كان للعديد منهم في الزهد شأوا بعيدا ، فقد شهد الزهد في نهاية القرن الثالث الهجرى تصاعدا آخر على يد أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى زمين الالبيرى الزاهد . كان فقيها مقدما وزاهدا عابدا متبتلا متقشفا ، أمة في الخير ، وكان أجل أهل وقته قدرا في العلم والرواية وحفظ الرأى ، دائم البكاء والصلاة ، واعظا مذكرا بالله ، فاشى الصدقة ، له تواليف متداولة في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين ، وله أشعار كثيرة في الزهد وله في الزهد أيضا كتبها منها حياة القلوب » في الرقائق والزهد وكتاب أنس المريدين في الزهد

(١) ابن الفرضى المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٨ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٤ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٠٥ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١٤ .

وكتاب المواعظ المنظومة في الزهد ، توفي سنة ٣٩٩ هـ (١) .

ولعل أثر ابن أبي زمنين في نشر الزهد بالأندلس لا يقل عن أثر ابن وضاح في ذلك بل لعله كان أبعد أثرا بتوظيفه الشعر لخدمة النزعة الزهدية إذ لا يخفى مالموسيقية الشعر وغريب معانية من تأثير في النفوس وخاصة نفوس أهل الأندلس الذين كانوا يتذوقون الشعر ويرددونه فكان لمنظومات ابن أبي زمنين في الشعر الزهدي قبولا وتأثيرا في نفوس أهل الأندلس ، وإذا كان بعض زهاد الأندلس قد نظموا أشعارا في الزهد قبل ابن أبي زمنين فإنه كان أعلى من سابقة ومعاصره كعبا في هذا المجال وأبعد صيتا وتأثيرا حتى يمكننا اعتباره أول من أرسى قواعد الاتجاه الزهدي في الشعر الأندلسي (٢) . وقد فتح ابن أبي زمنين الطريق أمام شعراء الزهد اللاحقين لينظموا في الزهد أشعارا كثيرة رائعة حفظها الناس وتناقلوها وكان لها في نفوسهم أبلغ تأثير ، ونعرف بعضا من هؤلاء الشعراء الزهاد منهم — على سبيل المثال — أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطل البطليوسي الملقب بالعين جودي لأنه كان يكثر ترديد عبارة « يا عين جودي » في أشعاره ، وقد انتقل أبو أيوب العين جودي إلى البيرة بلدة ابن أبي زمنين وسكنها معاصرا له وتوفي بعده بعام واحد في سنة ٤٠٥ هـ (٣) . ومنهم أبو عمران موسى بن أصبغ المرادي الذي كان زاهدا شاعرا سكن صقلية ، كان طويل النفس في الشعر وله قصائد طوال في الزهد منها ما هو مصنف على حروف المعجم لكل حرف عشرون بيتا من الشعر (٤)

(١) الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٧ ، وابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٢ ، وابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

— من اشعار ابن أبي زمنين في الزهد قوله :

لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفها

وان توشحت من أثوابها الحسن

ابن الاحبة والجيران ما فعلوا

أين الذين هم كانوا لنا سكنا

سقاها الدهر كأسا غير صافية

فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

(٢) احسان عباس : تاريخ الادب الأندلسي (عصر الطوائف

والمرابطين) ص ١٣٠ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٤) الضبي : المصدر السابق ، ص ٤٥٥ .

(م ١١ — الزهاد والمتصوفة)

ومنهم أبو محمد عبد الله بن هارون الأصبحي من أهل لارده ، كان شاعرا متصاونا من أهل العلم (١) .

وقد توالى بعدهم عدد من الزهاد الشعراء مثل ابن الريوالى الذى نظم أشعارا كثيرة فى الزهد وأحمد الاقليشى الذى كانت له فى الزهد معشرات شعرية كتبها الناس عنه ، وأبو الحسن على بن اسماعيل الفهرى الطليطلى الذى سكن رابطة يناها فى شقباية بنواحي أشونة عرفت برابطة الطليطلى ونظم أشعارا رائعة فى معانى الزهد حتى شبه فى الأندلس بأبى العتاهية ، وأبى اسحاق ابراهيم بن مسعود التجيبى الغرناطى يعرف بالأليبرى لسكناء اليريه بعد أن أخرج عن غرناطة ، كان أبو اسحاق ابراهيم يروى أشعار ابن أبى زمنين ومؤلفاته وكان هو نفسه شاعرا زاهدا نظم أشعارا يحرض فيها أهل غرناطة على اليهود خاصة ابن النغيلة المتسلط على دولة بنى زيرى فأبعد عن غرناطة . وأبو محمد عبد الله العسال الشاعر الزاهد الطليطلى المشهور الذى بكى فى أشعاره سقوط طليطلة فى أيدي نصارى الأسبان (٢) .

والى جانب الشعراء الزهاد كان يوجد زهاد آخرون مثل قاسم ابن حامد الأموى من أهل ريه بكنى أبو محمد ، كان مدار الفتيا فى بلده وكان زاهدا فاضلا ناسكا ورعا مع الفقر والاقلال توفى قبل الفتنة ، قبل سنة ٤٠٠ هـ (٣) وأبو حبيب أحمد بن حبيب كان من صالحى الأمة وعبادها وزهادها ، نبذ التجارة لشيء اطلع عليه من شريك كان له فتبرا عن جميع ما فى يديه ودخل الأندلس فقيرا مجاهدا فسكن الثغر واشتهر هناك وظل مرابطا حتى توفى سنة ٤٠٠ هـ (٤) .

هكذا وصل الزهد فى الأندلس الى ذروته فى نهاية القرن الرابع الهجرى الذى يستحق أن يدعى قرن الزهاد فى الأندلس وقد استمر الزهد كنزعة قائمة على الساحة الروحية الأندلسية فى القرن الخامس الهجرى الا أننا نلاحظ تناقص أعداد الزهاد فى هذا القرن عن القرن الرابع الهجرى على الرغم من تردى الأحوال السياسية وسوءها عن ذى قبل ممثلة فى الفتنة

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧٤ .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) ابن القرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤) القيروانى : النموذج الزمان ، ص ١٤١ .

الكبرى السمة بالفتنة البربرية التي افتتحت القرن الخامس الهجرى وممثلة أيضا في انقسام الأندلس الى ممالك صغيرة أو دويلات تسمى ممالك الطوائف لم تهدأ نار المنازعات بينها يوما مفسحة المجال أمام نصارى الأسبان للاستيلاء على أراضى الأندلس جزء وراء آخر مما يشكل عوامل دافعة نحو الزهد والأعراض عن الدنيا ، لكن أعداد الزهاد تناقصت ولم يكن تناقصها لنزعة مادية فشئت في بلاد الأندلس بقدر ما يرجع هذا للتناقض الى نزعة أخرى روحية هى التصوف التى كانت قد انتشرت وقاسمت نزعة الزهد فى أعداد هؤلاء المعرضين عن زخرف الدنيا وعرضها فأصبح المتصوفة يقفون على الساحة الروحية جنبا الى جنب مع الزهاد .

كان من زهاد مطلع القرن الخامس الهجرى فى الأندلس أبو جعفر أحمد بن محمد بن ميمون من أهل طليطلة صاحب أبى اسحاق بن شنطير ونظيره فى الجمع والاكتار والملازمة معا ، سمع بالأندلس من خلق كثير ورحل الى المشرق سنة ٣٨٠ هـ مع صاحبه أبى اسحاق فسمعا بمكة وبالمدينة وبوادي القرى وبمدين وبالقلزم ومصر وبالطرابلس والقيروان ثم انصرف الى طليطلة فاستوطنها ورحل الناس اليه بها والتزم الرباط فى حصن الفهمين . كان من أهل العلم والفهم راوية للحديث حافظا لرأى مالك وأصحابه وكانت له أخلاق كريمة وأداب حسنة بحسن ما يحاوله قولاً وعملاً محموداً محبوباً مع الفضل والزهد الفائق والورع وكان يأخذ بنفسه مأخذ الأبدال مقبلاً على طريق الآخرة منفرداً بلا أهل ولا ولد . كانت كتبه وكتب صاحبه ابن شنطير أصح كتب بطليطلة ، توفى فى شعبان سنة ٤٠٠ هـ ودفن بحومة باب شافره بربض طليطلة (١) .

وأبو محمد خلف بن على السبتي الزاهد قدم الأندلس وكان زاهداً معتزلاً سائحاً فى الأرض راوية للعلم ، سكن مسجد متعة ، وكان الصلحاء والزهاد يقصدونه هنالك وسمع منه جماعة من علماء قرطبة وغيرها ، توفى فى صدر الفتنة البربرية سنة ٤٠٠ هـ (٢) . وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم ابن اسماعيل الخشنى يعرف بابن المشكيات من أهل طليطلة ، سمع بقرطبة وبطليطلة ، له رحلة الى المشرق ، حج وسمع بمصر والاسكندرية والقيروان . كان حافظاً للمسائل والرأى عينا من أعيان طليطلة . وكان له ورع وزهد

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٧٧ .

وتواضع متقللا من الدنيا عاملا بالعلم ثقة لا تأخذه في الله لومة لائم في صرعه الحق بالحق ، توفي سنة ٤٠٠ هـ (١) وأبو الربيع سليمان بن ابراهيم ابن هلال القيسي من أهل طليطلة ، كان صالحا زاهدا عالما بأمور دينه تاليا للقرآن مشاركا في التفسير والحديث ورعا فرق جميع ماله وانقطع لله عز وجل ولزم الشجر ، توفي بحصن عرماج (٢) .

ومن أعلام الزهاد في الأندلس أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حسين ابن شنظير الأموي من أهل طليطلة ، كان زاهدا فاضلا ناسكا صواما قواما ورعا كثير التلاوة للقرآن ويغلب عليه علم الحديث واشتهر بطلبه وجميعه . كان سنيا منافرا لأهل البدع والأهواء لا يسلم على أحد منهم ، ما رؤى في وقته أزهد منه في الدنيا ولا أوفر منه مجلسا وكان لا يذكر في مجلسه شيء من أمور الدنيا الا العلم . كانت له ولصاحبه أبي جعفر ابن ميمون حلقة في المسجد الجامع يقرأ عليهما فيها كتب الزهد والرقائق والكرامات ورحل الناس اليهما ولما توفي صاحبه أبو جعفر أحمد بن محمد ابن ميمون اتفرد هو بالمجلس ، توفي ودفن بربض طليطلة سنة ٤٠٢ هـ (٣) .

وكان من زهاد القرن الخامس الهجري في الأندلس أبو محمد عبد الله ابن سلام الصنهاجي من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا وتوفي سنة ٤٠٢ هـ (٤) وأبو المطرف عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين ، من أهل طليطلة اشتهر بالعلم والعمل والفضل والتقشف والورع وكانت تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق وكان يعظ الناس بها ويذكرهم ، وكان الناس يرحلون اليه لسعة روايته وفضله توفي سنة ٤٠٣ هـ (٥) .

وكان منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمي ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا فاضلا من أهل الاجتهاد في العبادات مائلا الى التقشف والزهد ، حسن المذهب متبعا للسنن (٦) . وأبو بكر محمد التجيبي الحصار ، من أهل قرطبة ، كان من العلماء الفضلاء الزهاد ،

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٨٦ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٥٠ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٦) المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤١٢ .

خرج من الأندلس لأمر جرت له مع فقهاء ومحدثيها وأقام بسبته بالعدوة المغربية ثم عاد إلى الأندلس مستخفيا فورد قرطبة مستترا فعفا عنه المنصور ابن أبي عامر ولزم قرطبة ممسكا لسانه بقية حتى توفي سنة ٤٠٦ هـ (١) .

وكان منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد المعافري قاضي الجماعة بقرطبة وأصله من باجة ، استقضاء الخليفة هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر فكان محمود السيرة جميل الطريقة وكان يلج في الاستعفاء إلى أن أعفاه السلطان فانصرف عن العمل محبوبا من الناس شاكرًا لله على الاستعفاء وتصدق لذلك بمدى من قمح ودخل بيته فعاود طريقته من الزهد والانقباض حتى توفي سنة ٤٠٧ هـ (٢) .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن عبد الله الكتاني الزاهد ، من أهل قرطبة كان فاضلا صالحا زاهدا ، علم القرآن بمسجد النخيل في قرطبة توفي سنة ٤٠٧ أو ٤٠٨ هـ (٣) . وأبو عثمان سعيد بن رشيق الزاهد من أهل قرطبة سمع بالأندلس وكانت له رحلة . كانت له رواية كثيرة لكنه اعتزل الناس وأقبل على العبادة لا يحدث إلا من قصد إليه منفردا ، توفي سنة ٤١٠ هـ ودفن بمقبرة الرض (٤) . وأبو القاسم أحمد بن عمر ابن عبد الله بن منظور الحضرمي يعرف بابن عصفور كان خطيبا بجامع اشبيلية وكان فاضلا صالحا عاقلا زاهدا في الدنيا من أهل العلم والأدب والتهم له أشعار في رثاء قرطبة ، أراد أهل اشبيلية أن يولوه أحكامهم فعزم على الخروج عن بلدهم حتى سكتوا عنه ، توفي سنة ٤١٠ هـ (٥) .

وكان منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن القنازعي ، من أهل قرطبة ، كان قد سمع بالأندلس من جماعة ثم رحل إلى الشرق سنة ٣٦٧ هـ فسمع بالقيروان وبمصر وبمكة وعاد إلى الأندلس سنة ٣٧١ هـ على كثير وأقبل على الزهد والانقباض وقرأ القرآن وتعليمه ونشر العلم ، كان فقيها زاهدا ورعا متقشفا متقللا من الدنيا كثير الصوم والصلاة والتهجد حسن الاخلاق جميل اللقاء وقيل انه مجاب الدعوة . ندبه على

-
- (١) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٤ .
 - (٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٤ .
 - (٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٤ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١٥ .
 - (٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣١ .

ابن حمود الحسنى لما تولى الخلافة فى قرطبة الى الشورى فلم يقبل *
وتوفى القنازى سنة ٤١٣ هـ ودفن بمقبرة ابن عباس على مقربة من يحيى
ابن يحيى وشهد جنازته حفل عظيم (١) *

وكان منهم أبو عمر أحمد بن عيسى الالبيرى من أفراد الزهاد فى وقته ،
كانت له مقطوعات وأبيات كثيرة فى الزهد والعظات ، كان حيا يخاطب
بعض اخواته فى سنة ٤١٦ هـ (٢) *

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار ، من
أهل قرطبة ، روى بالأندلس عن جماعة ورحل الى المشرق فحج وسكن
مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وأفتى بها * كان من أهل العلم والذكاء
والحفظ والفهم عارفا بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء ، وكان ناسكا
متقشفا عظيم القدر عند السلطان والعامّة وقيل انه مجاب الدعوة توفى
سنة ٤١٩ هـ وكان الحفل فى جنازته عظيما وقيل ان طيورا تشبه الخطاف
حلقت فوق نعشه لم تفارقه حتى وورى ودفن بمدينة بلنسية (٣) *

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن سليمان يعرف بابن الحاج ،
من أهل قرطبة ، كان حافظا لكتاب الله مجودا له مع حلاوة صوته ، وكان
إذا أحيا فى الجامع لا يتمالك كل من سمعه من البكاء كان زاهدا يقول
شعرا حسنا وكان له تأليف فى الزهد كبير ، خرج فى رحلة للحج سنة ٤١٩
فلحقته المنية بالقيروان (٤) *

وكان منهم أبو الوليد هشام بن محمد بن سليمان بن اسحاق بن هلال
القيسى السائح الزاهد من أهل طليطلة روى عن عدد من الزهاد مثل
عبدوس بن محمد وابن ذنين وابن أبى زمنين ، كان زاهدا فاضلا متنسكا
متبتلا منقطعا عن الدنيا صواما قواما يصوم رمضان فى الفهمين ويصنع
فى عيد الفطر طعاما كثيرا لأهل الحصن ولن حضره من المرابطين وكان

-
- (١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، وابن فرحون :
المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨٥ .
(٢) ابن بسام : اللخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، قسم ١ مجلد ٢
ص ٨٤٧ .
(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١٠ ، والمقرئ :
المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٦ - يجعل المقرئ وفاته سنة ٤١٧ هـ .
(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٣ .

يرابط بنفسه في الثغور ويلبس الخشن من الثياب ، توفي سنة ٤٢٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن خزرج ، من أهل اشبيلية روى عن غير واحد منهم أبي أيوب سليمان بن ابراهيم الزاهد الغافقي . كان من أهل العلم والعمل والزهد في الدنيا ، شاركنا في عدة علوم ، توفي سنة ٤٢١ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد ابن ذنين الصدي ، من أهل طليطلة ، سمح بيلدة وبمدينة الفرج وبقرضبة ثم رحل الى المشرق مع أبيه سنة ٣٨١ هـ فحج وسمع بمكة وببصر وبالقيروان ثم انصرف الى الأندلس فسكن طليطلة وروى بها ورحل الناس اليه من البلدان . كان خيرا فاضلا زاهدا عابدا مجتهدا دينا ورعا متواضعا سبب علما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم وكان محبوبا من جميع الناس لم يختلف اثنان في فضله ويترك الناس بقلته . كانت جل بضاعته قراءة كتب الزهد وروايتها وشيء من كتب الحديث . توفي سنة ٤٢٤ هـ (٣) .

وكان منهم أبو بكر أحمد بن اسماعيل بن سعيد القيسي يعرف بالسبتي ، أصله من اشبيلية وسكن سبته فنسب اليها ، كانت له حجة سمع فيها . وكان من أهل الزهد والانقباض والعناية بالعلم . توفي بسبته سنة ٤٢٩ هـ (٤) .

وكان منهم الامام الزاهد أبو عمر الحصار ، كان شديد الورع كثير الانقباض عظيم الصبر ، توفي سنة ٤٢٩ هـ (٥) وأبو الوليد يونس ابن عبد الله بن محمد بن مغيت قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعة يعرف بابن الصفار . وكان من أهل العلم بالحديث فقيها عالما بالعربية قائلا للشعر النفيس في معاني الزهد وما شابهه بليغا في خطبة كثير الخشوع فيها ميتمالك من سمعه عن البكاء وكان خيرا فاضلا زاهدا

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٤٩ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٥ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٠٤ .

في الدنيا راضيا منها باليسير ، من تواليفه كتاب فضائل المنقطعين الى الله عز وجل وكتاب التسلي عن الدنيا بتأميل خير الآخرة وكتاب فضائل المتجهدين وكتاب الابتهاج بحبة الله عز وجل وكتاب المستصرخين بالله تعالى عند نزول البلاء وغير ذلك من تواليفه في معاني الزهد وضروبه ، توفي سنة ٤٢٩ هـ ودفن بمقبرة ابن عباس وشهده خلق عظيم (١) .

وكان منهم أبو محمد حماد بن عمار بن هاشم الزاهد من أهل قرطبة ، رجلا صالحا زاهدا ورعا يتبرأ الناس به وتوفي سنة ٤٣١ هـ (٢) . وأبو عمرو معوز بن داود بن دلهات الأزدي التاكرني الزاهد من حضرة رندة ، كان فقيها جليلا وعابدا مجتهدا وعالما بكثير من الحديث من أهل الخير والصلاح والزهد والورع والتواضع وقيل انه مجاب الدعوة توفي سنة ٤٣١ هـ (٣) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن لباج الأموي السنتجياي الى والصلاح والسياسة ومن أهل الكتابه والبلاغة والنباهة لكنه تخطى عما كان بسبيله من الكتابة ولزم النسك والعبادة وزهد في الدنيا الى أن توفي سنة ٤٣٥ هـ (٤) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن لباج الأموي السنتجياي من أهل قرطبة ، رحل وجاور بمكة أربعين عاما وإذا أراد أن يغوط خرج من الحرم الى الحل فيقضى حاجته تعظيما للحرم . كان خيرا عاقلا حليما جوادا زاهدا متبتلا منقطعا الى ربه ورعا ولم تكن للدنيا عنده قيمة ولا قدر . توفي بقرطبة سنة ٤٣٩ هـ ودفن بمقبرة الربض قبلى قرطبة (٥) .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد التجيبي يعرف بابن المشاط من أهل طليطلة أخذ عن أبي عبد الله بن الفخار كان ثقة من أهل الزهد والورع والصلاح وغلبت عليه العبادة ، توفي حوالي سنة ٤٣٩ هـ (٦) .

-
- (١) ابن بشكوال المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٨٤ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٦ . الضبي : المصدر السابق ص ٢٧٦ .
(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٢٥ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧١ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧١ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥١ .

وكانت منهم أمة الرحمن بنت أحمد بن عبد الرحمن بن عبد القاهر العبسي الزاهدة ، كانت تروى عن أبيها ، وكانت صوامة قوامة وتوفيت بكرالم تنكح فقط سنة ٤٤٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو بكر مزين بن جعفر بن مزين من أهل قرطبة ، كان فاضلا زاهدا منقبضا عن الناس ، توفي سنة ٤٤١ هـ (٢) . وعبد الرحمن ابن ابراهيم بن محمد بن عون الله بن حدير ، من أهل قرطبة رحل الى المشرق فسمع بمصر وبمسكة وبالقيروان ثم انصرف الى الأندلس فكان أحد العدول وكان فاضلا ناسكا ورعا زاهدا صدوقا من بيت علم وشرف وقد جربت له دعوات مستجابات وكان اماما بمسجد عبد الله البلنسي وتوفي سنة ٤٤١ هـ ودفن بمقبرة أم سلمة (٣) .

وكان منهم أبو العاصي حكيم بن محمد بن حكيم بن محمد الجذامي يعرف بابن افرائك ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا ثقة ، كان صليبا في السنة متشددا على أهل البدع غيفا ورعا صبورا على القل رافضا للدنيا مهينا لأهلها منقبضا عن السلطان لا يأتيهم زائرا ولا شاهدا ، توفي سنة ٤٤٧ هـ ودفن بمقبرة أم سلمه وقيل انه رأى على نعشه أيضا يوم دفنه طيورا لم تعهد كانت تحلق فوقه وتتبع جنازته (٤) . وأبو عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموي ، من أهل طليطلة روى عن الصاحبين ابن شنطير وابن ميمون وغيرهما ، وكان فاضلا غيفا دينا ثقة متقبضا كثير الصلاة والصيام وكان قد نبذ الدنيا وأقبل على العبادة توفي سنة ٤٤٨ هـ (٥) . وأبو عمر أحمد بن محمد بن عمر الصدفي الزاهد يعرف بابن أبي جناده من أهل طليطلة ، كان من أهل العلم والعمل وترك الدنيا صواما قواما منقبضا عن الناس فارا بدينه ملازما لثغور المسلمين ، توفي سنة ٤٥٠ هـ وحضر جنازته المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وقتذاك (٦) .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) الضبي : المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٠٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٩ .

وكان منهم أبو محمد القاسم بن الفتح بن يوسف يعرف بابن الزيولى ،
من أهل مدينة الفرج كان شاعرا زاهدا دينا ورعا متقللا من الدنيا له
أشعار كثيرة فى الزهد ، توفى سنة ٤٥١ هـ (١) .

وكان منهم أبو جعفر بكر بن عيسى بن سعيد بن أحمد بن علاء
ابن أشعت الكندى الزاهد ، من أهل قرطبة ، كان فريدا فى نسكه وزهده
وصيانة نفسه وانقباضه عن جميع أهل الدنيا ، كان يتأسى بالسلف الصالح
من الصحابة والتابعين ، توفى سنة ٤٥٤ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى ، يعرف
بالشارقى ، من أهل طليطلة ، سمع بالأندلس وله رحلة ، كان من خيار
المسلمين وممن انقطع الى الله عز وجل ورفض الدنيا وتجرد لأعمال الآخرة
مجتهدا فى ذلك بلا أهل ولا ولد ، لم يباشر محرما الى أن مات على أقوم
طريقة . كان حسن الخلق متواضعا قليل المال راضيا باليسير من المطعم
 والملبس ، توفى سنة ٤٥٦ هـ (٣) .

وكان منهم أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان التجيبى يعرف
بابن الباليه ، من أهل طليطلة ، سمع بالأندلس وله رحلة الى المشرق ،
كان زاهدا فاضلا من أهل الصيام والتلاوة والورع والانقباض عن الوجاهة
والرياسة امتنع عن تولي الاحباس توفى فيما يبدو بعد سنة ٤٩٢ هـ (٤) .
وكان منهم عمرو بن اسماعيل بن الحصار الزاهد صاحب الالبيرى ،
توفى سنة ٣٦٦ هـ (٥) .

وأبو بكر جماهر بن عبد الرحمن بن جماهر الحجرى ، من أهل
طليطلة ، كان فقيها مالكا عالما بالفتوى وعقد الشروط مشاورا فى الأحكام

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٠ .

— من شعره فى الزهد :

يا معجبا بعلائقه وغنائمه ومطولا فى الدهر حبل رجائه
كم ضاحك اكفانه مشورة ومؤمل والموت من تلفائه

(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ج ١ ص ١١٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٢٠ .

(٥) الضبى : المصدر السابق ، ص ٤٣٦ .

وله مجلس يعظ الناس في آخره وتقرأ عليه كتب الزهد والرقائق وكانت العامة تعظمه ، توفي سنة ٤٦٦ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن نعوز بن أحمد المعافى من أهل شاطبة ، كان من أهل العلم والفهم والصلاح والورع والزهد مشهوراً بذلك كله ، توفي سنة ٤٧٥ هـ (٣) . وأبو الربيع سليمان بن ربيع القيسى من أهل غرناطة كان من أهل الاتقياء والصلاح والعفاف والزهد في الدنيا ، ولى الفتيا ببلده فزهد فيها لاشتغاله بها يعني (٤) .

وكان منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن فرج الأنصاري يعرف بابن رميله ، من أهل قرطبة ، كان معتنيا بالعلم وصحبة الشيوخ وله شعر حسن في الزهد ، كان من أهل العلم والورع والفضل والدين استشهد بالزلافة مقبلاً غير مدير سنة ٤٧٩ هـ (٥) .

وكان منهم عبد الله بن حيان الأروسي نزيل بلنسية فقيه محدث عارف توفي سنة ٤٨٧ هـ (٦) وأبو عبيد الله عبيد بن محمد الزاهد ، من أهل قرطبة ، كان يسكن بالمبلطة ، وكان رجلاً صالحاً يضرب به المثل في الزهد (٧) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن مروان بن قيسر الاموي يعرف بابن اليمناش ، من أهل ألمرية ، فاق في الزهد والورع أهل وقته وكان العمل أملك به ، توفي سنة ٤٩٦ هـ (٨) . وأبو داود سليمان بن نجاح المقرئ ، مولى المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر كان زاهداً سكن بلنسية وتوفي بها سنة ٤٩٦ هـ (٩) .

وكان منهم أبو الحسن علي بن خلف بن ذى النون بن هذيل العبسي المقرئ من أهل قرطبة لكن أصله من اشبيلية . له رحلة سمع فيها بيت المقدس وبمصر . كان من جلة المقرئين وخيارهم ، علم الناس القراءة بجامع

-
- (١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٢ .
 (٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧٤ .
 (٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٣ .
 (٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٨ .
 (٥) الضبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .
 (٦) نفس المصدر ، ص ٤٠٠ .
 (٧) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٢ .
 (٨) ابن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدوق ص ٤٦٦ .
 الضبي : المصدر السابق ص ٣٠٣ .

قرطبة وأسمعهم الحديث • اشتهر بالخير والصلاح والتواضع والزهد في الدنيا والرضا منها باليسير واشتهر بإجابة الدعوة ، توفي سنة ٤٩٨ هـ ودفن بمقبرة الربض في جنازة مشهودة (١) •

وبوفاة أبي القاسم خلف بن محمد الأنصري المعروف بالسراج في سنة ٥٠٠ هـ تختتم وفيات زهاد القرن الخامس الهجري (٢) لكن الساحة الاندلسية لم تخل بعد ذلك من الزهاد بل ظل لهم وجودهم وشأنهم على الرغم من تزايد أعداد المتصوفة على حسابهم • ويمكننا أن نشير الى بعض زهاد مطلع القرن السادس الذين لحقتهم منيتهم في مطلع هذا القرن لكنهم ينتمون حقيقة الى القرن الخامس الهجري •

كان من هؤلاء أبو محمد عبد الله بن سعيد بن حكم المقتلى الزاهد من أهل قرطبة ، قرأ القرآن على أبي محمد مكي بن أبي طالب المقرئ وكان آخر من بقي ممن قرأ عليه • كان المقتلى أحد الزهاد العباد الفضلاء الصالحاء الذين يشرك برؤيتهم ودعائهم توفي سنة ٥٠٢ هـ (٣) • وخلف ابن سليمان بن فتحون الأوريوالي ، فقيه فاضل عارف تولى قضاء شاطبة ودانية ثم استعفى ولزم الانقباض وكان يسرد الصوم ، توفي سنة ٥٠٥ هـ (٤) وأبو اسحاق ابراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي يعرف بابن القاسي من أهل ستيه ودخل الاندلس كان من أهل العلم والفضل والتقى ، توفي بسببه سنة ٥١٣ هـ (٥) • ومحمد بن يحيى القراء قاضي ألمرية ، من أهل الفقه والفضل والزهد والورع ، كان — فيما يقال — مجاب الدعوة متقللاً من الدنيا ، توفي سنة ٥١٤ هـ (٦) •

وأشهر زهاد مطلع القرن السادس الهجري الذين ينتمون الى القرن الخامس أبو علي الصدقي بن محمد بن فياره بن حيان القاضي المعروف

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٢٣ •

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٧٥ •

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٩٠ •

(٤) الضبي : المصدر السابق ، ص ٢٨٤ •

(٥) عياض : الغنية ، ص ١١٩ •

وابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠١ •

(٦) الضبي : المصدر السابق ، ص ١٤٦ •

بأبن سكره ، كان من أهل سرقة وسكن ألمرية وبلنسية . كان إماماً محدثاً زاهداً هو الذي صنف ابن الآبار معجماً في أصحابه ، توفي سنة ٥١٤ هـ (١) وكان لأبى على الصدفي أصحاب — أو تلاميذ — كثيرون من الزهاد منهم من توفي قبله كأبى مروان عبد الملك بن مسرة بن خلف بن الفرج من أهل شنتمرية الشرق ، سكن قرطبة وتولى قضاء الجماعة بها وكان من أهل الزهد والورع والتواضع والتقلل من الدنيا على تمكنه منها توفي سنة ٥١٢ هـ (٢) ومنهم من توفي بعده مثل ابن الخياط محمد بن حسين ابن أبى بكر الحضرمي من أهل دانية ، كان فقيهاً مشاوراً معروفاً بالفضل والزهد (٣) وقد كان لأبى على الصدفي وأصحابه أثر في استمرارية الزهد على الساحة الأندلسية رغم ظهور النزعة الصوفية وتفشيها في الأندلس .

(١) ابن الآبار : المصدر السابق ، مقدمة .

الضبي : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .

(٢) ابن الآبار : المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٥ .

التصوف في الأندلس

تصاعد الزهد في الأندلس مؤديا الى التصوف على نحو ما حدث في بلاد المغرب الاسلامي . وكما أنه كان من الصعوبة بمكان تحديد بداية قاطعة للتصوف في بلاد المغرب فقد كان الأمر كذلك بالنسبة للأندلس ، لكنه اذا صعب علينا تحديد بداية قاطعة للتصوف في الأندلس فليس من العسير أن نتعرف على أسباب ظهور نزعة التصوف في هذا المصر الاسلامي .

لقد ظهر التصوف في الأندلس نتيجة التصاعد الذي ألم بالعوامل المسببة للزهد على نحو ما أشرنا سابقا ، فقد كثرت رحلات الأندلسيين — من زهاد وغير متزهدين — الى المشرق ، والتقى بعضهم بمتصوفة المشرق فتأثروا بهم ونحووا نحوهم في الاغراق والمغالاة في الزهد وصولا به الى التصوف فكم من أندلسي رحل الى المشرق ثم قمل الى الأندلس وقد نزع الى التصوف بعد أن تأثر بمن لقيه من المتصوفة . فعلى سبيل المثال كان أبو عثمان سعيد بن عمران بن مشرف من أهل قرطبة ، أصاب بعض التفصير في حديثه ثم أنعم الله عليه فأقلع عما كان فيه وتصدق بأكثر ماله وخرج حاجا ودخل العراق فسمع من بندار محمد بن بشار وغيره وتعبد حتى صار منقطع القرين وتوفي في صدر أيام الأمير عبد الله الذي تولى سنة ٢٧٥ هـ (١) . وأبو محمد عبد الله بن مسرة بن نجيج ، من أهل قرطبة ، رحل به أخوه ابراهيم بن مسرة — وكان تاجرا — الى المشرق وهو صغير فسمع بالبصرة من بندار محمد بن بشار وغيره وعاد الى الأندلس فردد فيه ما سمعه بالمشرق حتى اتهم بالقدر مع أنه كان فاضلا دينيا طويل الصلاة ورحل ثانية الى المشرق في آخر عمره وتوفي بمكة سنة ٢٨٦ هـ (٢) . وكان عبد الملك بن عبد السلام المعروف بابن قلمون من أهل قرطبة قد سمع من محمد بن وضاح بن بزيغ وغيره وزهد في الدنيا منقطعا الى الله عز وجل ثم رحل الى المشرق فالتقى بعباده وأخذ عنهم وجاور بمكة متصوفا فلم يزل على منهج الأبدال حتى توفي بمكة وورد نعيه الى الأندلس ٣٠٢ هـ (٣) .

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٠ .

على هذا النحو كان الأندلسيون يلقون في رحلاتهم صوفية المشرق ويأخذون عنهم ويسيطرون على طريقهم في النزوع إلى التصوف . ومن ناحية أخرى ، وفد إلى الأندلس عدد من صوفية المشرق يدعون إلى نزعهم وينشرونها بين الأندلسيين ، من هؤلاء - على سبيل المثال - أبو العباس طاهر بن محمد بن عبد الله بن موسى بن إبراهيم المعروف بابن المهند . كان من أهل بغداد ، وصل الأندلس في جمادى الأولى سنة ٣٤٠ هـ . كان شاعرا مقلقا له رسائل عجيبة ومقالات في معاني الزهد على مذاهب الصوفية ، توفي بقرطبة سنة ٣٩٠ هـ (١) . وأبو اسحاق إبراهيم بن علي ابن محمد بن أحمد الديلمي الصوفي من أهل خراسان ، دخل الأندلس سنة ٣٥٨ وكان قد لقي بالمشرق قبل دخوله الأندلس عددا من الصوفية مثل أبي عبد الله خفيف بفارس وجعفر بن نصر الخلدی ببغداد وأبي عبد الله الروذباري يصور وأبي بكر الرقي بدمشق وأبي الخير الأقنع التينياتي بالتينيات (٢) . ودخل الأندلس سنة ٣٧٢ أبو بكر أحمد بن محمد ابن صالح بن النضر الأنطاكي الصوفي ، كان مذهبه التصوف والسياسة جوالا في البلاد (٣) وقدم إلى الأندلس أبو عبد الله محمد بن شجاع الصوفي ، كان رجلا صالحا مشهورا على طريقة قدماء الصوفية المحققين وذوى السياحة المتجولين ، أقام في الأندلس حتى توفي بعد سنة ٤٣٠ هـ بقليل (٤) .

وكان من المتصوفة الوافدين إلى الأندلس أبو الحسن علي بن حمزة الصقلي دخل الأندلس قبل سنة ٤٤٠ هـ ، كان يتكلم في فنون ويشارك في علوم ويتصوف (٥) وأبو عبد الله الحسين بن الحسن بن الفتح الدمياطي الواعظ ، كان يحدث بحديث الصوفية عن أبي الحسن سهل بن محمد ابن الحسين الصوفي عن أبي عبد الرحمن السلمي ، حدث بطليطلة وبطليوس سنة ٤٧٣ هـ (٦) .

-
- (١) ابن القرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٢ .
 (٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٢ .
 (٣) نفس المصدر ، ج ٢٠ .
 (٤) الحميدى ، المصدر السابق ص ٦١ الضبي : المصدر السابق ، ص ٨١ . وابن بشكوال : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٩٥ .
 (٥) الحميدى : المصدر السابق ص ٤٣٣ الضبي : المصدر السابق ص ٤٢١ .
 (٦) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

ومن العوامل الهامة الدافعة الى نزوع أهل الأندلس الى التصوف سوء الأحوال السياسية واضطراب الأندلس لفترات طويلة من تاريخه الاسلامى ، فلقد كان النصف الثانى كله من القرن الثالث الهجرى فترة فتن وتوراث وقلقل واضطرابات عانى منها الأندلسيون ولم تنته هذه الفتن والقلقل الا على يد عبد الرحمن الثالث بن محمد الذى تلقب بالناصر لدين الله الذى تمكن فى صدر القرن الرابع الهجرى من اعادة الاستقرار الى الأندلس لكن الفتن والثورات لم تلبث أن أطلت برأسها من جديد فى مطلع القرن الخامس الهجرى فى شكل فتنة ميرة جامحة زالت أركان الأندلس وخلقت متفرقا الى دويلات صغيرة متناحرة هى التى عرفت باسم ممالك الطوائف وقد تنافس حكام هذه الدويلات فى البذخ من ناحية وتنازعوا على السلطان من ناحية أخرى وتقاوسوا عن التصدى لنصارى الأسبان مما كان له أوخم العواقب على الوجود الاسلامى فى الأندلس وكان لذلك رد فعل عنيف فى نفوس الأندلسيين وأصيب بعضهم بالقنوط واليأس وجنح منهم من ضح الى الانقباض والتصوف .

وكان مما ساعد على ميل الأندلسيين الى التصوف حركة المتصوفة فى المجتمع الأندلسى ، فقد كان كثير من المتصوفة يعملون على نشر طريقهم وبث نزعتهم فى نفوس الأندلسيين ، بل ان محمد بن مسرة الجبلى نظم دعوة منسقة هدفها استمالة الناس الى مذهبه . وكان لتولى بعض المتصوفة خطة القضاء وحسن سيرتهم فيها أثره فى استمالة بعض الأندلسيين الى التصوف ، فقد ولي عبد الرحمن الأوسط بن الحكم على القضاء أبا عبد الله معاذ بن عثمان الشعبانى ، وكان الشعبانى هذا من أوائل متصوفة الأندلسيين ، قيل انه كان من الأبدال عابدا مجاب الدعوة توفى سنة ٢٣٤ هـ (١) .

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، وابن سعيد : المصدر السابق ج ١ ص ١٥٠ - يقدم ابن حيان عن الفترة التى تولى فيها معاذ بن عثمان الشعبانى القضاء معلومات مضطربة ، فيذكر أولا أنه تولى القضاء بقرطبة بضعة اشهر ثم عزله عبد الرحمن الأوسط بدعوى تعجله فى الحكم حتى أنه فصل فى سبعين قضية فى مدة تولية القصيرة ثم يذكر لاحقا أنه تقلد القضاء ما سنة ٢٣٢ هـ ومات وهو يليه سنة ٢٣٤ هـ فعمل عليه ثلاثة أعوام . واغلب الظن انه قد حدث خلط بين معاذ بن عثمان وأخيه يخامر بن عثمان الذى يذكر ابن حيان نفسه أنه كان قد تولى قضاء قرطبة سنة ٢٢٠ هـ وعزل آخرها فمدة ولايته اقرب الى ان تكون الشهور السبعة المشار اليها آنفا .

وكان من المتصوفة من شارك في الجهاد والرباط بثغور الأندلس ،
من هؤلاء - على سبيل المثال - أبو عثمان سعيد بن محمد بن سيد أبيه
ابن مسعود الأموي البلدي من ناحية بلدة من عمل ربه ، وصف بأنه
كان رجلا صالحا متقشفا يلبس الصوف ، وكان كثير الرباط والجهاد
في الثغور (١) .

وفضلا عن ذلك فقد كان من الطبيعي أن يظهر التصوف في بلاد
الأندلس امتدادا لظهوره في بلاد المغرب من ناحية وانعكاسا لانتشاره في
المشرق الاسلامي من ناحية أخرى ، اذ كان للتيارات المشرقية - كما
أشرنا آنفا - صداها في كل من بلاد المغرب الاسلامي والأندلس على حد
سواء .

تصاعد التصوف في الأندلس :

على الرغم من صعوبة تحديد بداية قاطعة للتصوف في بلاد الأندلس -
كما سبق أن أشرنا - فانه من الممكن أن نعتبر تصوف أبي عبد الله معاذ
ابن عثمان الشعباني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ارهاصة يظهر نزعة التصوف
في بلاد الأندلس ، وقد توالى بعد ذلك ظهور عدد من المتصوفة الأندلسيين
منذ أواخر القرن الثالث الهجري لكن تصوفهم هذا المبكر لم يكن يعدو
كونه سلوكا فرديا لم يبلغ بعد أن يكون تيارا عاما اذ كانت نزعة الزهد
لا تزال الأكثر قبولا وانتشارا على الساحة الأندلسية ومن ثم لم يكن
للتصوف بعد رصيد كبير بين أهل الأندلس فظل مجرد نزعة فردية ينزع
اليها نفر قليل من الأندلسيين . وفضلا عن هذا فقد كان هذا التصوف
الفردى المبكر في أغلبه مرحلة انتقالية بين الزهد والتصوف فكان كثير
من رجاله يجمعون بين صفات الزهاد والمتصوفة بل كان منهم من يعرف
بالزاهد لكنه ينحى في سلوكه منحى المتصوفة .

كان من متصوفة هذه المرحلة المبكرة للتصوف في الأندلس ،
أبو عبد الله محمد بن سلمة بن حبيب بن قاسم الصدي من أهل تطيله ،
كان قد رحل الى المشرق وسمع بالقيروان مع محمد بن وضاح بن بزيع
الزاهد وشاركه في كثير من رجاله ثم سمع من محمد بن وضاح نفسه
بقرطبة لكن ابن سلمة الصدي نزع الى التصوف فقد وصف بأنه أحد

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١١ .

على قضائها حتى اماره عبد الله بن محمد انتقل الى قلعة أيوب زمن الفتنة ثم عاد الى تطلية مرة أخرى (١) . وكان منهم أبو محمد عبد الله بن مسرة ، من أهل قرطبة ، رحل به أخوة ابراهيم بن مسرة وهو صغير الى المشرق وصحب في رحلته محمد بن عبد السلام الخشنى الزاهد ، سمع بالبصرة من بندار محمد بن بشار وغيره وتردد بالبصرة ثم انصرف الى الأندلس فروى عنه جماعة من الأندلسيين ، ومع أنه كان فاضلا دينيا طويل الصلاة فقد اتهمه البعض بأنه يكتتم القول بالقدر لاسيما وأن أحد القدرية كان صديقا له وقد دفع ذلك بعض الدارسين المحدثين الى القول بأن أبا محمد عبد الله بن مسرة كان من المعتزلة (٢) لكنه كان فيما يبدو من المتصوفة اذ أنه ترك كسبه بيده ورحل ثانية بعد أن كبر ابنه محمد الى المشرق فسكن مكة وأصبح له فيها جاه عريض حتى توفي بها سنة ٢٨٦ هـ (٣) .

وكان من أوائل المتصوفة في الأندلس أبو عثمان سعدون بن اسماعيل ، من أهل ريه ، سمع من محمد بن وضاح ومن غيره كان عالما بالفرائض واللغة والشعر ، ورعا زاهدا متبتلا عددناه - سابقا - بين الزهاد لكنه يدخل في عداد المتصوفة من باب أنه لم ينكح ولا تسرى ، كانت وفاته سنة ٢٩٥ هـ (٤) .

وكان منهم أبو أيوب سليمان بن حامد من أهل قرطبة ، يلقب بالزاهد لكنه وصف بأنه أعبد أهل زمانه وأحد الأبدال وكان يقال انه مجاب الدعوة ، كانت وفاته سنة ٣١١ هـ (٥) .

هكذا كان التصوف الفردى المبكر في الأندلس خليط بين الزهد والتصوف ومن ثم كان محدود الأثر بين الأندلسيين لم يلفت أنظارهم ولا شد انتباههم اذ لم ير الأندلسيون فيه فرق كبير عن الزهد اذ لم يختلف الأبدال ، بعيد الصوت في الخير جليلا ، وكان يخاطب الأمراء فلا يسود واحدا منهم في كتابه استقضاء الأمير محمد بن عبد الرحمن بتطيله وظل

(١) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢ .

(٢) محمد الوزاد ، الملامح العامة لشخصية ابن مسرة وآرائه ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بقاس عدد ٦ (٨٢ - ١٩٨٣) ص ٣٣ - ٦٤ .

(٣) ابن الغرضي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٣ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٦ .

طريق أصحابه كثيرا عن سلوك الزهاد ولم يقولوا أقوالا تختلف كثيرا عن أقوال الزهاد أو تتعارض مع آراء مالكية الأندلس فأقصى ما لوحظ في هذا الصدد مجرد اشتباه في أن أبا محمد عبد الله بن مسرة يكتب في نفسه قولاً بالقدر ولا يجهر به ومن ثم فقد كان هؤلاء المتصوفة الأوائل ينعنون أحيانا بالزهاد كأبي أيوب سليمان بن حامد الذي لقب بالزاهد ووصف بأنه أحد الأبدال .

وبينما شهدت أواخر القرن الثالث الهجري في الأندلس ذلك التصوف الفردي المبكر الذي لم يلحظه أكثرية أهل الأندلس لاختلاطه بالزهد ، فقد شهدت بداية القرن الرابع الهجري طفرة حقيقية على طريق التصوف أحدثها محمد بن عبد الله بن مسرة الذي طلع على أهل الأندلس بنزعة تصوفية — أو دعوة — لم يعمدوا لها مثيلا من قبل في بلادهم وأطلقوا عليها اسم المسرية (١) .

كان بلاد الأندلس قد تهيأت — نسييا — لثل هذه الطفرة الصوفية التي عرفت بالمسرية إذ كانت الأحوال السياسية في الأندلس قد بلغت درجة كبيرة من السوء في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري بسبب التمرد على الحكومة المركزية والثورات التي اجتاحت الأندلس حينذاك لتشمله فتنة مبيرة هي المعروفة تاريخيا باسم الفتنة الأندلسية الثانية في آخر عصر الامارة والتي لم تنته الا على يد عبد الرحمن الثالث بل انها أنهت معها عصر الامارة نفسه ليقوم بدلا منه عصر أندلسي جديد هو عصر الخلافة الذي بدأه عبد الرحمن الثالث سنة ٣١٦ هـ حينما أعلن الخلافة في الأندلس ونصب نفسه خليفة وتلقب بالناصر لدين الله . ولا شك أن أهل الأندلس قد عانوا من ويلات تلك الفتنة التي أنهت عصر الامارة ونالهم من شرها الكثير فزاد نزوع الكثير منهم الى الحياة الروحية ولم يعد الزهد نزعة روحية كافية لكثير من الذين يعرضون عن الدنيا ومباهجها وانما تطلعو الى نزعة أكبر عمقا وتوغلا في الناحية الروحية فتصاعدوا بالزهد نحو التصوف .

(١) يرى بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٠٠) ان تلك الطفرة تمثل الصورة النهائية للتصوف والتي سادت المشرق بعد ذلك .

وبينما كانت بلاد الأندلس تعاني شرور الفتنة الأندلسية الثانية وويلاتها كانت تيارات فكرية متنوعة قد وجدت سبيلها الى الأندلس فلم يعد الاتجاه المالكي منفردا وحده بالساحة الأندلسية وإنما أخذت تيارات فكرية أخرى طريقها الى الأندلس ، كما أن نزعة الزهد كانت تزداد انتشارا وعمقا وتضاعدا . ومن الدارسين من يرى أن المالكية الأندلسية كانت وقتذاك تعاني أزمة حادة من جراء استفحال الصراعات الشخصية بين فقهاء المالكية وتنافسهم على الحظوة عند الأمراء من ناحية ومن ناحية أخرى ما أصاب الفكر المالكي الأندلسي من جمود حينذاك بسبب التقليد العقيم الذي تشبث به فقهاء المالكية الأندلسية فأفقدتهم القدرة على الاجتهاد وأصابهم بالجهل حتى أنهم كانوا يحسدون عبد الملك بن حبيب لتقدمه عليهم بعلوم لا يعلمونها مع أن ما تبقى من مؤلفاته لا يبرر مثل هذا الحسد إذ أن كتابه في التاريخ ملئ بالأساطير المنقولة عن علماء المشرق دون أن يعنى بتمحيصها وتدقيقها بالروايات الصحيحة التي كانت متوفرة في الأندلس ، كما أنه لم يكن — على حد قول ابن القرضي — يعرف الحديث صحيحة من سبقيه ، وكان يتساهل ويحمل على سبيل الاجازة أكثر روايته (١) .

ويبدو أن المالكية الأندلسية كانت تعاني في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري من تقلص في نفوذها السياسي بعد أن فشل شيوخها في الإيقاع ببقى بن مخلد ، فمن الملاحظ أن نفوذهم في فترة الفتنة الأندلسية الثانية — التي أشرنا اليها — كان ضئيلا ولم يوجد بينهم من كانت له مكانة كمكانة يحيى بن يحيى الليثي وأقرانه مثل عبد الملك بن حبيب وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار وقاسم بن هلال وسعيد بن حسان وكان تقلص هذا النفوذ السياسي للمالكية الأندلسية من العوامل المواتية لظهور الطفرة المسرية إذ لم يجد ابن مسرة من يتصدى لدعوته في أولها ويقضى عليها قبل استفحالها .

ولد محمد بن عبد الله بن مسرة سنة ٢٦٩ هـ في بداية فترة عالى فيها الأندلس من الاضطراب السياسي والثقافي — على نحو ما أشرنا آنفا — ، ومع أننا لا نعرف الكثير عن نشأته إلا أنه نشأ في بيئة زهدية وأسرة

(١) محمد الوزاد : الاتجاهات الفكرية في الأندلس خلال القرن الثالث الهجري . مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية يقاس عدد ٤ — ٨٠ (١٩٨١) ص ص ١٤٨ — ١٧٨ .

زاهدة اذ كان أبوه عبد الله بن مسرة زاهدا نزع الى التصوف في أخريات حياته حتى أنه ترك كسبه بيده ، وكان أخوه ابراهيم زاهدا أيضا . وقد تتلمذ محمد بن عبد الله بن مسرة على والده الذي ترك له كتبه عند رحيله الأخير الى مكة وكان محمد قد كبر حينذاك . وتتلذذ محمد بن عبد الله بن مسرة أيضا على محمد بن وضاح وعلى محمد بن عبد السلام اللخسني المتوفى سنة ٢٨٦ هـ وكان اللخسني قد أحضر معه حين عودته من المشرق الى الأندلس كتاب المعارف لابن قتيبة وهو كتاب مليء بأخبار الخلاقات الدينية في المشرق فكان يلقيه على تلاميذه ومنهم محمد بن عبد الله ابن مسرة . وهكذا نشأ ابن مسرة في بيئة زهدية ملما بأخبار الخلاقات الدينية في المشرق ، ويبدو وأنه اهتم حينذاك بالفلسفة الأبيقورية اذ يؤكد ابن صاعد الأندلسي على اهتمامه بها (١) وإن كان بروكلمان يرى أنه من المتعذر معرفة كيفية وصول آراء أميئوقليس الى علم ابن مسرة (٢) .

وعلى الرغم من قلة ما ورد في المصادر التي وصلت إلينا عن تفاصيل حياة محمد بن عبد الله بن مسرة فإن بعض الدارسين المحدثين يشيرون الى وقائع من حياته غير مؤكدة فيرى آسين بلاثيوس أن محمد بن عبد الله ابن مسرة أسس قبل رحيله الى المشرق جماعة سرية اتخذ لها مقرا بجبل العروس قرب قرطبة وقد جعل جماعته سرية لخطورة تعاليمه وتجنباً لمعارضة النخبة المالكية المتشددين وخشية من تأليبهم للسلطة عليه في وقت مضطرب يبعث على الأخذ بالشبهة والشك في الولاء (٣) .

ويذهب بالنشأ الى ما هو قريب من ذلك اذ يذكر أن الأمير عبد الله سكت عن ابن مسرة وأتباعه خوفا مما قد يؤدي اليه تعقبه وأنصاره من فتنة تقتضي الحكمة تلافيها في وقت اجتاحت فيه الفتن الاندلس كله (٤) أي أنه كانت له جماعة قبل فراره الى المشرق في أواخر أيام الأمير عبد الله . لكننا اذا اطلعنا على ما كتبه كل من ابن حيان وابن القرضى عن ابن مسرة لا نجد عندهما ما يذهب اليه بلاثيوس عن تكوينه لجماعة سرية قبل

(١) طبقات الاسم ، ص ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٠٠ .

(٣) Asin Palacios; Ibn Massara y su Escuela. Madrid 1914; pp. 42-44.

(٤) تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٢٢٧ .

رحيله الى المشرق بل يذكر ابن حيان أنه « كان رحل الى المشرق فلقى هناك من درسه مذهبه » (١) . ومع أن ابن الفرضي يذكر أنه قيل له ان محمد بن مسرة اتهم بالزندقة فخرج فارا الى المشرق الا أننا نفهم مما كتبه ابن الفرضي أن محمد بن عبد الله بن مسرة لم يكن له مذهب ينسب اليه الا بعد عودته من المشرق الى الأندلس ، يقول ابن الفرضي « ورحل الى المشرق آخر أيام الأمير عبد الله ، قال لي الخطاب بن مسلمة اتهم بالزندقة فخرج فارا وتردد مدة واشتغل بملاقة المتكلمين وأصحاب المقالات وأهل الجدل من المعتزلة وغيرهم فحذق أقوالهم ثم انصرف الى الأندلس فأظهر نسكا وورعا واعتزالا للناس فأغثروا بظاهره واختلفوا اليه وسمعوا منه » (٢) .

واذا كان محمد بن عبد الله بن مسرة قد رحل في أواخر أيام الأمير عبد الله على قول ابن الفرضي فأغلب الظن أنه رحل في العقد الأخير من القرن الثالث الهجري خاصة وأن أحدا ممن أرخوا له لم يشر الى عزمه على لقاء أبيه في المشرق لأن أباه كان قد توفي بمكة سنة ٢٨٦ هـ ولا بد أن نفيه قد وصل ابنه قبل عزمه على الرحيل الى المشرق وهذا يستغرق بطبيعة الحال وقتا مما يرجح ما ذهبنا اليه من تحديد العقد الأخير من القرن الثالث الهجري وقتا لرحيل ابن مسرة الى المشرق . وقد قيل انه قد اصطحب في رحلته قرا ممن صاروا أتباعا له فيما بعد هم محمد بن حزم التنوخي المعروف بالمدني وأيوب بن فتح وأحمد بن غانم القرطبي ومحمد بن وهب المعروف بابن الصيقل (٣) . وقد مر ابن مسرة في طريقة الى المشرق بالقيروان وحضر مجلس علم لأحمد بن نصر بن زياد الثقفي المالكي المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٤) كما أنه التقى بمكة الشيخ المتصوف أبا سعيد الاعرابي المتوفى سنة ٣٤١ هـ ، ويحتمل أنه التقى أيضا أبا يعقوب النهرجوري المتصوف الذي جاور في الحرم المكي حتى توفي سنة ٣٣٠ هـ (٥) .

(١) المقتنى ، نشرت شاميتا ، ج ٥ ص ٢٠ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٣٩ .

(٣) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ص وبالشيا : المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٤) الخشنى : قضايا افريقية ، ص

Asin Palacios; op. cit., p. 47.

(٥)

تردد ابن مسرة بالشرق مدة ، ويبدو أنه بذل جهدا كبيرا لتكوين شخصيته الفكرية ، فقد اهتم بلقاء أهل الجدل والمتكلمين من معتزلة وغيرهم ولعل فلسفة أمبذوقليس قد وصلت اليه آنذاك فقد عنى في هذه الفترة بتحصيل علوم متنوعة وخرج من هذا التحصيل كثير العلم برؤسها واسع الرواية للآثار وشاعرا مقلقا وخطيبا بارعا مصعقا اذق في علوم اللسان العربي فامتلك القدرة على التأثير في مستمعيه أو على حد قول ابن حيّان « أوتي من عذوبة الكلام ومثانة الحجاج والغوص على دقيق المعاني والافتنان في ضروب العلوم ما يستلب به القلوب ولا يعيه عنه صواب » (١) .

عاد محمد بن عبد الله بن مسرة الى الأندلس في صدر دولة عبد الرحمن الثالث بن محمد الذي تلقب بعد اعلانه الخلافة سنة ٣١٦ هـ بالناصر بن الله . ويرر آسين بلاثيوس هذه العودة بانتهاج الناصر سياسة التسامح وحسب العلم وهدوء البلاد بعد توليه (٢) غير أن الواقع التاريخي صدر دولة عبد الرحمن الثالث - فترة عودة ابن مسرة الى الأندلس - يظهر أن الأندلس وقتذاك كان لا يزال يضطرم بنار الفتنة التي لم تخبذ أوارها إلا بعد وفاة ابن مسرة نفسه سنة ٣١٩ هـ (٣) ومن ثم فإن ابن مسرة لم يعد الى الأندلس لتسامح الناصر وهدوء البلاد بعد توليه على نحو ما يرى بلاثيوس وإنما عاد ابن مسرة ليستفيد من انشغال عبد الرحمن الثالث في الفتنة أو على حد قول ابن حيّان « أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة » (٤) .

كان محمد بن عبد الله بن مسرة حين عودته الى الأندلس قد توسل الى مذهب خاص به مزج فيه بين أقوال بعض الصوفية مثل ذي النون الأحميمي المصري وأبي يعقوب النهرجوري من ناحية وكلام المعزة وأراء الفلاسفة من ناحية أخرى فقال بالاستطاعة وبالوعد والوعيد وضعف أحاديث الشفاعة والتأويل وتصحيح الأعمال ومحاسبة النفوس على حقيقته

(١) المقتبس ، نشر شالميتا ، ج ٥ ص ٢١ .

Von Palacios: op. cit. cit. p. 47.

(٢)

(٣) المقتبس ، نشر شالميتا ، ج ٥ ص ٢٠ .

(٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٠ .

الصدق (١) ومن ثم اختلفت فيه آراء الدارسين فمنهم من يراه مذهبا زهديا صوفيا ومنهم أيضا من يراه مذهبا كلاميا اعتزاليا (٢) لكنه كان من الغالب مذهب من مذاهب التصوف الفلسفي .

وكان محمد بن عبد الله بن مسرة أول عودته الى الأندلس حذرا يخفى معتقده يدعو له في سرية انتظارا لظهوره في الوقت المناسب ، ويبدو أنه استفاد في ذلك من دراسته للحركات السرية التي شهدها المشرق الاسلامي (٣) وعلى ذلك فقد أعد ابن مسرة خطة محكمة لنشر مذهبه يبدو أنها كانت على النحو التالي :

١ — أظهر محمد بن عبد الله بن مسرة أول عودته من المشرق ورعا وزهدا على النهج المألوف في الأندلس ، يقبله الأندلسيون ولا يثير حفيظتهم أو على حد قول ابن حيان « توارى في شعب الزهاد » (٤) فاستهوى بهذا الزهد والورع قلوب جماعة من أهل الأندلس ترددوا عليه واستمعوا له .

٢ — أمعن محمد بن عبد الله بن مسرة في كتم أهدافه وإخفاء مراميه مظهرا علما عميقا بفقهِ المالكية فكان — كما يقول ابن حيان « يسرد مسائل المالكية عمدة السنة سرد القيران ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان حتى يخرج فيها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفيه الى اليوم واقعا على أنها أفضل وأوجز وأبسط من كل مختصرة صيغت فيها ، فبرسوخة في بسط العلم وتأنيه في الاستدراج للخصم كان يستهوى العقول ويصيد الأفتدة » (٥) .

٣ — اتبذ ابن مسرة مكانا قصيا عن قرطبة فسكن ضيعة له بأحدى قراها — بحبل العروس قرب قرطبة — « فظل دعائه وأصحابه يتتابونه بمكانه ويتكزرون عليه ويأخذون عنه فيمكنه توحده بهم من الاذاعة فيهم بما في نفسه مما لا يمكنه اذاعته بالمصر » (أى قرطبة) (٥) .

(١) محمد الوزاد : الملامح العامة لشخصية ابن مسرة وآرانه ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية يقاس عدد ٦ (٨٢ — ١٩٨٣) ص ص ٣٣ — ٦٤ .

Asin Palacios, op. cit., p. 48.

(٢)

(٣) المقتبس ، نشرشالميتا ، ج ٥ ص ٢٠ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢١ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٠ .

وابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٩ .

٤ — كان أسلوب ابن مسرة في الدعوة « أن يلقي أول من يأتيه مقتبسا من أهل السلامة بالمساهلة الى أن يختله عن رأيه بالمناضلة ، فإذا أصغى الى عذوبه منطقة وعلق في شرك حجاجه فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ويشككه في اعتقاده فيقلبه الى اختياره ويحصله في أتباعه » (١) .

٥ — نظم ابن مسرة دعوته تنظيما دقيقا ، فضلا عن ستار السرية والكتمان الذي أحاطها به فقد نظم جهازا للدعوة من مريديّة « واتخذ من راسخيه في مذهبه دعاة وأئمة ... دخل في عرضهم رجال من ذوي الفهم والوجاهة وصموا بأتباعه ... ولم يزل يستظهر عليهم بأوثاق في الكتمان الا من الثقاب الوثاق العقدة فاكتم بذلك شأنه الى أن نما » (٢) .

بهذا التخطيط المحكم نجح محمد بن عبد الله بن مسرة في استئناس أعداد غفيرة من أهل الأندلس الى مذهبه قبل أن توافيه منيته سنة ٣١٩ هـ حتى أن أهل الأندلس اتسوسوا بشأنه الى فرقتين فرقة تبغ به مبلغ الامامة في العلم والزهد وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه في الوعد والوعيد وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم » (٣) .

توفي محمد بن عبد الله بن مسرة سنة ٣١٩ هـ (٤) في الوقت الذي أوشك فيه الناصر لدين الله أن يعيد الى الأندلس استقراره وهدوءه وأن يقضى على آخر جيوب التمرد على الحكومة المركزية في لأندلس وأن يوطد أركان خلافته التي كان قد أعلنها في الأندلس قبل وفاة ابن مسرة بثلاث سنوات . وعلى الرغم من فراغ الخلافة الأندلسية من مناصب السياسية تدريجيا وتمرغها لمشاكل أخرى من قبيل الدعوة السرية فقد ظلت هذه الدعوة السرية تنتشر في حياة ابن مسرة وبعد وفاته دون مقاومة تذكر من جانب الدولة أو من مشيخه الأندلس وقد ساعد على ذلك سرية الدعوة وعدم اظهار تعاليمها ولم تفت وفاة ابن مسرة في عضد

(١) ابن حيان : المصدر السابق : ج ٥ ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٣ وابن الفرغى : المصدر السابق

ج ٢ ص ٤٠ .

(٤) ابن الفرغى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ .

الدعوة المسرية فلم « يلبث دعائه مع انتشارهم في البلاد أن تلبثوا بعده بما أوعزهم من مكنون علمه وأخذ عليهم من بثه ... وضفت اليهم أفئدة جماعة من الناس من خاصة وعامة اذاعوه سرا وأفشوا مذهبه وغبطوا من فاء اليه واعتقده فانتشر في قرطبة وطراً الى بلاد سواها » (١) .

يبدو أن مذهب ابن مسرة كان قد وجد أتباعاً في كافة أنحاء الأندلس ، فمن الملاحظ أن الخليفة الناصر لما تصدى للدعوة المسرية أرسل الكتب الى آفاق دولته لينفر من الدعوة المسرية ودعاتها (٢) .

وإذا كان المدى المكاني للدعوة المسرية قد اتسع على النحو السابق فقد اتسع أيضاً مداها الزمني لنحو أربعة عقود منذ عودة ابن مسرة من المشرق في صدر دولة عبد الرحمن الثالث وحتى سنة ٣٤٠ التي بدأت فيها المعارضة الرسمية للدعوة المسرية التي لم تلق قبل تلك السنة سوى معارضة واهنة لا تكاد تذكر ولم يكن لها أدنى أثر في أن تمضي الدعوة المسرية قدماً ، يدل على ذلك أن أبا عاصم عبد الوهاب بن منذر من أهل قرطبة ، كان ناسكاً غنياً متقبضاً عن الناس كثير الصلاة مذكراً بالله تعالى وكان قد نظر في شيء من الكلام فاتهم بالاعتزال ونسب الى مذهب ابن مسرة وانحرف عن الفقهاء المالكيين فتكلموا فيه وكان يؤم بمسجد بدر داخل المدينة وتوفي في سنة ٤٣٦ هـ (٣) وهكذا لم يتعد موقف المالكية من أبي عاصم أكثر من أنهم تكلموا فيه وظل يؤم الناس في مسجد بدر داخل المدينة حتى وفاته .

يبدو أن غياب المعارضة للمسرية — أو وهنها — قبل بدء المعارضة الرسمية سنة ٣٤٠ هـ لا يرجع فقط الى انشغال الدولة في اخماد الفتنة والثورات في نواحي الأندلس فقد أنجزت الدولة معظم هذه المهمة قبل اعلان الخلافة سنة ٣١٦ هـ وقضت على ما تبقى من جيوب التمرد في غضون أعوام قلائل بعد اعلان الخلافة ، وإنما يرجع غياب المعارضة — أو ضعفها — أيضاً الى تقلص نفوذ الفقهاء المشاورين — أو شيوخ العصر كما يدعواهم مؤنس — ابان اندلاع الفتنة من ناحية وانتشار الدعوة

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٥ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ص ٣٨٠ .

المسرية من ناحية أخرى ، فلم تلق الدعوة المسرية معارضة قوية من فقهاء المالكية حتى أن المشاركة كانوا أنشط من مشيخة الأندلس في معارضة المسرية على نحو ما يفهم من ابن حيان اذ يقول : « وقد رد عليه — على ابن مسرة — جماعة من أهل المشرق منهم أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي وأحمد بن محمد بن سالم التستري ، ولأحمد بن خالد الأندلسي المحدث في الرد عليه صحيفة أتى بها عنه أبو محمد الباجي المحدث » (١) .

لم يكن أحمد بن خالد محدثا فقط ولكنه كان أيضا من زهاد الأندلس ومن ثم يبدو أن الزهاد أرادوا أن يوضحوا عدم موافقتهم على آراء المسرية ونعاليهم ومع ذلك لم تلق الدعوة المسرية قبل سنة ٣٤٠ هـ معارضة قوية سواء في حياة ابن مسرة أو بعد مماته وذلك نتيجة انشغال الدولة — كما أشرنا سابقا — من ناحية وتقلص نفوذ مالكية الأندلس حينئذ من ناحية أخرى ، ولعله مما ساعد على عدم ظهور معارضة قوية أن محمد بن مسرة لم يفصح عن تعاليمه ولم يعلنها وإنما كتم دعوته وجعلها سرية بينما أظهر تعمقه في الفقه المالكي وألف فيه المختصرات ولم يث دعوته إلا فيمن وثق فيه من مريديه . لكن انشغال الدولة عن الدعوة المسرية لم يطل خاصة بعد استعادة الأندلس لاستقراره وبسط حكومة الخلافة هيمنتها على سائر أرجاء الأندلس فالتفت الخليفة الناصر إلى الفقهاء المشاورين شيوخ العصر ليرضع بمشورتهم سلطانه وينال بتأييدهم رضا العامة فداودوا نفوذهم في وقت كان قد شاع فيه مذهب ابن مسرة وأصبحت إمامة دعائه والتفاف الناس حولهم تهدد نفوذ شيوخ العصر ، ففزع كبار الفقهاء إلى الخليفة الناصر ينبهونه إلى خطورة الدعوة المسرية ويصورونها له على أنها فتنة مذهبية وسياسية يجب التصدي لها والقضاء عليها (٢) .

استجاب الخليفة عبد الرحمن الناصر لتحريض الفقهاء خاصة وأنه بعد الجهد المضني الذي بذله لتوطيد أركان دولته لم يكن على استعداد لتقبل فكرة وجود أئمة للمسرية يشاركونه في ولاء الرعية أو يشاركونه في سلطاته على أهل الأندلس ، فبرز الخليفة الناصر للتصدي للدعوة المسرية وتتبع دعائها وأئمتها وأوكل هذه المهمة إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر « وأمره بالتنقيب عنهم والقصد لأثارهم وطلب الدلائل

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٢ .

(٢) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ١٧ .

عليهم والايقاع بن صح لديه أنه منهم أو متول لهم فتجرد ابن بدر لهم فشد تخويفهم وأغلظ لمن عز عليهم منهم فجرت لهم في ذلك خطوب» (١) .
وقرىء على الناس بالمسجد بن الجامعين بقرطبة والزهراء في يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة ٣٤٠ هـ كتاب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر وأنفذ الى آفاق ملكه وبلدان كوره والى سائر قواده وجميع عماله كتابا طويلا للتفسير من المسرية وضروره ملاحقتهم والقضاء عليهم وكان هذا الكتاب من انشاء الوزير الكاتب عبد الله الزجاجي نسب فيه الى المسرية القول بخلق القرآن والتأويل وتكذيب التوبة وبطلان الشفاعة ، فتمادى الطلب للمسرية والاختافه لهم وتخويف الناس من فتنهم بقية أيام الناصر لدين الله (٢) .

لم تكن خطورة الدعوة المسرية في آرائها فقط وانما كان أخطر ما فيها دعوة منظمة تنظيما يجعل منها ارهاصة مبكرة بالطريقة الاخوانية الصوفية التي يلتفت فيها المريدون حول شيخ أو امام يدينون له وحده بالولاء ويلتزمون بأقواله وتعاليمه ، ويبدو أن الفقهاء الذين أفرعهم تهديد المسرية لنفوذهم قد جعلوا من المسرية مشكلة سياسية وصوروها للناصر على أنها بدعة تهدد كيان دولته في الأندلس مثلما تهددت الدولة العباسية في المشرق من جراء تهاونها في التصدى للبدع وأهل الزيغ والضلالات (٣) .

وعلى أى حال تتبع رجال الخليفة الناصر دعاة المسرية وأتباعهم وضيّقوا عليهم لكن الدعوة المسرية لم تنته تماما من الأندلس وانما ظلت موجودة على الساحة الأندلسية ، ساعد على ذلك جو التسامح الذي أضفاه الحكم المستنصر على الحياة الفكرية في الأندلس (٤) وظل تلاميذ ابن مسرة يتمسكون بتعاليم استاذهم ولا يكتفون مذهبهم مثل طريف الروطى ومحمد بن مفرج المعافري وابن أخت عبدون أحمد بن وليد بن عوسجة الأنصاري ورشيد بن فتح الدجاج وأبان بن عثمان بن سعيد بن المبرش ومحمد بن عمر بن خير القيسى وعبد العزيز بن حاكم بن أحمد (٥) وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمدون الخولاني الذي كان مشهورا

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ج ٥ ص ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٢ .

(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٥) بالنشيا ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

باعتماد مذهب ابن مسرة لا يتستر بذلك حتى توفي سنة ٣٨٠ هـ ودفن
بسقبرة متعة (١) .

لكن الدعوة المسرية ما لبثت أن تعرضت لهجمة قاسية نتيجة جنوح
السلطة السياسية التي التزمت في أواخر أيام الحكم المستنصر وفي عهد
التصور بن أبي عامر من ناحية ، ومن ناحية أخرى نشاط خصوم المسرية
من الفقهاء واعتلاء أحدهم - وهو محمد بن يقيى بن زرب - منصة
القضاء (٢) فقد نشط محمد بن يقيى في تتبع المسرية واستتاب بعضا
من أتباعها مثل أبي عمر أحمد بن وليد بن عوسجة الأنصاري المعروف
بأبن أخت عبدون ، كان من أهل بجاته ، وتوفي سنة ٣٧٦ هـ (٣) .

ولما زادت الحملة على اتباع ابن مسرة اضطر بعضهم الى كتمان
مذهبهم آخذين بالتقية مثل أبي عبد الله محمد بن خير القيسي الذي كان
لا يظهر مذهب الا للثقات حتى وفاته سنة ٣٨٢ هـ (٤) واضطر بعضهم
الآخر الى الهجرة مثل عبد الرحمن المهندس الذي كان يقب باقليدس
الأندلس (٥) وأبو القاسم رشيد بن فتح الدجاج الذي رحل الى المشرق
بعضا من الوقت ليخفي مذهب لكن محمد بن يقيى صلى عليه حين وفاته
سنة ٣٧٦ هـ (٦) .

وعلى الرغم من تعقب الدولة والفقهاء المالكية لأتباع المسرية فان
الدعوة المسرية لم تقتلع من الأندلس وانما ظلت قائمة ولها أتباع كان
على رأسهم في أيام ابن حزم اسماعيل بن عبد الله الرعيني من أهل بجاته
وكان أهل بيته كلهم مسرين ومن بينهم ابنة له لقبها الناس بالمتكلمة (٧) .
ولعله مما يدل على بقاء الدعوة المسرية أن أبا محمد عبد الله بن نصر
ابن أبيض الذي كان طليطليا وسكن قرطبة ، غنى يجمع كتاب في الرد على
محمد بن عبد الله بن مسرة أكثر فيه من الحديث والشواهد ، وقد توفي

-
- (١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٣ .
 - (٢) بالنشأ : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٣ .
 - (٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٣ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٩٦ .
 - (٥) بالنشأ : المرجع السابق ، ص ٣٣١ .
 - (٦) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٧ .
 - (٧) بالنشأ : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

ابن أبيض هذا سنة ٣٩٩ هـ بعد وفاة ابن مسرة بأكثر من ثمانين عاما ، بل انه كان طفلا لا يتعدى عمره احدى عشر عاما (١) حين بدأت المعارضة الرسمية للدعوة المسرية في عهد الخليفة الناصر سنة ٣٤٠ هـ (٢) .

وكان منهم أبو رجاء عثمان بن سعيد بن همام بن عبد السلام ابن عبد الرؤوف من أهل البيرة ، كان يكاتب محمد بن مسرة ، وكان عظيم انجاه في موضعه ، حدث وتوفي سنة ٣٢٥ هـ أو ٣٢٦ هـ (٣) وكان أيضا منهم أبو عمر أحمد بن فرج بن منتيل بن قيس من أهل قرطبة ، رحل الى المشرق وسمع من الشعرائي وغيره بمصر . كان ينسب الى اعتقاد مذهب ابن مسرة وتوفي سنة ٣٤٤ هـ (٤) .

كانت الدعوة المسرية خطوة بعيدة في طريق التصوف الاسلامي حتى يمكننا القول ان مذهب ابن مسرة تعيل مكانة الأساس في التصوف الأندلسي ، فمنه اقتبس فيما بعد التصوف الفاسي الذي أرسى دعائمه أبو العباس أحمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف والمتوفى سنة ٥٣٦ هـ ومنه أيضا اقتبس فيما بعد تصوف الطرق الجماعية الاخوانية التي ستصبح سنة التصوف الاسلامي منذ القرن السابع الهجري .

ومهما كان مصير الدعوة المسرية فانها لم تزل وحدها على ساحة التصوف الأندلسي اذ كان للمتصوفة الأفراد الذين يسلكون طريق التصوف القردى تواجدهم جنباً الى جنب مع النزعة المسرية الباطنية . كان من هؤلاء المتصوفة الأفراد عبد الله بن نصر الحسوقي من أهل قرطبة ، كان مؤدبا في مسجد أبي علاقة ، كان من يسرد الصوم والصلاة ،

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ص ٣٥٠ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٠ .

توفي سنة ٣١٥ هـ (١) . ويسكن أن نعد منهم أبا عبد الله محمد بن أصبغ ابن لييب من أهل استجة أدخلناه في الزهاد سابقا لالتزامه الزهد والعبادة إلا أنه يدخل في المتصوفة من باب تكلمه في مذاهب العلم الباطني وهو بذلك يمثل ملامح التصوف الفردي وقتذاك والذي كان خليط من الزهد والتصوف ، توفي أبو عبد الله محمد بن أصبغ سنة ٣٢٧ هـ (٢) .

وكان منهم أبو القاسم قاسم بن نصير بن رقاص بن عيشون من أهل شذونه ، كان فقيها حافظا للرأى ونحويا لغويا شاعرا ، وكان صاحب الصلاة والخطبة في ملشائه . تخلص عن الدنيا آخر عمره وصار في هيئة الأبدال وأكثر شعره في الزهد وذم الدنيا وشواهد الحكم والتذكير والوعظ ، توفي سنة ٣٣٨ هـ (٣) .

وإذا كان هؤلاء المتصوفة قد عاجلتهم المنية قبل بدء المعارضة الرسمية للدعوة المسرية فقد عاصر متصوفة آخرون من أهل التصوف الفردي محنة المسرية وشدة الاعتراض عليها دون أن يتعرض أحد منهم لشيء من الانتقاد أو الاعتراض ومعنى هذا أن المعارضة الرسمية التي بدأها الخليفة الناصر سنة ٣٤٠ هـ لم تكن موجهة إلى التصوف كنزعة روحية وإنما كانت موجهة أساسا إلى المسرية كدعوة .

كان من المتصوفة الأفراد الذين عاصروا محنة المسرية أبو الوليد يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث بن عبد الله الأنصاري قاضي الجماعة بقرطبة المعروف بابن الصغار الذي تربى في بيئة روحية إذ كان أبوه أبو محمد عبد الله ناسكا عابدا زاهدا ذكرناه ضمن الزهاد ، وقد ورث أبو الم ليد عن أبيه نزعة الروحية لكنه تصاعد بها إلى التصوف إذ وصف بأنه من أعيان أهل العلم زاهدا فاضلا يميل إلى التحقيق في التصوف وله فيه مصنفات ، ومن كتبه كتاب المتقطعين إلى الله عز وجل وكتاب المتجهدين وكتاب النسيب والقريب وله أشعار في المعنى وفي الرقائق والزهد (٤) .

(١) ابن الفرسي المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٦٤ .

(٤) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣٨٤ وابن بشكوال : المصدر

السابق ، ج ٢ ص ٢٢ .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أبي الحسام طاهر العيشي التدميري المعروف بالشهيد ، كان زاهدا ورعا فاضلا خيرا ناسكا متبتلا رحل الى المشرق في الثلاثين من عمره فسكن الحرمين أعواما ثمانية وتردد على بيت المقدس والعراق واستكثر من لقاء العلماء والفقهاء وصحب الأخيار والنسك وتآلفهم واقتدى بهم فدخل طريق التصوف ولبس الصوف وتورع جدا وأعرض عن شهوات الدنيا ونسبت اليه اجابة الدعوة والكرامات ثم انصرف الى الأندلس مجيبا دعوة والده بالسودة فقدم تدمير سنة ٣٠٦ هـ ونزل بالقرية المنسوبة الى بنى طاهر من نواحي مرسية قاعدة تدمير وابتنى لنفسه بيتا سقفه يحطب الشعير ، وكانت له ضيعة صغيرة أخذ يعمرها بيده ويقتات على ما تخرجه من بقل وتمر وكان لا يدع الجهاد فشهد مع محمد بن أبي عامر فتح سمورة وفتح قلورية ثم ترك سكنى قريته ورابط بالثغر فكانت له شدة وبأس وشجاعة ومازال مرابطا حتى استشهد بطليبة في سنة ٣٨٩ هـ (١) .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن خلف الصوفي من أهل قرطبة وصف بأنه من أهل السنة بمعنى أن مذهبه لم يكن موضع انتقاد أو اعتراض . توفي سنة ٣٨٧ هـ (٢) وأبو عثمان سعيد بن محمد بن سيد أبيه البلدي من ناحية تليدة من عمل ريه ، كان صالحا متبتلا متقشفا يلبس الصوف كثير الرباط والجهاد في الثغور ، توفي سنة ٣٩٧ هـ (٣) .

وأبو بكر أحمد بن سعيد بن سليمان الصوفي ، قرطبي ، حدث عنه صاحبان الزاهدان ابن شنطير وابن ميمون وقالاه قدم عليهما طليطلة مجاهدا وتوفي سنة ٣٩٧ هـ (٤) .

وأبو أيوب سليمان بن عبد الغافر بن بنج مال الأموي القرشي الزاهد ، سكن قرطبة ، كان من أهل الزهد والتقلل من الدنيا وخاتمة الزهاد والصلحاء وأهل الاجتهاد والورع ، كان يلبس الصوف ويمشي حافيا ولا يقبل من أحد شيئا ، وكان معروفا باجابة الدعوة ، وبكى من خشية الله حتى كف بصره ، كثير التذكر للموت وكثيرا ما يقول اذا سئل

(١) الصينى : المصدر السابق ص ٨٣ .

(٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢١ .

(٤) نفس المصدر : ج ١ ص ١٩ .

عن حالته : كيف تكون حالة من الدنيا داره وإبليس جاره ومن تكتب أعماله وأخباره وكان يصل هذا الكلام عن بعض من لقيه من الصالحين توفي سنة ٤٠٠ هـ عن ٩٨ سنة ودفن بمقبرة الريض وشهد جنازته حفل عظيم لم ير مثله وشهده الخليفة محمد بن هشام المهدي في جميع رجال مملكته وهو الذي صلى عليه وقتل المهدي بعد بتسعة عشر يوما (١) .

وقضلا عن هذا فقد وفد على الأندلس في تلك الفترة عدد من متصوفة المشرق أبان محنة المسرية وبعدها فما تعرض أحد منهم لأذى أو قدح ، فقد وصل الأندلس سنة ٣٤٠ هـ أبو العباس طاهر بن محمد ابن عبد الله المعروف بابن المهند ، بغدادي ، كان فاسكا شاعرا له أشعار ومقالات في معاني الزهد على مذاهب الصوفية (٢) كما وفد الى الأندلس أيضا في سنة ٣٥٨ هـ أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن محمد بن أحمد الديلمي الضوفي الخراساني ، أقام بقرطبة يسيرا ثم خرج منصرفا الى المشرق (٣) . ودخل الأندلس أيضا أبو بكر أحمد بن محمد بن صالح الأنطاكي الصوفي في سنة ٣٧٢ هـ وكان مذهبه التصوف والسياسة جوالا في البلاد (٤) .

وصف ابن بشكوال أبا أيوب سليمان بن بنج مال المتوفى سنة ٤٠٠ هـ بأنه خاتمة الصلحاء والزهاد وأنه آخر العباد بقرطبة وأغلب الظن أن ابن بشكوال لا يقصد بعبارته أن ابن بنج مال هو الأخير الذي لم يأت أحد بعده وإنما يقصد التعبير عن علو قدره ومكاته في الزهد والصلاح والعبادة وأن أحدا من اللاحقين لم يبلغ قدره ولا ارتقى الى مكاته ، إذ أن ابن بشكوال نفسه يمدنا بتراجم أخرى لمتصوفة لاحقين من أهل القرن الخامس الهجري مما يؤكد أنه كان يقصد تقرّظ ابن بنج مال وبيان علو قدره .

وعلى الرغم من ذلك فانه من الملاحظ أن تراجم المتصوفة — وأيضا الزهاد — قد تناقصت في الفترة التالية ، فهل يعني ذلك قلة الزهاد والمتصوفة

(١) نفس المصدر : ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٢ .

(م ١٣ — الزهاد والمتصوفة)

في الأندلس حقيقة أم أن الكتاب قد انشغلوا بالأحداث السياسية المتلاحقة من مطلع القرن الخامس الهجرى عن الترجمة للعباد من زهاد ومتصوفة .

على أى حال ، فقد وصلت إلينا تراجم بعض الصوفية — على قلتها — مما يدل على أن النزعة الصوفية في الأندلس لم تتوقف بل لعلها قد ازدادت نشاطا نتيجة سوء الأحوال السياسية في مطلع القرن الخامس الهجرى .

كان من المتصوفة الأندلسيين الذين ينتمون الى القرن الخامس الهجرى أبو محمد عطية بن سعيد بن عبد الله أندلسى حافظ ، سمع بالأندلس ورحل قبل الأربعمئة ، طاف بلاد المغرب سياحة وانتظمها سماعا وبلغ الى ما وراء النهر كان يتقلد مذهب الصوفية والتوكل ويقول بالاثار ولا يمسك شيئا مقتصرا على لبس فوطة ومرقعة ويؤثر بما سوى ذلك ، كان لا يضع جنبيه على الأرض وانما يتام محتبيا وكان له حظ وقبول من الناس ، أقبل عليه أصحاب أبي عبد الرحمن السامى فضاق بهم صدره وكانت وفاته بمكة سنة ٤٠٧ هـ (١) .

وكان منهم أبو اسحاق ابراهيم بن شاعر ، كان فاضلا دنيا وان كان أحد في عصره من الأبدال فيوشك أن يكون هو منهم ، طلب العلم الى أن مات (٢) .

وكان منهم ذو النون الرجل الصالح من أهل تاكرنا ، كان ناسكا فاضلا زاهدا ، لقي مغوذ بن داود وجرى على طريقته وسننه توفي بعد سنة ٤٥٠ هـ (٣) . وأبو محمد تمام بن عفيف بن تمام الصدقى الواعظ الزاهد ، من أهل طليطلة ، أخذ عن زهاد طليطلة تعبدوس بن محمد والصاحبين ابن ميمون وابن شنطير ، شهد بالزهد والورع والصلاح والعفاف ، يقط الناس ويخصهم على الخير ويندبهم اليه ويدلهم عليه وكان متقللا من الدنيا راضيا في قوته باليسير . كان يلبس الصوف ويجتهد في أعمال البر كلها ويعلم الناس أمر دينهم وما يلزمهم ، توفي

(١) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣١٩ والضبي : المصدر السابق ، ص ٤٣٣ وابن بشكوال : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٧ .
(٢) الحميدى : المصدر السابق ص ١٥٥ والضبي : المصدر السابق ص ٢١٨ وابن بشكوال : المصدر السابق ج ١ ص ٨٩ .
(٣) ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٤ .

سنة ٤٥١ هـ (١) • وأبو الربيع سليمان بن حارث بن هارون الفهمي ، من أهل سرقة ، رحل الى المشرق وحج ، حدث عنه القاضي أبو علي الصدفى وقال انه رجل صالح من الأبدال ، كانت وفاته بالاسكندرية سنة ٤٨١ هـ (٢) •

ودخل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عديد من المتصوفة المشاركة ، كان منهم أبو عبد الله محمد بن شجاع الصوقى ، كان رجلا صالحا مشهورا على طريقة قدماء الصوفية المحققين وذوى السياحة المتجولين « أقام بالأندلس الى أن توفى قريبا من سنة ٤٣٠ هـ (٣) وأبو الحسن على بن حمزه الصقلى ، دخل الأندلس قبل سنة ٤٤٠ هـ ، كان يشارك فى علوم ويتكلم فى فنون ويتصوف (٤) •

وهكذا استمر التصوف فرديا فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، لكنه كان آخذا فى التصاعد نحو شكل من أشكال التصوف الفلسفى سوف تظهر بوادره عند كل من أبى بكر الطرطوشى وأبى بكر بن العربى ثم ترسى دعائمه عند ابن العريف ثم يبلغ التصوف الفلسفى ذروته فى الأندلس عند محبى الدين بن عربى •

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢١ •

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ •

(٣) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٦١ ، ابن بشكوال ، المصدر السابق ج ٢ ص ٥٩٥ •

(٤) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣١٢ •

والضبى ، المصدر السابق ص ٤٢١ •

وابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٣١ •

مصادر البحث ومراجعته

(١) القرآن الكريم

(ب) الحديث النبوى الشريف

(ج) مخطوطات :

١ - السهروردى : الشيخ العارف الامام ضياء الدين ابى النجيب
ابن عبد الله بن محمد البكرى
- آداب المريدين :
(ت ١١٦٨ / ٥٦٣ م)

خطية مصورة بجامعة الملك عبد العزيز رقم ١٢٧١ . عن خطية مكتبة
الاقواف العامة ببغداد رقم ١٨٦٦ .
- مجموع من كلام السهروردى : خطية مصورة بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز
برقم ١٢٢٥ عن الأصل الموجود بألمانيا .

٢ - السيوطى : جلال الدان ابو الفضل عبد الرحمن بن ابى بكر
ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م - الجزء الأخير من كتاب النقاية .

مخطوط رقم ٦ / ٧٣٩ ضمن مجموعة بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز .
٣ - ابن فضل الله العمري : شهاب الدين أحمد بن يحيى :

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار طبع تصويرى عن خطية رقم
٤ / ٢٧٩٧ ، أحمد الثالث ، طوبقا بوسراى استانبول بعناية فؤاد
سزكين ، فرانكفورت / ١٩٨٨ م .

٤ - مجهول : لعله من تلاميذ عبد القادر الجيلانى .:

رسالة بدون عنوان موضوعها آداب الصوفية واحوالهم واحكام
طريقتهم - مخطوط بجامعة الملك عبد العزيز برقم ٧٦٥ . (صنفت فى
القهارم تحت عنوان آداب الصوفية ونسبت خطأ الى ابى عبد الرحمن
السلمى لكن يتضح من نصها أن كاتبها من تلاميذ عبد القادر الجيلانى وأنه
كتبها بعد وفاة شيخه الذى توفى فى ٥٦١ هـ .

(د) مصادر مطبوعة :

١ - ابن الأبار : محمد بن عبد الله بن ابى بكر القضاى .

ت ٦٥٨ هـ / ١٢٩٠ م

- التكملة لكتاب الصلة

- المعجم فى اصحاب القاضى ابى على الصدى - القاهرة / ١٩٦٧

- ٢ — ابن أبي ذؤعد :
الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة
فاس ٢ تيق محمد الهاشمي الفيلاي . الرباط / ١٩٣٦
- ٣ — ابن بشكوال : أبو القاسم بن خلف
الصلة في تاريخ أئمة الأندلس
القاهرة / ١٩٦٦
- ٤ — البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (من المسالك والممالك)
نشره دي سلان الجزائر / ١٨٥٧ م
- ٥ — ابن تيمية : شيخ الإسلام أحمد :
مجموع فتاوى مجلد ١١ الرباط / بدون . ت
رسالة الصوفية والفقراء جدة / بدون . ت
- ٦ — الجاحظ : أبو عمرو بخر بن عثمان
البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون بيروت / — ت
- ٧ — إجمان : عبد الرحمن
نفحات الأنفس
- ٨ — ابن الجوزي : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن البغدادي
(ت ٥٩٧ هـ)
تلبيس إبليس بيروت / ١٣٦٨ هـ
- ٩ — الجوهرى : اسماعيل بن حماد
مختار الصحاح تحقيق أحمد عبد الغفور عكار بيروت / ١٩٧٩
- ١٠ — الحميدى :
جدوة القتبس في تاريخ علماء الأندلس
- ١١ — ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف القرطبي :
المقتبس ، نشر محمود على مكي القاهرة / ١٩٧١
المقتبس ، نشر شاليتا وكورنيطي وصبح مدريد / ١٩٧٩
- ١٢ — ابن حوقل : أبو القاسم انصبي :
صورة الأرض بيروت / ١٩٧٩
- ١٣ — ابن خلدون :
مقدمة ابن خلدون الجزائر / ١٩٨٤
شفاء السائل لتهذيب المسائل نشر اغناطيوس عبده اليسوعي
بيروت / ١٩٥٩

١٤ — **البباغ** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصارى الاسيدى :
معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ج ١ ، ج ٢ القاهرة / ١٩٦٨ —
١٩٧٢ .

١٥ — **الاسراج الفلوسى** : أبو نصر عبد الله بن على :
اللمع في التصوف تحقيق رينولد . ١ — نيكلسون ليدن / ١٩١٤

١٦ — **ابن سعيد الأندلسى** : على بن موسى :
— المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف القاهرة / ١٩٦٤
— رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق النعمان القاضى القاهرة / ١٩٧٢

١٧ — **السلمى** : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي (ت ٤١٢ هـ)
— طبقات الصوفية ، تحقيق نور الدين شربية القاهرة / ١٩٥٣
— المقدمة في التصوف ، تحقيق حسين أمين بغداد / ١٩٨٤

١٨ — **السهروردى** :

مرآة السالكين

بهامش كتاب احياء علوم الدين للغزالي .

١٩ — **العينى** : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة
بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس (ت ٥٩٩ هـ)
القاهرة / ١٩٦٧

٢٠ — **العباس بن ابراهيم** :

الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام :

ج ١ تحقيق عبد الوهاب بن منصور الرباط / ١٩٧٤

٢١ — **ابن عنادى المراكشى** :

البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب .

٢٢ — **أبو العرب** : محمد بن أحمد بن تميم القيروانى :

طبقات علماء افريقية وتونس

تحقيق على الشاذلى ونعيم اليافى تونس / ١٩٦٨

٢٣ — **عياض** : القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى (ت ٥٤٤ هـ)

— ترتيب المدارك وتقريب المالك لمعرفة أعيان مذهب الامام مالك .

— الغنية ، فهرست شيوخ ابقاضى عياض تحقيق / ماهر جرار ،
بيروت / ١٩٨٢ .

٢٤ — **الغبيرى** : أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله (ت ٧١٤ هـ)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية تحقيق /
عادل تويهنض بيروت / ١٩٦٩

- ٢٥ - **الغزالي** : الامام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي . (ت ٥٠٥ هـ)
أحياء علوم الدين
القاهرة / ١٩٦٨
- ٢٦ - **ابن فرحون** : برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد المدني المالكي
(ت ٧٩٩ هـ)
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق / محمد
الأحمدي أبو النور
القاهرة / ١٩٧٤ م .
- ٢٧ - **ابن الفرخي** :
تاريخ علماء الأندلس .
- ٢٨ - **ابن قتيبة الدينوري** : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)
عيون الأخبار ، مجلد ٢ ، كتاب الزهد ، بيروت من ط القاهرة / ١٩٢٥ م
- ٢٩ - **ابن قدامة المقدسي** : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٤٢ هـ)
مختصر من هاج القاصدين
دمشق / ١٣٨٩ هـ .
- ٣٠ - **القشيري** : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيابوري :
(ت ٤٦٥ هـ)
- الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود وزميله .
- أربع رسائل في التصوف ، تحقيق قاسم السامرائي ، مجلة المجمع
العلمي العراقي ، مجلد ١٧ - ١٨ / ١٩٦٩ .
- ٣١ - **القرواني** :
انموذج الزمان .
- ٣٢ - **ابن قيم الجوزية** :
مدارج السالكين .
- ٣٣ - **الكتبي** : محمد بن شاکر :
فوات الوفيات ، تحقيق / احسان عباس ، بيروت / ١٩٧٢
- ٣٤ - **الكندي** :
الولاية والقضاة .
- ٣٥ - **الكلايادي** : تاج الاسلام أبو بكر محمد (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)
التعرف للمذهب أهل التصوف
تحقيق / عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور القاهرة / ١٩٦٠
- ٣٦ - **الماكي** :
رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزها دهم ونساکهم
- ج ١ تحقيق / حسين مؤنس
القاهرة / ١٩٥١
- ط ثانية تحقيق / بشير البكوش
بيروت / ١٩٨٣

- ٢٧ - **المراكشي** : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري :
الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة
السفر الخامس رقم ٢ - تحقيق / احسان عباس بيروت / ١٩٦٥
- ٢٨ - **مجهول** : كاتب مراكشي من القرن السادس الهجري / ١٢ م :
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار
تحقيق / سعاد زقلول عبد الحميد ، الاسكندرية / ١٩٥٨
- ٢٩ - **المقري** : أحمد بن محمد التلمساني :
نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب
تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت عن ط. القاهرة / ١٩٤٩ م
- ٤٠ - **ابن منظور** :
لسان العرب .
- ٤١ - **أبو نعيم الأصبهاني** : الحافظ أحمد بن عبد الله : ت ٤٣٠ هـ
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، بيروت / ١٩٦٧
- ٣٢ - **التياهي** :
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا .
- ٤٢ - **النوري** : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : ت ٧٣٢ هـ
نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٥ القاهرة / ب . ت
- ٤٤ - **الهجويري** : علي بن عثمان الجلابي :
كشف المحجوب
تحقيق / اسعاد عبد الهادي قنديل القاهرة / ١٩٧٤
- ٤٥ - **الهروي** : شيخ الاسلام عبد الله الأنصاري : ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٩ م
كتاب منازل السائرين .
- تحقيق / الاب س - دي لوجيه دي يوركي الدومني القاهرة / ١٩٦٢
- هـ - **مراجع عربية ومعربة** :
- ١ - **ابراهيم بسيوني** :
نشأة التصوف الاسلامي ، القاهرة / ١٩٦٩
- ٢ - **ابولبابة حسين** :
موقف متصوفة افريقية وزهادها من الاحتلال العبيدي الرياض ١٩٧٩
- ٣ - **أحمد الشرباصي** :
- الغزالي والتصوف الاسلامي .
- التصوف عند المستشرقين ، سلسلة الثقافى الاسلامية عدد ٢٧ / ١٩٦٥

- ٤ - احسان الهى ظهير :
التصوف ، المنشأ والمصدر
لاهور / ١٩٨٦
- ٥ - احسان عباس :
تاريخ الادب الاندلس - مصر الطوائف والمرابطين بيروت / ١٩٦٢ .
- ٦ - اولدى : دى لاسى :
الفكر العربى ومركزه فى التاريخ
ترجمة / اسماعيل البيطار
بيروت / ١٩٧٢
- ٧ - بالنشيا : آتخل خيئالاث :
تاريخ الفكر الاندلسى .
ترجمة / حسين مؤنس
القاهرة / ١٩٥٥
- ٨ - بروكلمان : كارل :
تاريخ الشعوب الاسلامية .
ترجمة / بنيه فارس ومنير البعلبكي
بيروت / ١٩٦٥
- ٩ - بل ، الفرد :
الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى من الفتح العربى حتى اليوم
ترجمة / عبد الرحمن بدوى
بيروت / ١٩٨١
- ١٠ - حسن حسنى عبد الوهاب :
ورقات من الحضارة العربية بافريقية التونسية - ج ٢ -
تونس / ١٩٨١
- ١١ - حسين مؤنس :
- شيوخ العصر فى الاندلس
- مقدمة كتاب رياض النفوس - ط
القاهرة / ١٩٦٥
القاهرة / ١٩٥١
- ١٢ - جولد تسهير ، اجناس :
العقيدة والشريعة فى الاسلام .
ترجمة / محمد يوسف موسى وآخرون
القاهرة / ١٩٤٦
- ١٣ - زكى مبارك :
التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق
بيروت / ب . ت
- ١٤ - زينب محمد رجاء الله البلادى العربى :
الزهد والتصوف بين المؤيدين والمعارضين .
رسالة دكتوراه بكلية التربية للبنات بمكة المكرمة
١٠٤٩ هـ

- ١٥ - سميع عاطف الزين :
الصوفية في نظر الاسلام
بيروت / ب.ت
- ١٦ - عبد الرحمن بدوي :
تاريخ التصوف الاسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري
الكويت / ١٩٧٥
- ١٧ - عبد الرحمن الوكيل :
هذه هي الصوفية
الرياض / ١٩٨٣
- ١٨ - عبد الكريم الخطيب :
نشأة التصوف .
سلسلة الثقافة الاسلامية
عدد ٢٢ / أكتوبر : ١٩٦٠
- ١٩ - عبد العزيز عتيق :
الادب العربي في الاندلس
بيروت / ١٩٧٦
- ٢٠ - عرفان عبد الحميد فتاح :
نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها
بيروت / ١٩٧٤
- ٢١ - عصام سالم سيسالم :
(التاريخ الاسلامي لجزر البليار ٨٩ - ٦٨٥ هـ / ٧٠٨ - ١٢٨٧ م)
بيروت / ١٩٨٤
- ٢٢ - علي صافي حسين :
الادب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري
القاهرة / ١٩٦٤
- ٢٣ - علي بن محمد الدخيل الله :
التجانية
الرياض / ١٤٠١ هـ
- ٢٤ - عبد اللطيف الشاذلي :
الحركة العياشية
الرباط / ١٩٨٢
- ٢٥ - كامل الشيبى :
الصلة بين التصوف والتشيع .
- ٢٦ - كوربان ، هذى :
تاريخ الفلسفة الاسلامية .
ترجمة / نصير مروه وحسن قبيسى
بيروت / ١٩٦٦
- ٢٧ - قاسم غنى :
تاريخ التصوف في الاسلام .
ترجمة / صادق نشأت
القاهرة / ١٩٧٢
- ٢٨ - محمد جواد مقنتية :
معالم الفلسفة الاسلامية .
(و) دوريات :

- ١ - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني :
« الطرق الصوفية في مصر » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ،
مجلد ١٩٦٣/٢ ، ج ٢ ص ص ٥٥ -
 - ٢ - جاسم صليان علي :
« النصرانية ونشأة التصوف الإسلامي » ، مجلة كلية الآداب - جامعة
القاهرة ، البصرة / ١٩٧٧ ، ص ص ١٦٣ - ١٧٧ .
 - ٣ - حبيب القيسي :
« أبو بكر بن العربي وموقعه من المذاهب الفكرية في عصره » مجلة
جامعة البصرة ج ٣ - ١٩٦٨/٤ ص ص ٨٢ - ١١٨ .
 - ٤ - توفيق بن عامر :
« الصوفية والعقيدة الجبرية » ، حوليات ائجامدة التونسية ، عدد
١٩٨٠/١٨ ص ص ٧٥ - ٨٨ .
 - ٥ - قاسم السامرائي :
« اربع رسائل في التصوف لابي القاسم القشيري » ، مجلة المجمع
العلمي العراقي مجلد ١٩٦٩/١٧ ص ص ٢٥٩ - ٢٨٤ مجلد
١٩٦٩/١٨ ص ص ٢٤٢ - ٢٨٦ .
 - ٦ - محمد كامل حسين :
« بين تشيع وأدب الصوفية بمصر في عصر الايوبيين والمماليك » ،
مجلة كلية الآداب جامعة - القاهرة ، مجلد ١٩٥٤/١٦ ج ٢
ص ص ٤٥ - ٧٢ .
 - ٧ - محمد الوزاد :
« الاتجاهات الفكرية في الاندلس خلال القرن الثالث الهجري » ،
مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس ، عدد ٤ - ٥ (٨٠ - ١٩٨١)
ص ص ١٤٨ - ١٧٨ .
 - ٨ - محمد الوزاد :
« الملامح العامة لشخصية ابن مسرة وآرائه » ، مجلة كلية الآداب
والعلوم الانسانية ، بفاس عدد ١٩٨٢/٦ ، ص ص ٣٣ - ٦٤ .
 - ٩ - المهدي البوعبدلي :
« الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى » ، مجلة الاصاله -
الجزائر - عدد ١٩٣٣/١٣ - ص ص ١٩ - ٣٨ .
- (ي) دوائر المعارف :
- ١ - دائرة المعارف الاسلامية .
 - ج . رسكا : مادة زاوية .
 - كارادي فو : مادة درويش .
 - ج . مارسويه : مادة رباط .
 - ماسنيون : مادة تصوف - مادة طريقة .
 - مصطفى عبد الرازق : مادة تصوف .

مراجع اجنبية :

1. — Arbery;
Sufism London, 1950.
2. — Asin Palacios;
Ibn Masarray su Escula Madrid, 1914.
3. — Margoliouth, DS;
The Devils Delusion by Ibn Al-Jayzi, IC, IX (Jan 1935) pp. 1-21.
4. — Nicholson, R.A.
article Sufies Ency clopoedia of Religious and Ethics, 6 th Impr-
ession (1967).
5. — Trimmingham. J.S.;
The Sufi Orders in Islam Oxford, 1971.

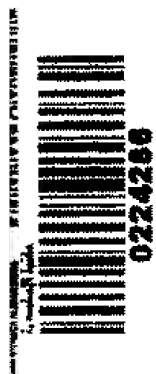
محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	من الزهد الى التصوف
٥١	الزهد والتصوف في بلاد المغرب الاسلامى حتى القرن الخامس الهجرى
٥٣	الزهد والزهد في بلاد المغرب الاسلامى
٥٩	(١) أسفار الزهاد وسياحاتهم
٥٩	رحلات الزهاد الداخلية
	رحلات الزهاد الخارجية
٦١	(ب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٦١	والتصدي لظالم الحكام
٦٣	(ج) حلقات العلم ومجالس السماح والفكر
	التصوف في بلاد المغرب حتى نهاية القرن الخامس الهجرى
٩٠	دور التصوف في الحياة المغربية
١٠٠	الزهد والتصوف في بلاد الأندلس
١١٧	الزهد في الأندلس
١٤٣	تصاعد تركة الزهد في الأندلس
١٧٤	التصوف في الأندلس
١٧٧	تصاعد التصوف في الأندلس
١٩٦	مصادر البحث ومراجعته
١٩٦	(١) القرآن الكريم
١٩٦	(ب) الحديث النبوى الشريف
١٩٦	(ج) مخطوطات
١٩٦	(د) مصادر مطبوعة
٢٠٠	(هـ) مراجع عربية ومصرية
٢٠٢	(و) دوريات
٢٠٣	(ى) دوائر المعارف
٢٠٤	المراجع الأجنبية

تم الطبع بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
المدير العام
البرنسى حمودة حسين
١٩٩٣/٨/٢٦

رقم الايداع ١٩٩٣/٧١٣٢
الترقيم الدولى 977-00-5470-4

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٧٨٨/١٩٩٢/٥٠٠)



To: www.al-mostafa.com